



الداري السباني

مختصر

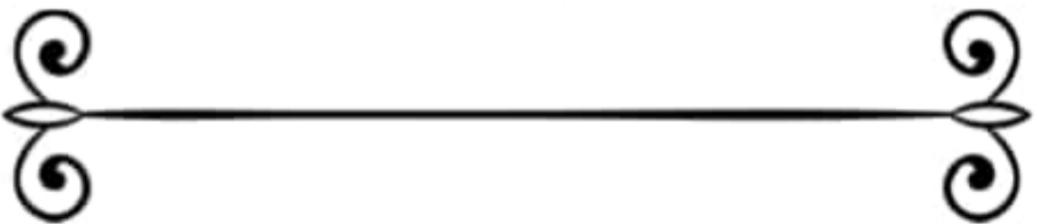
شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

الدكتور عبد الكريم زيدان



مختصر
شرح العقيدة الصالحة

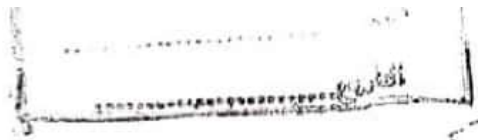


تأليف

الدكتور عبد الكريم زيدان



الناري الشبائي



تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين .

وبعد

فإن متن العقيدة الطحاوية للامام أبي جعفر الطحاوي الفقيه المعروف المتوفى
سنة احدى وعشرين وثلاثمائة للهجرة من المتون القديمة الموثوقة التي بينت جوانب
العقيدة الاسلامية كما جاءت بها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وقد
شرحها أحد العلماء الأفاضل القدامى وهو - علي - ما استظهره الشيخ أحمد شاكر -
علي بن محمد ابن محمد بن أبي العز الحنفي .

وقد جاء هذا الشرح موضحاً أحسن توضيح لما جاء في متن العقيدة
الطحاوية مع ذكر الأدلة والبراهين من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، الا
أنه جاء مطولاً ، وفيه أبحاث استطرادية ليست لها علاقة مباشرة بتمس العقيدة .
وان كانت نافعة ، ولهذا فقد رأينا اختصار هذا الشرح ، لأن النفوس لم تعد
تصبر على قراءة المطولات من الكتب القديمة وقد راعينا في الاختصار أن يبقى
الشرح وافياً بالمقصود ، ومن هذا الأساس حذفنا منه ما ليس له علاقة مباشرة
بشرح متن العقيدة ، مع وفاء الباقي منه بتوضيح هذه العقيدة .
وسميناه « مختصر شرح العقيدة الطحاوية » والله نسأل أن ينفع به المسلمين
وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم انه نعم المولى ونعم النصير .

دار التفتيش

للطباعة والنشر والتوزيع

ترجمة الإمام الطحاوي صاحب العقيدة

هو الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلامة بن عبد الملك بن سلامة بن سليم ابن سليمان بن جواب الأزدي الطحاوي - نسبة الى قرية بصعيد مصر .

أحد الأئمة الكبار في الفقه والحديث ، ولد رحمه الله سنة تسع وثلاثين ومائتين للهجرة وتلقى العلم على خاله اسماعيل بن يحيى الزين أفقه أصحاب الامام الشافعي وقد تحول الامام الطحاوي الى منهج المذهب الحنفي في الاجتهاد والتأصيل والتفريع حتى عد من أتباع هذا المذهب .

ولكن لم يكن مقيداً فيه ، ولذلك خالف فقه هذا المذهب في بعض المسائل ورجح قول غير الحنفية فيها ، لما يظهر هذا في كتابه ومعاني الآثار .

وقد أثنى على فقهه وعلمه وحفظه ومعرفته بالآثار غير واحد من العلماء . قال الذهبي عنه في تاريخه الكبير : الفقيه المحدث الحافظ أحد الاعلام وكان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً .

وقال عنه ابن كثير صاحب التفسير في كتابه (البداية والنهاية) : هو أحد الثقات الاثبات والحفاظ الجهابذة .

أما تصنيفاته فكثيرة منها (العقيدة الطحاوية) و (أحكام القرآن) و (معاني الآثار) و (شرح الجامع الكبير) و (شرح الجامع الصغير) و كتاب الشروط والمختصر وغيرها .

توفي رحمه الله سنة احدى وعشرين وثلاثمئة ليلة الخميس مستهل ذي القعدة بمصر ودفن بالقرافة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله / ، نحمده ، و / نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .
وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده
ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم ، اذ شرف العلم بشرف
المعالم ، وهو الفقه الاكبر بالنسبة الى فقه الفروع ، ولهذا سمي الامام أبو حنيفة
رحمة الله عليه اقاله وجمعه في أوراق من اصول الدين : «الفقه الاكبر» وحاجة العباد
اليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم اليه فوق كل ضرورة ، لانه لا حياة للقلوب ،
ولا نعيم ولا ظمأنينة ، الا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاضلها ، بأسمائه وصفاته
وأفعاله . ويكون مع ذلك كانه أحب اليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها اليه
دون غيره من سائر خلقه .

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وادراكه على التفصيل ، فاقترضت
رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين ، واليه داعين ، ولهم أجابهم
مبشرين ، ولهم خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم ، وزبدة رسالتهم ،
معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، اذ على هذه المعرفة تبنى مطالب
الرسالة كلها من أولها الى آخرها .

ثم يتبع ذلك أصلا عظيما :

أحدهما : تعريف الطريق الموصل اليه ، / وهي شريعته المتضمنة لامره

ونهييه .

والثاني : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول اليه / من النعيم المقيم :
فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل اليه ، وأعرفهم بحال السالكين
عند القدوم عليه . ولهذا سمي الله ما أنزله على رسوله روحا ، لتوقف الحياة
الحقيقية عليه ، ونورا لتوقف الهداية/ عليه . فقال الله تعالى : (ياقي الروح من
أمره على من يشاء من عباده) المؤمن : ١٥ . وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك
روحنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي
به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما
في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ . ولا
روح الا فيما جاء به الرسول ، ولا نور الا في الاستضاءة به ، وسماه الشفاء كما قال
تعالى : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) فصات : ٤٤ . فهو وان كان هدى
وشفاء مطاقا ، لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنون ، خصوا بالذكر .

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، فلا هدى الا فيما جاء به .
ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانا عاما
مجملا ، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية ،
فان ذلك داخل في تبليغ ما بهت الله به رسوله ، وداخل في تدبر القرآن وعقله
وفهمه ، وعلم الكتاب والحكمة ، وحفظ الذكر ، والدعاء الى الخير ، والامر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعاء الى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة ،
والمجادلة بالتي هي أحسن ، ونحو ذلك مما (١) أوجبه الله على المؤمنين ، فهو واجب
على الكفاية منهم .

وأما ما يجب على أعيانهم : فهذا يتنوع بتنوع قدرهم ، وحاجتهم
ومعرفتهم ، وما أمر به أعيانهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو
عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك . ويجب على من سمع النصوص وفهمها

(١) في الاصل : ما .

من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها . ويجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك .

وينبغي أن يعرف / أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق ، فانما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول ، وترك النظر والاستدلال الموصل الى معرفته . فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا ، كما قال تعالى : (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) طه : ١٢٣-١٢٦ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ، / أن لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآيات . وكما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انها ستكون فتن » قالت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبرأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تنقض عجايبه ، ولا تشيع (١) منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » (٢) الى غير ذلك من الآيات والاحاديث ، الدالة على مثل هذا المعنى .

(١) في الاصل : يشيع . وفي « سنن الترمذي » بالياء والتاء .

(٢) هذا حديث جميل المعنى ، ولكن اسناده ضعيف ، فيه الحارث الاعور ، وهو لين ، بل اتهمه بعض الائمة بالكذب ، ولعل أصاه موقوف على علي رضي الله عنه ، فأخطأ الحارث فرفعه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً يدينون به ، إلا أن يكون موافقاً لدينه الذي شرعه على ألسنة رساله عليهم السلام .

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه العباد ، إلا ما وصفه به المرسلون بقوله سبحانه : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) الصافات : ١٨٠-١٨٢ . فنهى نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون . ثم سلم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من النقا والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفردده بالوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد .

ونهى على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم خير القرون ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، يوصي به الأول الآخر (١) ويقتدي فيه اللاحق بالسابق . وهم في ذلك كاه بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم يقتدون ، وعلى منهاجه سالكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف : ١٠٨ . فإن كان قوله : (ومن اتبعني) معطوفاً على الضمير في (أدعو) ، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة الى الله . وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل ، فهو صريح بأن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم ، وكلا المعنيين حق .

وقد باغ الرسول صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين ، وأوضح الحجة للمستبصرين ، وملك سبيلاً خير القرون .

ثم خالف من بعدهم خالف اتبعوا أهواءهم ، وافترقوا ، فأقام الله لهذه الامة من يحفظ عليها أصول دينها ، وكما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم » (٢) .

ومن قام بهذا الحق من علماء المسلمين : الامام أبو جعفر أحمد بن محمد بن

(١) في الاصل : للآخر .

(٢) «نفق عليه» .

سأله الأزد الطحاوي ، تغمد الله برحمته ، بعد المائتين ، فإن ولده سنة تسع
وثلاثين واثنتين ، ووفاته/سنة احدى وعشرين / وثلاثمائة (١) .

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ، ونقل عن الامام أبي حنيفة النعمان
ابن ثابت الكوفي ، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب ابن ابراهيم الحميري الانصاري ،
ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم - ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ،
ويدنون به رب العالمين .

قالواجب اتباع المرسلين ، واتباع ما أنزله الله عليهم . و / قد / ختمهم الله
بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فجعله آخر الانبياء ، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين
يديه من كتب السماء ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجعل دعوته عامة للجميع
الثقلين ، الجن والانس ، باقية الى يوم القيامة ، وانقطعت به حجة العباد على الله .
وقد بين الله به كل شيء ، وأكمل له ولادته الدين خيرا وأمرا ، وجعل طاعته طاعة
له ، وعصيته معصية له ، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر
بينهم ، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا الى غيره ، وأنهم اذا دعوا الى
الله والرسول ، وهو الدعاء الى كتاب الله وسنة رسوله - صدوا صدودا .

فكل من طاب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ، ويظن
أن ذلك حسن ، وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه - فانه نصيب
من ذلك ، بل ما جاء به الرسول كاف كامل ، يدخل فيه كل حق ، وانما وقع

(١) تجد ترجمته مفصلة في : « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٣ : ٢٨-٢٩ و « تاريخ
ابن كثير » ١١ : ١٧٤ . و « المنتظم » لابن الجوزي ٦ : ٢٥ . و « شذرات
الذهب » ٢ : ٢٨٨ . و « اللباب » لابن الاثير ٢ : ٨٢ . و « الجواهر المضية »
لابن أبي الوفاء ١ : ١٠٢-١٠٥ . و « الفوائد البهية » ٣١-٣٤ . و « لسان الميزان »
١ : ٢٧٤-٢٨٢ . و « تهذيب تاريخ ابن عساكر » ٢ : ٥٤-٥٥ . و « ابن خالكان »
١ : ٥٣-٥٥ طبعة مكتبة النهضة بمصر .

التشخيص من كثير من المنتسبين اليه . فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الأمور الكلائية والاعتقادية ، ولا في كثير من الاحوال العبادية ، ولا في كثير من الامارة السياسية ، أو نسبوا الى شريعة الرسول ، بظنهم وتقليدهم ، ما ليس منها ، وأخرجوا عنها كثيرا مما هو منها .

قوله : (نقول في توحيد الله مهتقين بتوفيق الله أن الله واحد لا

شريك له) .

ش : اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك الى الله عز وجل . قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٥٩ . وقال هود عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٦٥ . وقال صالح عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٧٣ . وقال شعيب عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٨٥ . وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) النحل : ٣٦ . وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) الانبياء : ٢٥ . وقال صلى الله عليه وسلم : « أهدت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله » (١) .

فالتوحيد أول الامر وآخره ، أعني : توحيد الالهية ، فان التوحيد يتضمن

ثلاث أنواع :

أحدها : الكلام في الصفات . والثاني : توحيد الربوبية ، ويبان أن الله وحده خالق كل شيء . والثالث : توحيد الالهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له .

أما الاول : وهو الكلام في الصفات فسيأتي الكلام عنه فيما بعد .

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس .

وأما الثاني : وهو توحيد الربوبية ، كالأقرار بأنه خالق كل شيء ، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية ، وهذا التوحيد لم يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القابض مفضضة على الاقرار به أعظم من كونها مفضضة على الاقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم : (قالت رسالهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) ابراهيم : ١٠ .

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع فرعون ، وقد كان مستيقنا به في الباطن ، كما قال له موسى : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر) الاسراء : ١٠٢ . وقال تعالى عنه وعن قومه : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) النمل : ١٤ .

الثالث (٢) وهو توحيد الالهية المتضمن توحيد الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فان المشركين من العرب كانوا يقولون بتوحيد الربوبية ، وأن خالق السموات والارض واحد ، كما أخبر تعالى عنهم بقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لقمان : ٢٥ . (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون) المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥ . ومثل هذا كثير في القرآن ، ولم يكونوا يعتقدون في الاصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم ، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الامم من الهند والترك والبربر وغيرهم ، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الانبياء والصالحين ، ويتخذونهم (١) شفعا ، ويتوسلون بهم الى الله ، وهذا كان أصل شرك العرب ، قال تعالى حكاية عن قوم نوح : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) - نوح : ٢٣ - وقد ثبت في « صحيح البخاري » ، وكتب التفسير ،

(١) في الأصل : ويتخذوهم .

(٢) ذكر المؤلف النوع الاول والثاني ، ولم نجد في النسخة المخطوطة او في النسخ المطبوعة ذكرا للثالث ، ويبدو ان محله هنا .

وقُصص الأنبياء وغيرها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيرها من السلف ، أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فأما ماتوا فكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الابد ، فعبدوهم وأن هذه الاصنام بعينها صارت الى قبائل العرب ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما ، قبياة قبياة (١) وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن أبي الهياج الاسدي ، قال : قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « أُرني أن لا أدع قبراً مشرفاً الا سويته ، ولا تماثلاً الا طمسته » (٢) وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٣) يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً ، وفي « الصحيحين » أنه ذكر في مرض موته كنيسة بأرض الحبشة ، وذكر من حسننها وتصاوير فيها ، فقال : « ان أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » (٤) - وفي « صحيح مسلم » عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل أن يموت بخمس : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد » فاني أنهاكم عن ذلك » (٥) .

فعلم ان التوحيد المطاوب هو توحيد الالهية ، الذي يتضمن توحيد الربوبية . قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها

(١) صحيح وهو موقوف في حكم المرفوع .

(٢) صحيح أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما وله طرق ذكرتها في « ارواء الغليل » .

(٣) صحيح وهو من حديث عائشة وأبي هريرة ، وله شواهد كثيرة .

(٤) صحيح وهو من حديث عائشة ، خرجته في المصدر السابق .

(٥) صحيح ، ورواه أبو عوانة في « صحيحة » أيضا ، وغيره .

لاتبدل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون (الروم : ٣) (منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . واذا مس الناس ضرر - دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا اذقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعامون . ام انزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون واذا اذقنا الناس رحمة فرحوا بها وان تصيبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذا هم يفتنون) (الروم : ٣١ - ٣٦ وقال تعالى : (في الله شك فاطر السموات) ابراهيم : ١٠ وقال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه (١) » ولا يقال : ان محناه يولد ساذجاً لا يعرف توحيداً ولا شركاً ، كما قال بعضهم - لما تلونا ، ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل « خاتمت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين » (٢) الحديث . وفي الحديث المتقدم ما يدل على ذلك ، حيث قال : « يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » ولم يقل ويسلمانه وفي رواية « يولد على الفطرة » وفي اخرى : « على هذه الفطرة » .

والقرآن مماوع من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الامثال له . ومن ذلك انه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين انه لا خالق الا الله ، وأن ذلك مستلزم ان لا يعبد الا الله ، فيجعل الاول دليلاً على الثاني ، اذ كانوا يسلمون / في / الاول (٣) وينازعون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه أنهم اذا كنتم تعامون انه لا خالق الا الله / وحده / ، وانه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له ، في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجمعون معه آلهة اخرى ؟

كقوله تعالى : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، الله خير أما

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم واحمد .

(٣) في الاصل : الاول .

يشركون أم من خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبئتسنا به
حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم ان تنبتوا شجرها ألمه مع الله بل هم قوم يعدلون)
النمل : ٥٩ الآيات . يقول الله تعالى في آخر كل آية (ألمه مع الله) أي ألمه مع الله
فعل هذا ؟ وهذا استنفهام انكار ، يتضمن نفي ذلك ، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل
ذلك غير الله ، / فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى انه استنفهام بل مع الله انه ، كما
ظنه بعضهم ، لان هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعون مع الله
آلهة اخرى ، كما قال تعالى : (انكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى قل لا اشهاد)
الانعام : ١٩ . وكانوا يقولون : (أجعل الآلهة لها واحد أن هذا شيء عجب)
ص : ٥ . لكنهم ما كانوا يقولون : ان معه الهأ (جعل الارض قراراً ، وجعل
خلالها انهاراً ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً) النمل : ٦١ . بل
هم مقررون بأن الله وحده فعل هذا ، وهكذا سائر الآيات . وكذلك قوله تعالى :
(يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خالقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) البقرة :
٢١ . وكذلك قوله في سورة الانعام : (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم
وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتىكم به) الانعام ٤٦ . وامثال ذلك .

ولما كان الشرك في الربوبية معاوم الامتناع عنه الناس كاهم ، باعتبار اثبات
خالقين متماثلين في الصفات والافعال ، وانما ذهب بعض المشركين الى ان شئ خالقاً
خلق بعض العالم ، كما يقولون ، الثبوتية في الظلمة ، وكما يقولون القدرية في افعال الحيوان
وكما يقولون الفلاسفة الدهرية في حركة الافلاك او حركات النفوس ، او الاجسام
الطبيعية ، فان هؤلاء يشبهون اموراً محدثة بدون احداث الله اياها ، فهم يشركون
في بعض الربوبية ، وكثير من شركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من نفع
او ضرر ، بدون ان يخاف الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس ، بين القرآن بطلانه ، كما
في قوله تعالى : (اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خاف

ولعلنا بعضهم على بعض) المؤمنون : ٩٢ . فتأمل هذا البرهان الباهر ، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر . فان الاله الحق لا بد ان يكون خالقاً فاعلاً ، يوصل الى عابده (١) النفع ويدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه اله آخر يشركه في ملكه ، امكن له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى تلك الشراكة ، بل ان قدر على قهر ذلك الشريك وتفرد به بالملك والالوية دونه فعل ، وان لم يقدر على ذلك انفرد / بخاقه وذهب بذلك الخلق ، كما يتفرد ماوك الدنيا بعضهم عن بعض بماك ، اذا لم يقدر المنفرد / منهم على قهر الآخر والعلو عليه .

وتوحيد الالهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس . فمن لا يقدر على ان يخلق يكون عاجزاً ، والعاجز لا يصاح ان يكون الهاً . قال تعالى : (ايشركون الا يخلق شيئاً وهم يخلقون) الاعراف : ١٩١ . وقال تعالى : (افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون) النحل : ١٧ . وقال تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً) الاسراء : ٤٢ .

انواع التوحيد الذي دعت اليه الرسل

ثم التوحيد الذي دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبـه نوعان : توحيد في الاثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالاول : هو اثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وافعاله واسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك كله ، كما اخبر به عن نفسه ، وكما اخبر رسوله صلى الله عليه وسلم وقد افصح القرآن عن هذا / النوع / كل الافصاح ، كما في اول (الحديد) و (طه) وآخر (الحشر) واول (آلم تنزيل السجدة) واول (آل عمران) وسورة (الاخلاص) بكاملها ، وغير ذلك .

والثاني : وهو توحيد الطاب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة (قل يا ايها الكافرون) ، و (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) آل عمران ٦٤ ، واول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها ، واول سورة (يونس) واوسطها

(١) في الاصل : عباده .

وآخرها ، واول سورة (الاعراف) وآخرها ، وجماعة سورة (الانعام) .
وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل كل سورة في القرآن .
فالتقرآن اما خبر عن الله واسمائه وصفاته ، وهو التوحيد الهادي الخبري . واما دعوة
الى عبادته وحده لا شريك له ، ونحاي ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الارادي
الطائي . واما ادر ونهي والزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد وكمالاته . واما
خبر عن اكراهه لاهل توحيد ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرههم به في الآخرة ،
فهو جزاء توحيد . واما خبر عن اهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا / (١) من
النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .
فالتقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك واهله وجزائهم
ف (الحمد لله رب العالمين) توحيد ، (الرحمن الرحيم) توحيد ، (مالك يوم الدين)
توحيد ، (اياك نعبد واياك نستعين) توحيد ، (اهدنا الصراط المستقيم) توحيد
متضمن لسؤال الهداية الى طريق اهل التوحيد ، (الذين انعمت عليهم) ، (غير
المغضوب عليهم ولا الضالين) الذين فارقوا التوحيد .

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به الملائكة وانبياءه
ورسله . قال تعالى : (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط
لا اله الا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله الاسلام) آل عمران : ١٨ و ١٩ .
فتضمنت هذه الآية الكريمة اثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف
الضلال ، فتضمنت اجل شهادة واعظمتها واعظمتها واصدقها ، من اجل شاهد ، بأجل
شهود به .

قوله : (ولا شيء مثله) .

ش : ان الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .
ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح ،

(١) في الاصل : (العقبى) والصواب من المطبوعة .

وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل ، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته : (ليس كمثل شيء) الشورى : ١١ ، رد على المماثلة المشبهة (وهو السميع البصير) ، رد على النفاة المعطلة ، فن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق ، فهو المشبه المبطل المذموم ، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق ، فهو نظير النصارى في كفرهم ، ويراد به أي لفظ التشبيه أنه لا يثبت لله شيء من الصفات ، فلا يقال : /له/ قدره ، ولا علم ، ولا حياة ، لان العبد موصوف بهذه الصفات ! ولازم هذا القول أنه لا يقال له : حي ، عليم ، قدير ، لان العبد يسمى بهذه الاسماء ، وكذلك كلامه وسمعه وبصره (١) /وارادته/ وغير ذلك . وهذا غير صحيح .

فان الله سمي نفسه بأسماء ، وسمى بعض عباده بها ، وكذلك سمي صفاته بأسماء ، وسمى ببعضها صفات خالقه ، وليس المسى (بتشديد الميم وفتحها) كالمسي فسمى نفسه : حيا ، عليما ، قديرا ، رؤوفا ، رحيا ، عزيزا ، حكيما ، سميعا ، بصيرا ، ماكما ، مؤمنا ، جبارا ، متكبرا . وقد سمي بعض عباده بهذه الاسماء ، فقال : (يخرج الحي من الميت) الانعام : ٩٥ والروم : ١٩ . (وبشروه بغلام عليم) الذاريات : ٢٨ . (فبشرناه بغلام عليم) الذاريات : ٢٨ . (فبشرناه بغلام حليم) الصافات : ١٠١ . (بالمؤمنين رؤوف رحيم) التوبة : ١٢٨ . (فجعلناه سميعا بصيرا) . الدهر : ٢ . (قالت امرأة العزيز) يوسف : ٥١ . (وكان وراءهم ملك) الكهف : ٧٩ . (أفمن كان مؤمنا) السجدة : ١٨ . (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) المؤمن : ٣٥ . وبعلم أنه لا يماثل الحي الحي ، ولا العليم العليم ، ولا العزيز العزيز ، وكذلك سائر الاسماء ، وقال تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه) البقرة : ٢٥٥ .

(١) في الاصل : وبصره ورؤيته وهما واحد ، ولعل المقصود بصره وارادته كما هو في احدى النسخ المطبوعة .

(أنزله بعلمه) النساء : ١٦٦ . (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) فاطر : ١١ . (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الذاريات : ٥٨ . (أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) حم السجدة : ١٥ . وعن جابر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم (١) ، وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كنت تعلم أن هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ، ويسره (٢) لي ، ثم بارك لي فيه ، وان كنت تعلم أن هذا الامر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني ، وأصرفني عنه ، وأقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به ، قال : ويسمي حاجته » (٣) ، رواه البخاري . وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يدعو بهذا الدعاء : « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم اني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ، وأسألك القصد في الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضى بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر الى وجهك الكريم ، والشوق الى لقاءك

(١) في المطبوعة : فانك تعلم ولا أعلم : وتقدر ولا أقدر ، وما أثبتناه هو الموافق لرواية البخاري ،

(٢) في الاصل : ويسر : بدل : ويسره لي .

(٣) صحيح ، وحسبك ان البخاري أخرجه في « صحيحه » ، وقول احمد في احد رواته : « روى حديثاً منكراً » يعني هذا ، لا يضره بعد قول احمد فيه « لا بأس به » وإنما يضر ذلك فيما اذا خالف من هو اوثق منه ، وليس شيء من ذلك هنا .

في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضاة ، اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين » (١) فقد سمى الله ورسوله صفات الله علماً وقدره وقوة . وقال تعالى : (ثم جعل من بعد ضعف قوة) الروم ٥٤ . (وانه لدو علم لما علمناه) يوسف : ٦٨ . ومعوم انه ليس العلم كالعلم ، ولا القوة كالقوة ، ونظائر هذا كثيرة . وهذا لازم لجميع العقلاء . فان من نفي صفة من صفاته التي وصف الله بها نفسه ، كالرضى والغضب ، والحب والبغض ، ونحو ذلك ، ورغم ان ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم ! قبل له : فأنت تثبت له الارادة والكلام والسمع والبصر ، مع ان ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين ، فقل فيما نفيت واثبته الله ورسوله مثل قولك فيما اثبته ، اذ لا فرق بينهما .

قوله : (ولا شيء يعجزه) .

ش : لكمال قدرته . قال تعالى : (ان الله على كل شيء قدير) البقرة : ٢٠ (وكان الله على كل شيء مقتدرا) الكهف : ٤٥ . (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض انه كان عليا قديرا) فاطر : ٤٤ (وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم) البقرة : ٢٥٥ . « لا يؤده » اي : لا يكرثه (٢) ولا يشقاه ولا يعجزه . فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة انما هو لثبوت كمال ضده ، كقوله تعالى (ولا يظلم ربك أحدا) الكهف : ٤٩ ، اكمال عدله . (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) سبأ : ٣ ، لكمال علمه . وقوله تعالى : (وما مسنا من لغوب) ق : ٣٨ ، لكمال قدرته . (لا تأخذه سنة ولا نوم) البقرة : ٢٥٥ اكمال حياته وقيوميته . (لا تدركه الابصار) الانعام : ١٠٣ ، لكمال جلاله وعظمته

(١) حديث صحيح ، واخرجه الحاكم ايضاً وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) في « القاء وس » : كثره الغم يكرثه ويكرثه بكسر الراء وضمها : اشتد عليه ، كأكرثه .

وكبريائه ، والا فالنبي الصرف (بكسر الصاد) لا مدح فيه ،
ولهذا يأتي الاثبات للصفات في كتاب الله مفصلاً ، والنبي مجملاً .
قوله : (ولا إله غيره) .

ش : هذه كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل كلهم ، كما تقدم ذكره .
واثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النبي والاثبات المقتضي للحصر ، فان الاثبات
المجرد قد يتطرق اليه الاحتمال . ولهذا - والله اعلم - لما قال تعالى : (والمحكمه
واحد) البقرة : ١٦٣ ، قال بعده : (لا اله الا هو الرحمن الرحيم) البقرة : ١٦٣ .
فانه قد يخطر ببال احد خاطر شيطاني : هب ان الهنا واحد ، فاغيرنا اله غيره ، فقال
تعالى : (لا اله الا هو / الرحمن الرحيم /) .
قوله : (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) .

ش : قال الله تعالى : (هو الاول والآخر) الحديد : ٣ . وقال صلى الله
عليه وسلم : « اللهم انت الاول فليس قبلك شيء ، وانت الآخر فليس بعدك
شيء » (١) . فقول الشيخ قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء هو معنى اسم الاول
والآخر . والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر ، فان الموجودات لا بد ان
تنتهي الى واجب الوجود لذاته ، قطعاً للتسلسل . فإنا نشاهد حدوث الحيوان
والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث
وغيرها ليست ممتنعة ، فان المستنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فان واجب
الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فمدها ينفي وجودها
ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه ، كما
قال تعالى : (ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون) الطور : ٣٥ . يقول سبحانه
احدثوا من غير محدث ام هم احدثوا انفسهم ؟ معلوم ان الشيء المحدث لا يوجد
نفسه ، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون وجوداً بنفسه ، بل
(١) أخرجه مسلم (٨ / ٧٨ - ٧٩) في حديث اوله : « كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يأمرنا اذا اخذنا مضجعنا ان نقول » فذكره .

ان حصل ما يوجد ولا كان معدوماً ، وكل ما يمكن وجوده بدلاً عن عدوه وعدوه بدلاً عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له .

قوله : (لا يفنى ولا يبيد) .

ش : اقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل : (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) الرحمن : ٢٦ - ٢٧ . والفناء والبيد بمقاربان في المعنى ، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد ، وهو ايضاً يقرر ويؤكد لقوله : دائم بلا انتهاء .

قوله : (ولا يكون الا ما يريد) :

ش : هذا رد لقول القدرية والمعتزلة ، فانهم زعموا ان الله اراد الإيمان من الناس كإهم والكافر أراد الكفر . وقولهم فاسد مردود ، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح ، وهي مسألة القدر المشهورة ، وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى .

وسموا قدرية لانكارهم القدر ، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدرية ايضاً . والتسمية على الطائفة الاولى اغاب .

اما اهل السنة / فيقولون / : ان الله وان كان يريد المعاصي قدراً - فهو لا يجبرها ولا يرضاه ولا يأمر بها ، بل يبخسها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها . وهذا قول الساف قاطبة ، فيقولون : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولهذا اتفق الفقهاء على ان الخالف لو قال : والله لا فعلان كذا ان شاء الله - لم يحنث - اذا لم يفعلوا وان كان واجباً او مستحباً . ولو قال : ان أحب الله - حنث اذا كان واجباً او مستحباً .

والمحققون من اهل السنة يقولون : الارادة في كتاب الله نوعان : ارادة قدرية كونية خلقية ، و ارادة دينية امرية شرعية ، فالارادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضي ، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات .

وهذا كقوله تعالى : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) الانعام : ١٢٥ . وقوله تعالى عن نوح عليه السلام : (ولا ينفخكم نضحى ان اردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) هود : ٣٤ . وقوله تعالى : (ولكن الله يفعل ما يريد) البقرة : ٢٥٣ .

واما الارادة الدينية الشرعية الامرية ، فكقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) البقرة ١٨٥ . وقوله تعالى : (يريد الله ليمين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) النساء : ٢٦ . (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) النساء : ٢٧ ، ٢٨ . وقوله تعالى : (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) المائدة : ٦ . وقوله تعالى (انما يريد الله لينهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) الاحزاب : ٣٣ فهذه الارادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح : هذا يفعل ما لا يريد الله ، اي : لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به .

واما الارادة الكونية فهي الارادة المذكورة في قول المسامحين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله : (لا تبغ الا وهام ، ولا تدركه الافهام) .

ش : قال الله تعالى : (ولا يحيطون به علما) طه : ١١٠ قال في «الصحيح» توهمت الشيء : ظننته ، وفهمت الشيء : علمته . فراد الشيخ رحمه الله : أنه لا ينتهي اليه وهم ، ولا يحيط به علم . قيل : الوهم ما يرجى كونه ، أي : يظن انه على صفة كذا ، والفهم : هو ما يحصله العقل ويحيط به . والله تعالى لا يعلم كيف هو الا هو سبحانه وتعالى ، وانما نعرفه سبحانه بصفاته ، وهو انه احد ، صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد ، (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة

ولا نوم له ، في السموات وما في الارض (البقرة : ٢٥٥ .) هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق الباري المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ، في السموات والارض وهو العزيز الحكيم (الحشر : ٢٣ - ٢٤ .

قوله : (ولا يشبهه الانام) .

ش : هذا رد لقول المشبهة ، الذين يشبهون الخالق بالمخاوق ، سبحانه وتعالى ، قال عز وجل : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى : ١١ . وليس المراد نفي الصفات كما يقول اهل البدع ، فن كلام ابي حنيفة رحمه الله في « الفقه الاكبر » : لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه . ثم قال بعد ذلك : وصفاته كلها خلاف صفات المخاوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا . انتهى . وقال نعيم بن حماد (١) : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وايس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهه . وقال اسحاق بن راهويه (٢) : من وصف الله فشبه صفاته بصفات احد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم .

ونفي مشابهة شيء من مخلوقاته له ، مستازم لنفي مشابهته لشيء من مخلوقاته . فإلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله ولا يشبهه الانام . والانام :

(١) هو نعيم بن حماد الخزاعي المروزي ابو عبد الله اول من جمع المسند في الحديث كان من اعلم الناس بالفرائض ، اقام مدة في العراق والحجاز يطلب الحديث ثم سكن مصر . قال الحافظ في « التقریب » : صدوق بخطيء كثيراً . مات سنة ثمان وعشرين ومائتين .

(٢) هو اسحاق بن ابراهيم التميمي المروزي ابو يعقوب عالم خراسان في عصره قال فيه الخطيب البغدادي : اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد . روى عنه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

الناس ، وقيل : كل ذي روح ، وقيل : الثقلان . وظاهر قوله تعالى : (والارض وضعها للانام) الرحمن : ١٠ - يشهد للأول أكثر من الباقي . والله أعلم .

قوله : (حي لا يموت قيوم لا ينام) .

ش : قال تعالى : (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) البقرة : ٢٥٥ ، فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته . وقال تعالى : (ألم . الله لا اله الا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق) آل عمران : ١-٣ . وقال تعالى : (وعنت الوجوه للحي القيوم) طه : ١١١ . وقال تعالى : (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده) الفرقان : ٥٨ وقال تعالى : (هو الحي لا اله الا هو) غافر : ٦٥ وقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام » (١) ، الحديث .

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه ، أشار الى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه ، بما يتصف به تعالى دون خلقه : أنه حي لا يموت ، لان صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى ، دون خلقه ، فانهم يموتون . ومنه : أنه قيوم لا ينام ، اذ هو مختص بعدم النوم والسنة ، دون خلقه ، فانهم ينامون ، وفي ذلك إشارة الى /أن/ نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصفات ، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، لكمال ذاته . فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة ، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا وان الدار الآخرة هي الحيوان ، فالحياة الدنيا كالمنام . والحياة الآخرة كاليقظة ، ولا يقال : فهذه الحياة الآخرة كامنة . وهي للمخاوق : لأننا نقول : الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها ، هو الذي وهب المخاوق تلك الحياة الدائمة ، فهي دائمة بادامة الله لها ، لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها ، بخلاف

(١) رواه مسلم وابن ماجه وأبو سعيد الدرامي في « الرد على الجهمية » (ص ٣٠ طبع أوروبا ، وقد قام بطبعه حديثا المكتب الاسلامي) .

حياة الرب تعالى . وكذلك سائر صفاته ، فصفات الخالق كما يليق به ، وصفات
المخاوق كما يليق به .

واعلم أن هذين الاسمين . أعني : الحي القيوم المذكوران في القرآن معا في
ثلاث سور كما تقدم ، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى ، حتى قيل : إنها الاسم الأعظم ،
فإنهما يتضمنان اثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدق ، ويدل القيوم على معنى
الازلية والابدية ما لا يدل عليه لفظ القديم . ويدل أيضا على كونه موجودا بنفسه ،
وهو معنى كونه واجب الوجود . والقيوم أبلغ من « القيام » لان الواو أقوى من
الالف . ويفيد قيامه بنفسه ، باتفاق المفسرين وأهل اللغة ، وهو معلوم بالضرورة .
وهل تفيد اقامته لغيره وقيامه عليه ؟ فيه قولان ، أصحهما : أنه يفيد ذلك . وهو
يفيد دوام قيامه / وكل (١) قيا : / ، لما فيه من المبالغة ، فهو سبحانه لا يزول / و/
لا يأفل ، فان الآفل قد زال قطعا ، أي : لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم ،
بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال ، موصوفا بصفات الكمال . واقتراحه
بالحي يستأزم سائر صفات الكمال ، ويدل على دواها وبقائها ، وانتفاء النقص
والعدم عنها أزلا وأبدا . ولهذا كان قوله : (الله لا اله الا هو الحي القيوم) البقرة :
٢٥٥ ، أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه
وسلم (٢) . فعلى هذين الاسمين مدار الاسماء الحسنى كلها ، واليهما ترجع معانيها .
فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف
الحياة ، فاذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها ، استأزم اثباتها اثبات كل كمال
يضاد نفيه كمال الحياة . وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته ، فانه
القائم (٣) بنفسه . فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه . المقيم لغيره ، فلا قيام

(١) كذا في النسخ المطبوعة ولعل الاجود : وكمال قيامه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) في المطبوعة القويم ، وهو خطأ .

لغيره إلا باقامته . فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام .

قوله : (خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤنة) .

ش : قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الذاريات : ٥٨-٥٦ . (يا أيها الناس أأنتم الفقراء الى الله والله هو الغني / الحميد /) فاطر : ١٥ . (/ والله الغني / وأنتم الفقراء) محمد : ٣٨ . (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم) الانعام : ١٤ . وقال صلى الله عليه وسلم ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، / يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً / ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته - ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص (١) المحيط اذا أدخل البحر » الحديث . رواه مسلم (٢) . وقوله بلا مؤنة : بلا ثقل ولا كلفة .

قوله : (مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة) .

ش : الموت صفة وجودية ، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم . قال تعالى : (الذي خاق الموت والحياة ليباؤكم أيكم أحسن عملا) الملك : ٢ . والعدم لا بوصف بكونه مخلوقا . وفي الحديث : أنه « يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أماح ، فيذبح بين الجنة والنار » (٣) . وهو وان كان عرضا فالله تعالى يقبله عينا ،

(١) نقص يأتي لازما مثل نقص المال ، ومتعديا كما هو هنا ، والمفعول به محذوف ، وتقديره : ينقص المحيط ماء البحر .

(٢) مسلم وأحمد .

(٣) متفق عليه .

كما ورد في العمل الصالح : « أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن ، والعمل القبيح على أقبح صورة » (١) . وورد في القرآن : « أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون » (٢) ، الحديث . أي قراءة القارىء . وورد في الاعمال : « أنها توضع في الميزان » (٣) ، والاعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض . وورد في سورة البقرة وآل عمران : أنها يوم القيامة « يظللان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان » (٤) أو فرقان (٥) من طير صواف (٦) . وفي الصحيح : « أن أعمال العباد تصعد الى السماء » (٧) وسيأتي الكلام على البعث والنشور . ان شاء الله تعالى .

(١) يشير الى حديث البراء في عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين ، وهو حديث طويل سيأتي في آخر الكتاب بتمامه في بحث عذاب القبر .

(٢) رواه الدرামী (٢/٤٥٠-٤٥١) وابن ماجه (٣٧٨١) وأحمد (٣٤٨ و٣٥٢) من حديث بريدة بن الحصيب مرفوعا بلفظ : « يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول لصاحبه : أنا الذي أسهرت ليلك وأظلمات هواجرك » . وقال البوصيري في « الزوائد » : « اسناده صحيح » . قلت : لا ، فان فيه بشير بن المهاجر ، وهو صدوق لين الحديث كما قال الحافظ في « التقريب » ، فثناه . يحتمل حديثه التحسين ، أما التصحيح فهو بعيد .

(٣) فيه أحاديث كثيرة ، سيذكرها المؤلف في آخر الكتاب .

(٤) الغيايتان : أدون من الغمامتان في الكثافة ، وأقرب الى رأس صاحبهما .

(٥) الفرقان بكسر الفاء : طائفتان .

(٦) أي : باسقاط أجنحتها متصلا بعضها ببعض زواه مسلم والحاكم .

(٧) روى البخاري (٢٠٥/١ - طبع أوروبا) عن رفاعه بن رافع الزرقي قال : كنا نصلي يوما وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما

قوله : (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزلياً ، كذلك لا يزال عليها أبدياً . وليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا باحداثه البرية استفاد اسم الباري) .

ش : أي : أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متمصفاً بصفات الكمال : صفات الذات وصفات الفعل . ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متمصفاً بها ، لأن صفاته سبحانه صفات كمال ، وفقدتها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متمصفاً بضده . ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها ، كالخلق والتصوير ، والامانة والاحياء ، والتبضع والبسط والطبي ، والاستواء والاتيان والمجيء والنزول ، والغضب والرضى ، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا ، ولكن أصل معناه معلوم لنا ، كما قال الامام مالك رضي الله عنه ، لما سئل عن قوله تعالى (ثم استوى على العرش) الاعراف : ٥٤ وغيرها : كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول (١) . وإن كانت هذه الاحوال تحدث في وقت

=انصرف قال : من المتكلم ؟ قال : أنا ، قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول . ورواه الترمذي (٢/٢٥٤-٢٥٥) والنسائي (١/١٤٧) من طريق أخرى عن رفاة به نحوه باللفظ : « لقد ابتدروا بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعد بها » وقال الترمذي حديث حسن . قلت : واسناده جيد . وله شاهد من حديث عبد الله ابن أبي أوفى نحوه وفيه : « والله رأيت كلامك يصعد في السماء حتى فتح باب فدخل فيه » . أخرجه أحمد (٤/٣٥٥ و٣٥٦) وابنه في زوائده ، ورجاله ثقات غير عبد الله بن سعيد ، ذكره ابن حبان في « الثقات » (١/١٠٤-١٠٥) .

(١) اقتصر المؤلف من جواب الامام مالك على هذا ، وتتمته : والايان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

دون وقت ، كما في حديث الشفاعة : « ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قباه مثاه ، ولن يغضب بعده مثاه » (١) . لان هذا الخلوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ، ولا يطاق /عليه/ أنه حدث بعد أن لم يكن ، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكافاً بالامس لا يقال : انه حدث له الكلام ، ولو كان غير متكلم ، لانه لآفة كالصغير (٢) والخرس ، ثم تكلم يقال - : حدث له الكلام ، فالساكت لغير آفة يسمى متكافاً بالقوة ، بمعنى أنه يتكلم اذا شاء ، وفي حال تكلمه يسمى متكافاً بالفعل ، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة .

قوله : (له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق .)

ش : يعني : ان الله تعالى موصوف بأنه « الرب » قبل ان يوجد مربوب ، وموصوف بأنه « خالق » قبل ان يوجد مخلوق . قال بعض المشايخ الشارحين : وانما قال : « له معنى الربوبية ومعنى الخالق » دون الخالقية ، لأن الخالق هو المخرج للشيء من العدم الى الوجود لا غير ، والرب يقتضي معاني كثيرة ، وهي : الملك والحفظ والتدبير والتربية وهي تبليغ الشيء كما له بالتدريج ، فلا جرم أنى بلفظ يشمل هذه المعاني ، وهي الربوبية . انتهى . وفيه نظر ، لأن الخلق يكون بمعنى التقدير ايضاً .

قوله : (وكما أنه محيي الموتى بعد ما احيا استحق هذا الاسم قبل احيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم) .

ش : يعني : انه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل احيائهم ، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خالقهم .

(١) هو في « الصحيحين » وغيرهما وسيأتي بهامه .

(٢) في المطبوعة كالصغير .

قوله : (ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل امر عليه

يسير ، لا يحتاج الى شيء ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) .

ش : ذلك اشارة الى ثبوت صفاته في الازل قبل خلقه . والكلام على كل وشمولها وشمول كل / في كل / مقام بحسب ما يحتف به من القرائن - يأتي في مسألة الكلام ان شاء الله تعالى .

فالله على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مندرج في هذا . وأما المحال لذاته ، مثل كون الشيء الواحد وجوداً معدوماً في حال واحدة ، فهذا لاحقيقة له ، ولا يتصور وجوده ، ولا يسمى شيئاً ، باتفاق العقلاء . ومن هذا الباب : خلق مثل نفسه ، واعداد نفسه وأمثال ذلك من المحال .

وهذا الاصل هو الايمان بربوبيته العامة التامة ، فانه لا يؤمن بأنه رب كل شيء الا من آمن أنه قادر على تلك الاشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها الا من آمن بأنه على كل شيء قدير . وانما تنازعرا في المعدوم الممكن : هل هو شيء أم لا؟ والتحقيق : ان المعدوم ليس بشيء في الخارج ، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ، ويكتبه ، وقد يذكره ويخبر به ، كقوله تعالى : (ان زلزلة الساعة شيء عظيم) الحج : ١ ، فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب ، لا في الخارج ، كما قال تعالى : (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) يس : ٨٢ ، قال تعالى : (وقد خلقناك من قبل ولم تك شيئاً) مريم : ٩ أي : لم تكن شيئاً في الخارج وان كان شيئاً في عامه تعالى . وقال تعالى : (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) الدهر : ١ .

وقوله : « ليس كمثله شيء » ، رد على المشبهة . وقوله تعالى : (وهو السميع البصير) الشورى : ١١ ، رد على المعطاة ، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبيه . فالمخاوق وان كان يوصف بأنه سميع بصير - فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ، ولا يلزم من اثبات الصفة تشبيهه ، اذ

صفات المخلوق كما يليق به ، وصفات الخالق كما يليق به .
ولا تنف عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه وما
يجب له وما يمتنع عليه ، وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم وأقدرهم على البيان : فانك
ان نفيت شيئاً من ذلك كنت كافراً بما أنزل / على / محمد صلى الله عليه وسلم ، واذا
وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه ، فليس كمثله شيء . فاذا شبهته بخلقه
كنت كافراً به . قال نعيم ابن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله / بخلقه /
فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به
نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها . وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله
« ومن لم يتَوَقَّ النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه » .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الاعلى ، فقال تعالى : (للذين لا يؤمنون
بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى) النحل : ٦٠ ، وقال تعالى : (وله المثل
الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) الروم : ٢٧ . فجعل سبحانه
مثل السوء - المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال - لاعدائه المشركين وأوثانهم ،
وأخبر أن المثل الاعلى - المتضمن لاثبات الكمال كله - لله وحده . فمن سلب صفة
الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل
الاعلى ، / و / هو الكمال المطلق ، المتضمن للامور الوجودية ، والمعاني الثبوتية ،
التي كلما كانت اكثر في الموصوف واكمل - كان بها اكمل واعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب / سبحانه / وتعالى اكثر واكمل ، كان له المثل الاعلى ،
وكان احق به من كل ما سواه . بل يستحيل ان يشترك في المثل الاعلى المطلق اثنان ،
لانهما ان تكافأ من كل وجه ، لم يكن احدهما اعلى من الآخر ، وان لم يتكافأ ،
فالوصوف به احدهما وحده ، فيستحيل ان يكون لمن له المثل الاعلى مثل او نظير ،
واختلفت عبارات المفسرين في المثل الاعلى . ووفق بين اقوالهم من وفقه

الله وهده ، فقال : المثل الاعلى يتضمن : الصفة العليا ، وعلم العالمين بها ، ووجودها
العلمي ، والخبر عنها وذكرها ، وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة
بقلوب عابديه وذاكريه .

فها هنا امور أربعة : الاول (١) : ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى ، سواء علمها العباد او لا ، وهذا معنى قول من فسرهما بالصفة .

الثاني : وجودها في العلم والشعور ، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف : انه ما في قلوب عابديه وذاكره ، من معرفته وذكره ، ومحبته وجلاله ، وتعظيمه ، وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه والانابة اليه . وهذا الذي في قلوبهم من المثل الاعلى لا يشرحه فيه غيره اصلا ، بل يختص به في قلوبهم ، كما اختص به في ذاته . وهذا معنى قول من قال من المفسرين : ان معناه : اهل السموات يعظمونه ويحبونه ويعبدونه ، واهل الارض كذلك ، وان اشرك / به من اشرك / ، وعصاه من عصاه ، وجحد صفاته من جحدها ، فأهل الارض معظّمون له ، مجلّون ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزته وجبروته . قال تعالى : (وله من في السموات والأرض كل له قانتون) الروم : ٢٦ .

الثالث : ذكر صفاته والخبر عنها وتزيينها من العيوب والنقائص والتشثيل .
الرابع : محبة الموصوف بها وتوحيده ، والاخلاص له ، والتوكل عليه ، والانابة اليه . وكلما كان الايمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والاخلاص / اقوى / .

قوله : (خالق الخلق بعلمه) :

ش : خالق : أي : اوجد وانشأ وابدع . ويأتي خلق ايضاً بمعنى : قدر : والخلق : مصدر ، وهو هنا بمعنى المخلوق . وقوله : « بعلمه » في محل نصب على الحال ، اي : خلقهم عالماً بهم ، قال تعالى : (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) الملك : ١٤ . وقال تعالى : (وعندنا مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) الانعام : ٥٩ .

(١) هذه الزيادة غير موجودة في الاصل ، ولا المطبوعة ، ونظم الكلام يقتضيها .

قوله : (وقدر لهم أقداراً) .

ش : قال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً)

وقال تعالى : (انا كل شيء خلقناه بقدر) القمر : ٤٩ . وقال تعالى :
(وكان امر الله قدرأ مقدوراً) الاحزاب : ٣٨ . وقال تعالى : (الذي خلق فسوى
والذي قدر فهدى) الاعلى : ٢ - ٣ . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله
عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق
السموات والارض بخمسين الف سنة ، وكان عرشه على الماء » (١) .

قوله : (وضرب لهم آجالاً) .

ش : يعني : ان الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق ، بحيث اذا جاء أجلهم
لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قال تعالى : (اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون) وقال تعالى : (وما كان لنفس ان تموت الا بإذن الله كتاباً مؤجلاً)
آل عمران : ١٤٥ . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : « قالت ام حبيبة
زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها : اللهم امتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي
سفيان ، وبأخي معاوية ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد سألت الله لآجال
مضروبة ، وأيام معدودة ، وارزاق مقسومة ، لن يجعل شيئاً قبل اجله ، ولن يؤخر
شيئاً عن اجله ، ولو كنت سألت الله ان يعيدك من عذاب في النار وعذاب في القبر
كان خيراً وأفضل » (٢) . فالمقتول ميت بأجله ، فعلم الله تعالى وقدر وقضى ان هذا
يموت بسبب المرض ، وهذا بسبب القتل ، وهذا بسبب الهدم ، وهذا بسبب الحرق
وهذا بالغرق ، الى غير ذلك من الأسباب . والله سبحانه خلق الموت والحياة ،
وخلق سبب الموت والحياة . ووجوب القصاص والضمان على القاتل ، لإرتكابه
المنهي عنه ومباشرة السبب المحظور . وعلى هذا يخرج قوله صلى الله عليه وسلم :

(١) صحيح .

(٢) صحيح ، وهو عند مسلم في « القدر » واحمد في المسند (١ / ٣٩٠ ، ٤١٣ ،
٤٣٣ ، ٤٤٥ ، ٤٦٦) .

لأن ضلالة الرحم تزيد في العمر» (١) أي : سبب طول العمر . وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب الى هذه الغاية ، ولولا ذلك السبب لم يصل الى هذه الغاية ، ولكن قدر هذا السبب وقضاه ، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش الى كذا ، كما قلنا في القتل وعدمه .

قوله : (ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، ولم يهمل ما هم عاملون قبل أن يخلقهم) .

ش : فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون / و / ما لم يكن أن لو كان كيف يكون ، كما قال تعالى : (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه) الانعام : ٢٨ . وأن كان يعلم أنهم لا يردون ، ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا ، كما قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون) الانفال : ٢٣ .
قوله : (وأمرهم بطاعته ، ونهاهم عن معصيته) .

ش : ذكر الشيخ الأمر والنهي ، بعد ذكره الخاق والقدر ، إشارة الى أن الله تعالى خاق الخاق لعبادته ، كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) الذاريات : ٥٦ وقال تعالى : (الذي خاق الموت والحياة ليباؤكم ايكم احسن عملاً) الملك : ٢ .

قوله : (وكل شيء يجري بتقديره وهشيئته ، وهشيئته تنفذ ، لامشيئة للعباد ، الا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن) .

ش : قال تعالى : (وما تشاؤون الا ان يشاء الله ان الله كان عليماً حكيماً) الدهر : ٣ وقال : (وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين) التكاوير : ٢٩ .

(١) صحيح ، وهو قطعة من حديث رواه ابو يعلى عن انس بسند ضعيف ، لكن معناه صحيح ، يشهد له احاديث كثيرة منها حديث انس ايضاً مرفوعاً : « من احب ان يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه » . متفق عليه .

وقال تعالى : (ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وشككهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله) الانعام : ١١١ . وقال تعالى : (ولو شاء ربك ما فعلوه) الانعام : ١١٢ . وقال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً) يونس : ٩٩ وقال تعالى : (فن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) الانعام : ١٢٥ . وقال تعالى حكاية / عن / نوح عليه السلام اذ قال لقومه : (ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) هود : ٣٤ . وقال تعالى : (من يشأ الله يضله ومن يشأ الله يجعله على صراط مستقيم) الانعام : ٣٩ الى غير ذلك من الاداة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ يكن . وكيف / يكون / في ملكه ما لا يشاء ! ومن أضل سبيلاً وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الايمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغابت مشيئة الكافر مشيئة الله ! ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فان قيل : يشكل على هذا قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) ، الانعام : ١٤٨ ، الآية . وقوله تعالى : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) النحل : ٣٥ ، الآية . وقوله تعالى : (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم إلا بخرصون) الزخرف : ٢٠ فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله ، وكذلك ذم ابليس حيث أضف الاغواء الى الله تعالى ، اذ قال : (رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين) الحجر : ٣٩ .

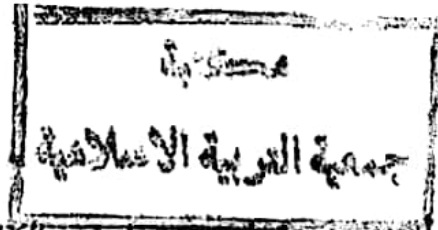
قيل : قد أجيب على هذا بأجوبة ، من أحسنها : أنه أنكر عليهم ذلك لانهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبه ، وقالوا : لو / كره / ذلك وسخطه لما شاء ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فرد الله عليهم ذلك . أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به ، أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره

الذي أرسل به رساله وأنزل به كُتبه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعة
للأمر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وانما ذكروها معارضين بها لأمره ،
دافعين بها لشرعه ، كفعل الزنادقة والجهال ، إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر .
وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر ، فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله
وقدره . يشهد لذلك قوله تعالى في الآية : (كذلك كذب الذين من قبلهم) الانعام :
١٤٨ . فاعلم أن مرادهم التكذيب ، فهو من قبل الفعل ، من أين له أن الله لم يقدره ؟
أظلم الغيب ؟

فان قيل : فما يقولون في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر ، اذ
قال له : أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاما ؟ وشهد النبي
صلى الله عليه وسلم أن آدم حج موسى ، أي : غلب عليه بالحجة ؟

قيل : نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة ، لصحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
عليه وسلم ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب ولا بالتأويلات الباردة . بل الصحيح أن
آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب ، وهو كان أعلم بربه وذنبه ، بل آحاد بنيه
من المؤمنين لا يحتج بالقدر ، فإنه باطل . وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه
/ من / أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه ، وانما
وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة ، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة ،
لا على الخطيئة ، فان القدر يحتج به عند المصائب ، لا عند المعائب . وهذا المعنى احسن
ما قيل في الحديث . فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضى بالله
ربا ، واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب ، واذا اذنب فعليه ان يستغفر ويتوب .
فيتوب من المعائب ، ويصبر على المصائب . قال تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق
واستغفر لذنبك) المؤمن : ٥٥ . وقال تعالى : (وان تصبروا وتتقوا لا يضركم
كيدهم شيئا) آل عمران : ١٢٠ .

وانما قول إبليس : (رب بما أغويتني) ، انما ذم على احتجاجه بالقدر ، لا



على اعترافه بالمقدر وإثباته له . ألم تسمع قول نوح عليه السلام : (ولا ينجيكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) هود : ٣٤ . ولقد أحسن القائل :

فما شئت كان / و / إن لم أشأ وما شئت إن لم تشأ لم يكن

وعن وهب بن منبه ، أنه قال : نظرت في القدر فتحيرت ، ثم نظرت فيه فتحيرت ، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه ، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به .

قوله : (يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي ، فضلا . ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلي ، عدلا) .

ش : هذا رد على المعتزلة في قولهم بوجوب فعل الإصلاح للعبد على الله ، وهي مسألة الهدى والضلال . قالت المعتزلة : الهدى من الله : بيان طريق الصواب ، والاضلال : تسمية العبد ضالا ، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه . وهذا مبني على أصلهم الفاسد : أن أفعال العباد مخلوقة لهم . والدليل على ما قلناه قوله تعالى : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) القصص : ٥٦ . ولو كان الهدى بيان الطريق - لما صح هذا النبي عن نبيه ، لأنه صلى الله عليه وسلم بين الطريق لمن أحب وأبغض . وقوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) السجدة : ١٣ . (يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) المدثر : ٣١ . ولو كان الهدى من الله البيان ، وهو عام في كل نفس - لما صح التقييد بالمشيئة . وكذلك قوله تعالى : (ولولا نعمة ربي لكنت من الخضرين) الصافات : ٥٧ . وقوله : (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) الانعام : ٣٩ .

قوله : (وكأهم يتقلبون في مشيئته ، بين فضله وعدله) .

ش : فإنهم كما قال تعالى : (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) التغابن : ٢ . فمن هداه إلى الإيمان بفضله ، وله الحمد ، ومن أضله فبعده ، وله الحمد . وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاح ، إن شاء الله تعالى ، فإن الشيخ رحمه الله لم

يجمع الكلام في القدر في مكان واحد ، بل فرقه ، فأثبت به على ترتيبه :

قوله : (وهو متعال عن الاضداد والانداد) .

ش : الضد : المخالف ، والند : المثل . فهو سبحانه لا معارض له بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا مثل له ، كما قال تعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) الاخلاص : ٤ . ويشير الشيخ رحمه الله - بنى الضد والند - الى الرد على المعتزلة ، في زعمهم ان العبد يخاق فعله .

قوله : (لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لامره) .

ش : اي : لا يرد قضاء الله راد ، ولا يعقب ، اي لا يؤخر حكمه ، مؤخر ، ولا يغلب امره غالب ، بل هو الله الواحد القهار .

قوله : (آتينا بذلك كله ، وايقنا ان كلا من عنده) .

ش : اما الايمان فسيأتي الكلام عليه ان شاء الله تعالى . والايمان : الاستقرار من قر الماء في الحوض اذا استقر . والتنوين في « كلا » بدل الاضافة (١) ، اي : كل كائن محدث من عند الله ، اي : بقضائه وقدره / و ارادته / ومشيئته وتكوينه . وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه ، ان شاء الله تعالى .

قوله : (وان مجدا عبده المصطفى ، ونبيه المجتبي ، ورسوله المرتضى) .

ش : الاصطفاء والاجتباء والارتضاء : متقارب المعنى . واعلم ان كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى . وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته . ومن توهم ان المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، وان الخروج عنها اكمل ، فهو / من / اجهل الخلق واصلهم ، قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) الانبياء : ٢٦ . الى غير ذلك من الآيات . وذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم باسم العبد في اشرف المقامات ، فقال في ذكر الاسراء : (سبحانه الذي اسرى بعبده) الاسراء : ١ . وقال تعالى :

(وانه لما قام عبدالله يدعوه) الجن : ١٩ . وقال تعالى : (فأوحى الى عبده ما أوحى) النجم : ١٠ . وقال تعالى : (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) البقرة : ٢٣ . وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة . ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة ، اذا طلبوا منه الشفاعة بعد الانبياء عليهم السلام : « اذهبوا الى محمد ، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » (١) . فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى .

وقوله : « وإن محمداً » بكسر الهمزة ، عطفاً على قوله : « ان الله واحد لا شريك له » . لان الكل معمول القول ، اعنى : قوله « نقول في توحيد الله » ، وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول ، واحسنها : ان من نبأه الله بنجر السماء ، إن امره ان يبلغ غيره ، فهو نبي رسول ، وان لم يأمره ان يبلغ غيره ، فهو نبي وليس برسول . فالرسول اخص من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا .

وإرسال الرسل من اعظم نعم الله على خلقه ، وخصوصاً محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال / تعالى / : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) آل عمران : ١٦٤ . وقال تعالى : (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) الانبياء : ١٠٧ .

قوله : (وانه خاتم الانبياء) :

ش : قال تعالى : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) الاحزاب : ٤٠ . وقال صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الانبياء كمثل قصر احسن بناؤه ، وترك منه موضع لبنة ، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه ، إلا موضع تلك اللبنة ،

(١) متفق عليه وهو قطعة من حديث سيأتي بطوله في الكتاب .

لا يعيبون سواها ، فكنت انا سددت موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل « (١) ، اخرجاه في الصحيحين . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا احمد ، وأنا الماحي ، يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر ، الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبي » (٢) ، / وفي صحيح مسلم عن ثوبان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وانه سيكون في اهتي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم انه نبي / ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي » (٣) الحديث . ولمسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضلت على الانبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، واحللت لي الغنائم ، وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً ، وارسات / الى / الخاق كافة ، وختم بي النبيون » (٤) .

قوله : (وامام الاتقياء)

ش : صلى الله عليه وسلم : الامام الذي يؤتم به ، اي : يقتدون به . والنبي صلى الله عليه وسلم انا بعث للاقتداء به ، لقوله تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) آل عمران : ٣١ وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الاتقياء .

قوله : (وسيد المرسلين) .

ش : قال صلى الله عليه وسلم : « انا سيد ولد آدم يوم القيامة واول من

(١) صحيح ، غير ان عزوه بهذا اللفظ للصحيحين ، وهم ، وانما هو عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » من حديث ابي هريرة كما في « الجامع الكبير » للسيوطي (٢ / ٢٠٣ / ١) ، واخرجه الشيخان عنه وعن جابر نحوه .

(٢) اخرجه الشيخان .

(٣) واخرجه ابو داود ايضاً واحمد وغيرهما .

(٤) صحيح ، وهو من حديث ابي هريرة واخرجه الترمذي ايضاً (١ / ٢٩٣) وقال : « حديث حسن صحيح » واحمد (٢ / ٤١٢) وله عنده طرق بألفاظ اخرى

يشق عنه القبر ، واول شافع واول مشفع « (١) . رواه مسلم . وفي اول حديث الشفاعة : « انا سيد الناس يوم القيامة » (٢) . وروى مسلم والترمذي عن واثلة بن الاسقع رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » (٣) .

وانما اخبر صلى الله عليه وسلم انه سيد ولد آدم ، لانا لا يمكننا أن نعلم ذلك الا بنجره ، اذ لاني بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله ، كما اخبرنا هو بفضائل الانبياء قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين . ولهذا أتبعه بقوله « ولا فخر » ، كما جاء في رواية .

قوله : (وحبيب رب العالمين) .

ش : ثبت له صلى الله عليه وسلم أعلى مراتب المحبة ، وهي الخلقة ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » (٤) . وقال : « ولو كنت متخذاً من أهل الارض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن » (٥) . والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال :

(١) مسلم (٥٩/٧) وكذا ابو داود (٤٦٧/٣) وابن سعد في « الطبقات » (٢٠ / ١) واحمد (٥٤٠/٢) من حديث ابي هريرة .

(٢) مسلم (١٢٧ / ١) وكذا البخاري (٣٣٤ / ٢ ، ٢٧٢ / ٣) واحمد (٤٣٥/٢) من حديث ابي هريرة ايضاً والدارمي (٢٧/١ - ٢٨) واحمد (١٤٤/٣) بسند صحيح عن انس ، وزاد : « ولا فخر » والترمذي عن ابي سعيد وسيأتي .

(٣) وقال الترمذي (٢٨١ / ٢) : « حديث حسن صحيح » واللفظ لمسلم ولفظ الترمذي اتم .

(٤) مسلم وأبو عوانة من حديث جندب .

(٥) مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ، بلفظ « خليل الله » ، وكذا رواه الترمذي (٢٨٩ / ٢) وصححه .

الخلقة لأبراهيم والمحبة لمحمد ، فأبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه . وفي الصحيح أيضاً :
لني أبرأ الى كل خليل من خلته (١) . والمحبة قد ثبتت لغيره . قال تعالى : (والله
يحب المحسنين) آل عمران : ١٣٤ . (فإن الله يحب المتقين) آل عمران : ٧٦ .
(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) البقرة : ٢٢٢ . فبطل قول من خص
الخلقة بأبراهيم والمحبة بمحمد ، بل الخلقة خاصة بهما ، والمحبة عامة . وحديث ابن عباس
رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه : « إن إبراهيم خليل الله ، ألا وأنا
حبيب الله ولا فخر » (٢) - : لم يثبت .

والحبة مراتب : أولها : العلاقة ، وهي تعلق القلب بالمحجوب . والثانية :
الارادة ، وهي ميل القلب الى محبوه وطلبه له . الثالثة : الصباية ، وهي انصباب
القلب اليه بحيث لا يملكه صاحبه ، كانصباب الماء في الحدور . الرابعة : الغرام ،
وهي الحب اللازم للقلب ، ومنه الغريم ، للملازمة ، ومنه : (إن عذابها كان غراما)
الفرقان : ٦٥ . الخامسة : المودة ، والود ، وهي صفو المحبة وخالصها ولبها ، قال
تعالى : (سيجعل لهم الرحمن وداً) مريم : ٩٦ . السادسة : الشغف ، وهي
وصول المحبة الى شغاف القلب . السابعة : العشق : وهو الحب المفرط الذي يخاف
على صاحبه منه ، ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد في محبة ربه ، وان كان
قد أطلقه بعضهم . واختلف في سبب المنع ، فقيل : عدم التوقيف ، وقيل غير
ذلك . ولعل امتناع اطلاقه : أن العشق محبة مع شهوة . الثامنة : التيم ، وهو بمعنى
التعبد . التاسعة : التعبد . العاشرة : الخاة ، وهي المحبة التي تخللت روح الحب وقلبه .
وقيل في ترتيبها غير ذلك . وهذا الترتيب تقريب حسن ، / لا / يعرف حسنه / إلا /
بالتأمل في معانيه .

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلقة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته ،

(١) هو من حديث ابن مسعود الذي قبله .

(٢) ضعيف ، لضعف زمعة وسلامة أيضاً .

تكمساتر صفاته تعالى ، وانما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالأرادة والود والمحبة
والخلقة ، حسبما ورد النص :

وقد اختلف في تحديد المحبة على أقوال ، نحو ثلاثين قولاً . ولاتحد المحبة بحد
أوضح منها ، فالحدود لاتزيد لها الا خفاء . وهذه الاشياء الواضحة لاتحتاج الى
تحديد ، كالماء والهواء والتراب والجوع ونحو ذلك .

قوله : (وكل دعوى النبوة بعده فغى وهوى) .

ش : لما ثبت أنه خاتم النبيين على أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب ؛
ولا يقال : فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال
بتكذيبه ؟ لانا نقول : هذا لايتصور أن يوجد ، وهو من باب فرض المحال ، لان
الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين ، فمن المحال أن يأتي مدع يدعي النبوة ولا يظهر
أماره كذبه في دعواه . والغى : ضد الرشاد . والهوى : عبارة عن شهوة النفس .
أي : أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس ، لاعن دليل ، فتكون باطلة .

قوله : (وهو المبعوث الى عامة الجن وكافة الورى ، بالحق والهذى ،
وبالنور والضياء .

ش : أما كونه مبعوثاً الى عامة الجن ، فقال تعالى حكاية عن قول الجن :
(يا قومنا أجيئوا داعي الله) الاحقاف : ٣١ ، الآية . وكذا سورة الجن تدل على
أنه أرسل اليهم أيضاً . قال مقاتل : لم يبعث الله رسولا الى الانس والجن قبله .
وهذا قول بعيد . فقد قال تعالى : (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم)
الانعام : ١٣٠ ، الآية ، والرسل من الانس فقط ، وليس من الجن رسول ، كذا
قال مجاهد وغيره من السلف والخلف . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الرسل من
بني آدم ، ومن الجن نذر . وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن : (إنا سمعنا كتاباً

أنزل من بعد موسى) الأحقاف : ٣٠ ، الآية - : تدل على أن موسى مرسل إليهم أيضاً . والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم : أنه زعم أن في الجن رسلاً ، واحتج بهذه الآية الكريمة . وفي الاستدلال بها على ذلك نظر لأنها محتملة وليست بصريحة ، وهي - والله أعلم - كقوله : (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) الرحمن : ٢٢ والمراد : من أحدهما .

وأما كونه مبعوثاً الى كافة الورى ، فقد قال : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً) سبأ : ٢٨ . وقد قال تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) الاعراف : ١٥٧ . وقال تعالى : (وأوحى الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) الانعام : ١٩ . أي : وأنذر من بلغه . وقال تعالى : (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً) النساء : ٧٩ . وقال تعالى : (اكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) يونس : ٢ ، الآية . وقال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) الفرقان : ١ . وقد قال تعالى : (وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أسلمتم فلان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانا عايك البلاغ) آل عمران : ٢٠ . وقال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً ، فأيا رجل من أمتي أدر كته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة » (١) ، أخرجاه في الصحيحين . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يسمع بي رجل من هذه الامة يهودي ولا نصراني

(١) صحيح ، وهو من حديث جابر :

ثم لا يؤمن بي الا دخل النار» (١) ، رواه مسلم . وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى الناس كافة معلوم من دين الاسلام بالضرورة .

وأما قول بعض النصارى إنه رسول الى العرب خاصة - : فظاهر البطلان ، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به . وقد قال إنه رسول الله الى الناس عامة ، والرسول لا يكذب ، فلزم تصديقه حتما ، فقد أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الارض الى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الاطراف ، يدعو الى الاسلام .

وقوله : بالحق والهدى وبالنور والضياء . هذه أوصاف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة . والضياء : أكمل من النور ، قال تعالى : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) يونس : ٥ .

قوله : (وان القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفية قولا ، وأنزله على رسوله وحيا ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية . فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر ، حيث قال تعالى : (سأصليه سقر) المدثر : ٢٦ فلما أوعده الله بسقر لمن قال : (ان هذا الا قول البشر) المدثر : ٢٥ - علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر) :

ش : هذه قاعدة شريفة ، وأصل كبير من أصول الدين ، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس . وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه

(١) صحيح ، وهو من حديث أبي هريرة ، وهو في مسلم (٩٣/١) ، ولكنه مغاير في بعض الاحرف لسياق الكتاب . وقد رواه ابن منده في « التوحيد » (ق ٤٤/١) ولفظه أقرب .

الادلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما ، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

وقول الشيخ رحمه الله وإن القرآن كلام الله إن بكسر الهمزة - عطف على قوله : ان الله واحد لا شريك له ثم قال : وإن مجدا عبده المصطفى . وكسر همزة إن في المواضع الثلاثة ، لأنها معمول القول ، أعني قوله في اول كلامه : نقول في توحيد الله .

وقوله : كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً : - رد على المعتزلة وغيرهم . فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبد منه ، قالوا : وإضافته اليه اضافة تشريف ، كبيت الله ، وناقصة الله ، يحرفون الكلام عن مواضعه ! وقولهم باطل ، فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان ، فاضافة الاعيان الى الله للتشريف ، وهي مخلوقة له ، كبيت الله ، وناقصة الله ، بخلاف اضافة المعاني ، كعلم الله ، وقدرته ، وعزته ، وجلاله ، وكبريائه ، وكلامه ، وحياته ، وعلوه ، وقهره - فإن هذا كله من صفاته ، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً .

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال ، وضده من أوصاف النقص . قال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار) ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً (الاعراف : ١٤٧ . فكان عباد العجل - مع كفرهم - أعرف بالله من المعتزلة ، فإنهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم أيضاً . وقال تعالى عن العجل أيضاً : (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرأ ولا نفعا) طه : ٨٩ . فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل :

وغاية شبهتهم انهم يقولون : يلزم منه التشبيه والتجسيم ؟ فيقال لهم : اذا قلنا انه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم . الا ترى انه تعالى قال : (اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم) يس : ٦٥ . فنحن نؤمن انها

تتكلم ، ولانعلم كيف تتكلم . وكذا قواه تعالى : (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي أنطق كل شيء) السجدة : ٢١ . وكذلك تسبيح الحصا والطعام ، وسلام الحجر ، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف .

والى هذا اشار الشيخ رحمه الله بقوله : منه بدا بلا كيفية قولا ، اي : ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به . واكد هذا المعنى بقوله « قولا » ، أتى بالمصدر المعروف للحقيقة ، كما اكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت النافي لله جاز في قوله : (وكلم الله موسى تكليما) . فهاذا بعد الحق إلا الضلال ؟ !

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم : قال تعالى : (سلامٌ قولا من ربِّ رحيم) يس : ٥٨

و / قد / قال تعالى : (إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم) آل عمران : ٧٧ فأهانهم بترك تكليمهم ، والمراد انه لا يكلمهم تكليم تكريم ، / و / هو الصحيح ، إذ قد اخبر في الآية الاخرى انه يقول لهم في النار : (اخسأوا فيها ولا تكلمون) المؤمنون ١٠٨ ، فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين ، لكانوا في ذلك هم واعداءه سواء ، ولم يكن في تخصيص اعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً . وقال البخاري في « صحيحه » باب كلام الرب تبارك وتعالى مع اهل الجنة ، وساق فيه عدة احاديث . فأفضل نعيم اهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى ، وتكليمه لهم . فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة . واعلى نعيمها وافضله الذي ما طابت لأهلها إلا به .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : (الله خالق كل شيء) الرعد : ١٨ ، والقرآن شيء ، فيكون داخلاً في عموم « كل » فيكون مخلوقاً !! فن اعجب العجب . وذلك : ان افعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى ، وانما يخلقها العباد جميعها ، لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم « كل » ، وادخلوا كلام الله في عمومها مع انه صفة من صفاته ، به تكون الاشياء المخلوقة ، إذ بأمره تكون المخلوقات ، قال تعالى : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر)

الاعراف : ٥٣ . ففرق بين الخلق والامر ، فلو كان الامر مخاوفاً للزم ان يكون مخاوفاً بأمر آخر ، والآخر بآخر ، الى ما لانهاية له ، فيلزم التسلسل ، وهو باطل . وطريد باطلهم : ان تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة ، كالعلم والقدرة وغيرهما ، وذلك صريح الكفر ، فلن علمه شيء ، وقدرته شيء ، وحياته شيء ، فيدخل ذلك في عموم كل ، فيكون مخلوقاً بعد ان لم يكن ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وكيف يصح ان يكون متكالماً بكلام يقوم بغيره ؟ ولو صح ذلك للزم ان يكون ما احداثه من الكلام في الجمادات كلامه ! وكذلك ايضاً ما خلقه في الحيوانات ولا يفرق حينئذ بين نطق وانطق . وانما قالت الجاود : « انطقنا الله » السجدة : ٢١ ولم تقل : نطق الله ، بل يلزم ان يكون متكالماً بكل كلام خلقه في غيره ، زوراً كان او كذباً او كفراً او هذياناً ! ! تعالى الله عن ذلك .

ولو صح ان يوصف احد بصفة قامت بغيره ، لصح ان يقال للبصير : اعمي وللاعمى : بصير ! لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره ، والاعمى قد قام وصف البصر بغيره ! ولصح ان يوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره ، من الالوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك .

وعموم كل في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن . الا ترى الى قوله تعالى : (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم) الاحقاف : ٢٥ ومساكنهم شيء ، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؟ وذلك لان المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير . وكذا قوله تعالى حكايمة عن باقميس (واوتيت من كل شيء) النمل : ٢٣ ، المراد من كل شيء يحتاج اليه الملوك وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام . اذ مراد المهدد انها مأكلة كامئة في امر الملك ، غير محتاجة الى ما يكمل به امر ملكها ، ولهذا نظائر كثيرة .

والمراد من قوله تعالى : (خالت كل شيء) الرعد : ١٦ ، أي كل شيء مخاوق ، وكل وجود سوى الله فهو مخاوق ، قد دخل في هذا العموم أفعال العباد

حقاً ، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى ، وصفاته ليست خيره ، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته اللازمة لذاته المقدسة ، لا يتصور انفصال صفاته عنه ، كما تقدم الإشارة الى هذا المعنى عند قوله : ازال قديماً بصفاته قبل خلقه .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : (إنا جعلناه قرآناً عربياً) الزخرف : ٣ ، فافسده من استدلال ! فإن « جعل » إذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد ، كقوله تعالى : (وجعل الظلمات والنور) الانعام : ١ ، وقوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) الانبياء : ٣٠ . (وجعلنا في الارض رواسي ان نميد بهم وجعلنا فيها فجاً سبلاً لهم يهتدون) الانبياء : ٣١ . (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً) الانبياء : ٣٢ . وإذا تعدى الى مفعولين لم يكن بمعنى خلق ، قال تعالى : (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) النحل : ٩١ وقال تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة ليمانكم) البقرة : ٢٤٤ . وقال تعالى : (الذين جعلوا القرآن عضين) الحجر : ٩١ وقال تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) الاسراء : ٢٩ . وقال تعالى : (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر) الاسراء : ٣٩ . وقال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) الزخرف : ١٩ . ونظائره كثيرة . فكذا قوله تعالى : (إنا جعلناه قرآناً عربياً) الزخرف : ٣ .

ودا افسد استدلالهم بقوله تعالى : (نودي من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة) القصص : ٣٠ - على ان الكلام خالق الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها ! وعموا عما قبل هذه الكاية وما بعدها ، فإن الله تعالى قال : (فإنا أنزلناه نودي من شاطئ الوادي الايمن) القصص : ٣٠ ، والنداء هو الكلام من بعد ، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي ، ثم قال : (في البقعة المباركة من الشجرة) القصص : ٣٠ اي ان النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت ، يكون من البيت لا ابتداء الغاية

لأن البيت هو المتكلم ! ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة ، لكانت الشجرة هي
القائفة : (ياموسي اني انا الله رب العالمين) القصص : ٣٠ . وهل قال : (اني انا
الله رب العالمين) القصص : ٣٠ غير رب العالمين ؟

فإن قيل : فقد قال تعالى : (إنه لقول رسول كريم) الحاقة : ٤٠ ، وهذا
يدل على ان الرسول أحدثه ، إما جبرائيل او مجله ،

قيل : ذكر الرسول معرف انه مبالغ عن مرسله ، لانه لم يقل إنه قول ملك
او نبي ، فعلم انه بلغه عن مرسله به ، لا أنه انشأ من جهة نفسه . وأيضاً : فالرسول
في إحدى الآيتين جبرائيل ، وفي الأخرى محمد ، فإضافته الى كل منهما تبين ان
الإضافة للتبليغ ، اذ لو أحدثه أحدهما امتنع ان يحدثه الآخر . وأيضاً : فوصف
الرسول بأنه أمين (١) ، دليل على انه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا ينقص
منه ، بل هو أمين على ما أرسل به ، يبلغه عن مرسله . وأيضاً : فإن الله قد كفر من
جعله قول البشر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بشر ، فمن جماعه قول محمد ، بمعنى أنه
انشأه - فقد كفر . ولا فرق بين ان يقول : إنه قول بشر ، او جني ، او ملك ،
والكلام كلام من قال مبتدئاً ، لامن قاله مبلغاً . ومن سمع قائلاً يقول :

فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

- قال : هذا شعر امرئ القيس ، ومن سمعه يقول : « إنما الاعمال بالنيات

(١) قال الشيخ احمد شاكر : الآية التي ذكرها الشارح (انه لقول رسول كريم)
جاءت مرتين في سورة الحاقة : ٤٠ وليس فيما بعدها الوصف بلفظ (أمين) .
والأخرى في سورة التكوين : ١٩ ، ثم بعدها : (ذي قوة عند ذي العرش مكين
مطاع ثم أمين) - ٢٠ ، ٢١ . فتعبير الشارح بقوله : وأيضاً فقوله : رسول أمين
فيه شيء من التساهل ، لم يرد به حكاية التلاوة ، وإنما اراد المعنى فقط . ولو قال :
وايضاً فوصف الرسول بأنه (أمين) « كان ادق واجود .

وإنما لكل امرئ ما نوى» (١) - : قال : هذا كلام الرسول ، وإن سمعه يقول :
(الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين)
قال : هذا كلام الله ، إن كان عنده خبر ذلك ، والاقال : لأدري كلام من هذا؟
ولو أنكرك عليه أحد ذلك لكذب . ولهذا من سمع من غيره نظماً أو نثراً ، يقول له :
هذا كلام من ؟ هذا كلامك أو كلام غيرك ؟

وبالجملة ، فأهل السنة كلهم ، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف
والخلف ، متفقون على أن كلام الله غير مخلوق .

والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء
كيف شاء ، وأن نوع كلامه قديم . وكذلك ظاهر كلام الامام أبي حنيفة رضي الله
عنه في الفقه الأكبر ، فإنه قال : والقرآن في المصاحف مكتوب ، وفي القلوب
محفوظ ، وعلى الألسن مقروء ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم منزل ، ولهظنا بالقرآن
مخلوق ، والقرآن غير مخلوق ، وما ذكر الله في القرآن عن موسى عليه السلام
وغيره ، وعن فرعون وإبليس - فإن ذلك كلام الله إخباراً عنهم ، وكلام موسى
وغيره من المخلوقين مخلوق ، والقرآن كلام الله لا كلامهم ، وسمع موسى عليه
السلام كلام الله تعالى ، فلما كلم موسى كلامه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل ،
وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى
لا كرؤيتنا ، ويتكلم لا ككلامنا . وانتهى . فقله : ولما كلم (٢) موسى كلامه بكلامه
الذي هو من صفاته - يعلم منه أنه حين جاء كلامه ، لأنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً
يقول يا موسى ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) .
والقرآن في الأصل : مصدر ، فتارة يذكر ويراد به القراءة ، قال تعالى :
(وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) الإسراء : ٧٨ . وقال صلى الله عليه

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب .

(٢) في المطبوعة « ولما كان » ، وهو خطأ .

وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » (١) . وتارة يذكر ويراد به المقرء ، قال تعالى :
(فإذا قرأت القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) الاعراف : ٢٠٣ . وقال تعالى :
صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » (٢) . الى غير ذلك
من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين .

ومنى قوله : « منه بدا » أي هو المشكل به ، فنه بدا ، لا من بعض المخلوقات ،
كما قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الزمر : ١ . (ولكن حق
القول مني) السجدة : ١٣ . (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) النحل :
١٠٢ . ومعنى قوهم : وإليه يعود - : يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى في
الصدور منه آية ولا في المصاحف . كما جاء ذلك في عدة آثار .

وقوله بلا كيفية : أي : لا تعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز ،
وأنزله على رسواه وخياً ، أي : أنزله اليه على لسان الملك ، فسمعه الملك جبرائيل
من الله ، وسمعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الملك ، وقرأ على الناس .
قال تعالى : (وقرأ نافر قنياه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه
تنزيلاً) الاسراء : ١٠٦ . وقال تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون
من المنذرين باسان عربي مبين) الشعراء : ١٩٣ . وفي ذلك إثبات صفة العلو
لله تعالى .

وقوله : وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على
الوجه المذكور وإنزاله ، أي هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهم السلف
الصالح ، وأن هذا حق وصدق .

(١) صحيح ، رواه أبو داود وغيره من أصحاب السنن والحاكم وأحمد بسند صحيح

عن البراء بن عازب .

(٢) متفق عليه من حديث عمر .

وقوله : وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية .
رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر . وفي قوله : بالحقيقة رد على من قال :
إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفساني . لأنه لا يقال
لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به :- أن هذا كلام حقيقة ، وإلا للزم أن
يكون الآخرس متكلماً ، ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو
القرآن ولا كلام الله ، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله ، كما لو أشار آخرس
الى شخص بإشارة فهم بها مقصوده ، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى
الذي أوحاه إليه ذلك الآخرس ، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك
المعنى . وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه وان كان الله تعالى لا
يسميه أحد «آخرس» لكن عندهم ، أن الملك فهم منه معنى قائماً
بنفسه ، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً ، بل فهم معنى مجرداً ، ثم عبر عنه ، فهو
الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي ، وأن الله خلق في بعض الأجسام كاهوى
الذي هو دون الملك هذه العبارة .

ويقال لمن قال إنه معنى واحد :- هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى
أو بعضه ؟ فإن قال : سمعه كله ، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله ! وفساد هذا ظاهر .
وإن قال : بعضه ، فقد قال يتبع بعض . وكذلك كل من كاهه الله أو أنزل إليه شيئاً
من كلامه .

ولما قال تعالى للملائكة : (إني جاعل في الأرض خليفة) (البقرة : ٣٠) . ولما قال
لهم : (اسجدوا لآدم) . وأما ذلك :- هل هذا جميع كلامه ، أو بعضه ؟ فإن
قال : إنه جميعه ، فهذا مكابرة ، وإن قال : بعضه ، فقد اعترف بتعددده .

ولا شك أن من قال : إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتأو
الحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق :- فقد قال
بخلق القرآن وهو لا يشعر ، فإن الله يقول : (قل أئمن اجتمعت الإنس والجن على
أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) (الإسراء : ٨٨) . أفتراه سبحانه وتعالى

يشير الى ما في نفسه أو الى المتلو المسموع ؟ ولاشك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع ، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه ، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع . وقوله : (لا يأتون بمثله) - أفتراه سبحانه يقول : لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعه ولم يعرفوه ، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ، ولا الى الوقوف عليه .

وقوله : ومن سمعه وقال إنه كلام البشر فقد كفر . لاشك في تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله ، بل قال إنه كلام مجد أو غيره من غير الخلق ، ملكا كان أو بشراً . وأما إذا أقر انه كلام الله ، ثم أول وحرف - فقد وافق قول من قال : « إن هذا إلا قول البشر » في بعض ما به كفر ، أولئك الذين استزهم الشيطان - وسيأتي الكلام عليه عند قول الشيخ « ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلله » إن شاء الله تعالى .

وقوله : ولا يشبه قول البشر ، يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق . قال تعالى : (ومن أصدق من الله حديثا) النساء : ٨٧ وقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) ، الامراء : ٨٨ . الآية . وقال تعالى : (قل فأتوا بسورة مثله) يونس : ٣٨ . فلما عجزوا - وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة - عن الإتيان بسورة مثله ، تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله . وإعجازه من جهة نظامه ومعناه ، لا من جهة أحدهما فقط . هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين ، أي باغة العربية . فنفي المشابهة من حيث التكلم ، ومن حيث التكلم به ، ومن حيث النظم والمعنى ، لا من حيث الكلمات والحروف . وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور ، أي انه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يخاطبون بها . ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن ؟ كما في قوله تعالى : (ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه) البقرة : ١-٢ . (ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) آل عمران : ١-٣ الآية . (ألمص . كتاب

أنزل إليك) الاعراف : ١-٢ ، الآية . (آ لر . تلك آيات الكتاب الحكيم)
يونس : ١-٢ . وكذلك الباقي ، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتيكم بما لاتعرفونه ،
بل خاطبكم بلسانكم .

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفي تكلم الله به ،
وسماع جبرائيل منه ، كما يتذرعون بقوله تعالى : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١
إلى نفي الصفات . وفي الآية ما يرد عليهم قولهم ، وهو قوله تعالى : (وهو السميع
البصير) الشورى : ١١ . كما في قوله تعالى : (فأتوا بسورة مثله) يونس : ٣٨ ما
يرد على من ينفي الحرف ، فانه قال : (فأتوا بسورة) ، ولم يقل فأتوا بحرف ،
أو بكامة . وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات . ولهذا قال أبو يوسف ومجد :
إن أدنى ما يجزي في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة ، لأنه لا يقع الإعجاز
بدون ذلك . والله أعلم .

قوله : (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر ، فقد كفر . من أبصر
هذا اعتبر . وعن مثل قول الكفار أنزجر . علم أنه بصفاته ليس كالإنسان) .

ش : لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة ، منه بدا ، نبه بعد ذلك
على أنه تعالى بصفاته ليس كالإنسان ، نفياً للتشبيه عقيب الإثبات . يعني أن الله تعالى
وإن وصف بأنه متكلم ، لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الإنسان بها
متكلماً ، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . وما أحسن المثل المضروب
للمثبتات للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل :- باللبن الخالص السائح للشاربين ،
يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه . والمعطل يعبد عدماً ، والمشبّه يعبد صنماً .
وسياقي في كلام الشيخ : ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه .
وكذا قوله : وهو بين التشبيه والتعطيل . أي دين الاسلام ، ولا شك أن التعطيل
شر من التشبيه ، بما سأذكره إن شاء الله تعالى . وليس ما وصف الله به نفسه ولا

ما وصفه به وسوله تشبيها ، بل صفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخاوق كما يليق به .

وقوله : فمن أبصر هذا اعتبر . أي من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار .

قوله : (والرؤية حق لاهل الجنة ، بغير احاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) القيامة : ٢٢-٢٣ . وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لاندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم . ورد على ما اشتبه عليه الى عالمه) .

ش : المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم . وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون ، وأئمة الاسلام المعروفون بالامامة في الدين ، وأهل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون الى السنة والجماعة .

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجائها ، وهي الغاية التي شمر اليها المشمرون ، وتنافس المتنافسون ، وحرّمها الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مردودون ؛

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناظرة الى ربها ناظرة) القيامة : ٢٢-٢٣ . وهي من أظهر الأدلة . واما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلا :- فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب ، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل . ولا يشاء بطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد الى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص .

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين . وهكذا فعلت اليهود والنصارى في
نصوص التوراة والانجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مثاهم . وأبى المبطون لإساولك
سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية . فهل قتل عثمان
رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد ؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل ، وصفين ،
ومقتل الحسين ، والحرّة ؟

ولإضافة النظر الى الوجه ، الذي هو محناه ، في هذه الآية ، وتعديته بأداة «إلى»
الصريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه حقيقة (١) موضوعة
صريحة في ان الله اراد بذلك نظر العين التي في الوجه الى الرب جل جلاله .

فإن النظر له عدة استعمالات ، بحسب صلاته وتعديته بنفسه : فإن عدي بنفسه
فمعناه : التوقف والانتظار : (انظرونا نقتبس من نوركم) الحديد : ١٣ . وإن عدي
بـ « في » ، فمعناه : التفكير والاعتبار ، كقوله : (او لم ينظروا في ملكوت السموات
والارض) الاعراف : ١٨٤ . وإن عدي بـ « إلى » فمعناه : المعاينة بالابصار ،
كقوله تعالى : (انظروا الى ثمره اذا اثمر) الانعام : ٩٩ . فكيف اذا أضيف الى
الوجه الذي هو محل البصر ؟ وروى ابن مردويه بسنده الى ابن عمرو ، قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة) - قال :
من البهاء والحسن (الى ربها ناظرة) ، قال في وجه الله عز وجل (٢) . عن الحسن
قال : نظرت الى ربها فنضرت بنوره . وقال ابو صالح ابن عباس رضي الله عنهما ،
(الى ربها ناظرة) قال : تنظر الى وجه ربها عز وجل وقال عكرمة : (وجوه
يومئذ ناضرة) ، قال : من النعيم ، (الى ربها ناظرة) ، قال : تنظر الى ربها نظراً
ثم حكى عن ابن عباس مثله / . وهذا قول المفسرين (٣) من اهل السنة والحديث .

(١) في الاصل : حقيقةته .

(٢) لم اقف على مسنده ، ولم يورده السيوطي في « الدر المنثور » في تفسير الآية
(٦ / ١٩٠) ، وقد ذكر فيه الآثار الآتية .

(٣) في الاصل : كل مفسر .

وقال تعالى : (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) ث : ٣٥ . قال الطبري : قال علي بن ابي طالب وأنس بن مالك : هو النظر الى وجهه الله عز وجل . وقال تعالى : (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) يونس : ٢٦ ، فالحسنى : الجنة ، والزيادة : هي النظر الى وجهه الكريم ، فسرّها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابه من بعده ، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب ، قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) يونس : ٢٦ ، قال : « إذا دخل اهل الجنة الجنة ، واهل النار النار ، نادى مناد : يا اهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويخبرنا من النار ؟ فيكشف الحجاب ، فينظرون اليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر اليه ، وهي الزيادة » (١) . ورواه غيره بأسانيد متعددة والفاظ اخر ، معناها ان الزيادة النظر الى وجهه الله عز وجل . وكذلك فسرّها الصحابة رضي الله عنهم . روى ابن جرير / ذلك / عن جماعة ، منهم : ابو بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة ، وابو موسى الاشعري ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

وقال تعالى : (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) المطففين : ١٥ . احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الائمة بهذه الآية على الرؤية لاهل الجنة ، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي . وقال الحاكم : حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرت محمد إدريس الشافعي ، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول في قول الله عز وجل : (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ؟ المطففين : ١٥ فقال الشافعي : لما أن حُجِبَ هؤلاء في السخط ، كان في هذا دليل على أن اولياءه يرونه في الرضى .

والاستدلال المعتزلة بقوله تعالى : (لن تراني) الاعراف : ١٤٢ ، وبقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) :- فالآيتان دليل عليهم :
 (١) صحيح ، ورواه الترمذي وابن ماجه واحمد نحوه .

اما الآية الاولى : فالاستلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه : أحدهما :
 انه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم واعلم بربه في وقته - أن يسأل مالا يجوز عليه ،
 بل هو عندهم من اعظم المحال . الثاني : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح
 ربه نجاه ابنه أنكر سؤاله ، وقال : (إني أعظك ان تكون من الجاهلين) هود : ٤٦
 الثالث : انه تعالى قال : (لن تراني) ، ولم يقل : اني لأرى ، او لا تجوز رؤيتي ،
 او لست بمرئي . والفرق بين الجوابين ظاهر . ألا ترى أن من كان في كه حجر
 فظنه رجل طعاما فقال : أطعمنيه ، فالجواب الصحيح : أنه لا يؤكل ، أما اذا
 كان طعاما صح أن يقال : انك لن تأكله . وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ،
 ولكن موسى لا تحتل قواه رؤيته في هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته
 تعالى . يوضحه : الوجه الرابع : وهو قوله : (ولكن انظر الى الجبل فإن استقر
 مكانه فسوف تراني) الاعراف : ١٤٢ . فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا
 يثبت للتجلي في هذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ؟ الخامس : أن
 الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرا وذلك ممكن ، وقد علق به الرؤية ،
 ولو كانت محالا لكان نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب
 وأنام . والكل عندهم سواء . السادس : قوله تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله
 دكا) الاعراف : ١٤٢ ، فاذا جاز أن يتجلى للجبل ، الذي هو جبار لا ثواب له
 ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله
 أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار ، فالبشر أضعف . السابع :
 أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه
 كلامه بغير واسطة - فرؤيته أولى بالجواز . ولهذا لا يتم إنكار رؤيته الا بإنكار كلامه ،
 وقد جمعوا بينهما . واما دعواهم تأييد النفي بـ « لن » وأن ذلك يدل على نفي الرؤية
 في الآخرة - : ففاسد ، فانها لو قيدت بالتأييد لا يدل على دوام النفي في الآخرة ،
 فكيف اذا أطلقت ؟ قال تعالى : « ولن يتمنوه أبدا » البقرة : ٩٥ ، مع قوله
 (ونادوا يا مالک ليقض علينا ربك) الزخرف : ٧٧ . ولأنها لو كانت للتأييد

المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال تعالى : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي إبي) يوسف : ٨٠ . فثبت ان « لن » لاتقتضي النفي المؤبد .
قال الشيخ جمال الدين ابن مالك رحمه الله :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقله اردد وسواه فاعضدا

واما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو :
أن الله تعالى انما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح انما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به ، وانما يمدح الرب تعالى بالنفي اذا تضمن أمرا وجودياً ، كمدحه بنبي السنة والنوم ، المتضمن كمال القيومية ، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والاعياء ، المتضمن كمال القدرة ، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير ، المتضمن كمال الربوبية والالوهية وقهره ، ونفي الاكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه ، ونفي الشفاعة عنده الا بإذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خالقه ، ونفي الظلم ، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه ، المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفي المثل ، المتضمن لكمال ذاته وصفاته . ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمرا ثبوتياً ، فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فان المعنى : أنه يُرى ولا يُدرك ولا يحاط به ، فقله : (لاتدركه الأبصار) الانعام : ١٠٣ ، يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبر من كل شيء ، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فان « الإدراك » هو الاحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، كما قال تعالى : (فلما تراء الجمع ان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، قال : كلا) الشعراء : ٦٢ ، فلم ينف موسى الرؤية ، وإنما نفى الإدراك ، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالى يُرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علماً ، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية ، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية . بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه .

وأما الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، الدالة على الرؤية فتواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . فمنها : حديث أبي هريرة : « أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا ، قال فإنكم ترونه كذلك » (١) ، الحديث ، أخرجاه في « الصحيحين » بطوله . وحديث أبي سعيد الخدري أيضا في « الصحيحين » نظيره . وحديث جرير بن عبد الله البجلي ، قال : « كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة ، فقال : انكم سترون ربكم عيانا ، كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته » (٢) ، الحديث أخرجاه في « الصحيحين » . وحديث صهيب المتقدم ، رواه مسلم وغيره . وحديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « وجنتان من فضه ، آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (٣) ، أخرجاه في « الصحيحين » . ومن حديث عدي بن حاتم : « وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، فيقول : ألم ابعث إليك رسولا فيباغلك ؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : ألم اعطك مالا وافضل عليك ؟ فيقول : بلى يا رب » (٤) . أخرجه البخاري في « صحيحه » .

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا . ومن احاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها ، ولولا أني التزمت الاختصار لسقت ما في الباب من الأحاديث . ومن اراد الوقوف عايتها فليواظب سماع الأحاديث النبوية ، فإن فيها مع

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) البخاري في « المناقب » .

لإثبات الرؤية انه يكلم من شاء إذا شاء ، وانه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة ، وانه فوق العالم ، وانه يناديهم بصوت يسمع من بعد كما يسمعه من قرب ، وانه يتجلى لعباده ، وانه يضحك ، الى غير ذلك من الصفات التي سمعها على الجهمية بمنزلة الصواعق . وكيف تعلم اصول دين الاسلام من غير كتاب الله ومسنه رسوله ؟ وكيف يفسر كتاب الله بغير مافسره به رسوله صلى الله عليه وسلم واصحابه رضوان الله عليهم ، الذين نزل القرآن باختهم ؟

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لاتشبيه المرئي بالمرئي ، وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا ، لا لامتناع الرؤية ، فهذه الشمس اذا حلق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي ، بل لعجز الرائي ، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته . ولهذا لما تجلى الله للجبل (خر موسى صعباً ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) الاعراف : ١٤٢ ، بأنه لا يراك حي إلا مات ، ولا يابس الا تدهده ، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته ، الا من ايده الله كما ايد نبيينا ، قال تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الامر) الانعام : ٨ . قال غير واحد من الساف : لا يطيقون أن يروا الملك في صورته ، فاو أنزلنا عليهم ملكاً لجعانه في صورة بشر ، وحيثئذ يشبهه عليهم : هل هو بشر او ملك ؟ ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولا منا .

وقوله : والرؤية حق لأهل الجنة ، تخصيص أهل الجنة بالذكر ، يفهم منه نبي الرؤية عن غيرهم . ولا شك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة ، وكذلك يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة ، كما ثبت ذلك في « الصحيحين » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . ويدل عليه قوله تعالى : (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الاحزاب :

(١) انظر صفحة ٦٣ .

٤٤ . واختلاف في رؤية اهل المحشر على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه لا يراه إلا المؤمنون . الثاني : يراه أهل الموقف ، مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك . الثالث : يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار . وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف .

واتفقت الامة على أنه لا يراه احد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة : منهم من نفى رؤيته بالعين ، ومنهم من اثبتها له صلى الله عليه وسلم . وحكى القاضي عياض في كتابه « الشفا » اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته صلى الله عليه وسلم ، وإنكار عائشة رضي الله عنها ان يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، وانها قالت لمسروق حين سألها : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، ثم قالت : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قال : وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها ، وهو المشهور عن ابن مسعود وابي هريرة واختلف عنه ، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه صلى الله عليه وسلم رآه بعينه (١) ، وروى عطاء عنه : أنه رآه بقلبه . ثم ذكر أقوالا وفوائد ، ثم قال : وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص ، والمعول فيه على آيتي النجم ، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن . وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق ، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة ، إذ لو لم تكن ممكنة ، لما سألها موسى عليه السلام لكن لم يرد نص بأنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية ، وهو ما رواه مسلم في « صحيحه » عن أبي ذر رضي الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه »

(١) ضعيف أخرجه ابن خزيمة في « التوحيد » .

(١). وفي رواية : « رأيت نوراً » . وقد روى مسلم أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور » (٢) ، وفي رواية : « النار ، لو كشفه ، لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . فيكون - والله اعلم - معنى قوله لأبي ذر « رأيت نوراً » : أنه رأى الحجاب ، ومعنى قوله « نور أنى أراه » : النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته ، فأنى أراه ؟ أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته ؟ فهذا صريح في نفي الرؤية . والله اعلم . وحكى عثمان بن سعيد الدرامي اتفاق الصحابة على ذلك ، ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل اخرج منا إلى تقرير رؤيته (٣) لربه تعالى ، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى ، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة .

وقوله : بغير إحاطة ولا كيفية - هذا لكمال عظمته وبهائه ، سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولا تحيط به ، كما يُعلم ولا يحاط به علماً . قال تعالى : (لا تدركه الأبصار) الانعام : ١٠٣ . وقال تعالى : (ولا يحيطون به علماً) طه : ١١٠ . وقوله : وتفسيره على ما أراد الله وعلمه ، إلى أن قال : لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا . أي كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة

(١) صحيح ، أخرجه مسلم في آخر « كتاب الإيمان » ويشهد له حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ : « يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله عز وجل » . رواه الدارقطني كما في « الدر » (٦ / ١٩١) ، وله شاهد مرسل ، رواه أبو سعيد الدرامي في « الرد على الجهمية » (٤٩) .

(٢) صحيح .

(٣) مافي المطبوعتين خطأ وصوابه ما اثبتناه من الاصل ويؤيده مافي « الرد على الجهمية » للدرامي .

في الرؤية ، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه . فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما جاءت به السنة ، والفاسد المخالف له . فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق ، ولا معه قرينة تقتضيه ، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه ، إذ لو قصده لحفّ بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره ، حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ ، فإن الله أنزل كلامه بياناً وهدى ، فإذا أراد به خلاف ظاهره ، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره الى فهم كل أحد ، لم يكن بياناً ولا هدى . فالتأويل لإخبار بمراد المتكلم ، لا لإنشاء .

وفي هذا الموضع يغلط كثير من الناس فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه فإذا قيل : معنى اللفظ كذا وكذا ، كان إخباراً بالذي عنى المتكلم ، فإن لم يكن الخبر مطابقاً كان كذباً على المتكلم ، وميعرف مراد المتكلم بطرق متعددة : منها : أن يصرح بإرادة ذلك المعنى . ومنها : أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى ، فكيف إذا حلف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له ، كقوله : (وكلم الله موسى تكليماً) النساء : ١٦٣ . و « إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب » (١) فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم ، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة ، كان صادقاً في إخباره . وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه ، فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه وهو تأويل بالرأي ، وتوهم بالهوى .

وقوله : فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه . أي : سلم لنصوص الكتاب والسنة ، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة ، أو بقوله : العقل يشهد بصدقه ما دل عليه النقل ! والعقل أصل النقل ! فإذا عارضه قدمنا العقل !! وهذا لا يكون قط .

(١) متفق عليه وتقدم .

لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك : فإن كان النقل صحيحاً فذلك الذي يدعي أنه معقول إنما هو مجهول ، ولو حقق النظر لظهر ذلك . وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة ، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً . وبه ارض كلام من يقول ذلك بنظره ، فيقال : إذا تعارض العقل والنقل وجب تهديم النقل ، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ، ورفعها رفع النقيضين ، وتقديم العقل ممنوع ، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل ، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل ، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء ، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه ، فلا يجوز تقديمه . وهذا بين واضح ، فإن العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته ، وأن خبره مطابق لمخبره ، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون النقل دليلاً صحيحاً ، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً لم يحز أن يتبع بحال ، فضلاً عن أن يقدم ، فصار تقديم العقل على النقل قدحاً في العقل .

فالواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نعارضه بخيال باطل نسفيه معقولا ، أو نحمله شبهة أو شكاً ، أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما نوحده المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والثوكل .

فهما توحيدان ، لانتجاة للعبد من عذاب الله الابهما : توحيد المرسل ، وتوحيد متابعة الرسول ، فلا نحكم إلى غيره ، ولا نرضى بحكم غيره ، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نقذه وقبل خبره ، والا فإن طلب السلامة فوضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره ، وإلا حرقه عن مواضعه ، وسمى تحريفه تأويلاً وحملات ، فقال : تؤوله

ولتحمله . فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب - مأخذاً بالإشراك بالله - خير له له من أن يلقاه بهذه الحال . بل اذا باغى الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه ؟ ! بل كان الفرض المبادرة الى امتثاله ، من غير التفات الى سواءه ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان ، بل يستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصه بقياس ، بل نهدر الأقيسة ، ونتأقى نصوصه ، ولا نحرف كلامه عن حقيقته ، لخيال يسميه أصحابه معقولا ، نعم هو مجهول ، وعن الصواب معزول ! ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان ، كائناً من كان .

قال الإمام أحمد : حدثنا انس بن عياض ، حدثنا أبو حازم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : لقد جلست أنا وإخوتي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، اقبلت أنا وإخوتي وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجالسنا حجرة ، اذ ذكروا آية من القرآن ، فقاموا فيها ، حتى ارتفعت اصواتهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنما هلكت الامم من قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، ان القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه بعضا ، فما حرقتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » (١)

ولاشك ان الله قد حرم القول عليه بغير علم ، قال تعالى : (قل إنما جرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) الاعراف : ٣٣ . وقال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) الاسراء : ٣٦ . فعلى العبد ان يجعل ما بعث الله به رساله ، وانزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه ، فان وافقه فهو حق ، وان خالفه فهو باطل

(١) صحيح .

وأن لم يعلم : هل خالفه او وافقه - يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه
او قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصاديقه او بتكذيبه - فانه
يمسك عنه ، ولا يتكلم الا بعلم ، والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به
الرسول ، وقد يكون علمه من غير الرسول ، لكن في الامور الدنيوية ، مثل الطب
والحساب والفلاحة ، وأما الامور الإلهية والمعارف الدينية ، فهذه العلم فيها ما أخذ
عن الرسول لا غير .

قوله : (ولا تثبت قدم الاسلام الا على ظهر التسليم والاستسلام) .

ش : هذا من باب الاستعارة ، اذ القدم الحسي لا تثبت الا على ظهر شيء .
أي لا يثبت اسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين ، وينقاد اليها ، ولا يعترض عليها
ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه . روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب
الزهري رحمه الله أنه قال : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .
وهذا كلام جامع نافع .

وهذا أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل ، وهو : أن العقل مع النقل العاوي
المقاد مع العالم المجتهد ، بل هو دون ذلك بكثير ، فإن العاوي يمكنه أن يصير عالماً ،
ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولاً ، فاذا عرف العاوي المقاد عالماً ، فدل عليه عامياً
آخر . ثم اختلف المفتي والదال ، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي ، دون
الدال ، فلو قال الدال : الصواب معي دون المفتي ، لأنني انا الأصل في علمك بأنك
مفت ، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت ،
فلزم القدح في فرعه فيقول له المستفتي : أنت لما شهدت له بأنه مفت ، ودلت
عليه ، شهدت له بوجوب تقليده دونك ، فوافقني لك في هذا العلم المعين ، لا تستلزم
موافقتك في كل مسألة ، ونخطئك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو اعلم منك ،
لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت ، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ .

والعقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى ، لا يجوز عليه الخطأ ،
فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره ، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن

الرجل لو قال للرسول : هذا القرآن الذي تأميه علينا ، والحكمة التي جئنا بها ، قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا ، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا ، فلو قبلنا جميع ما تقول مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحا في ما علمنا به صدقك ، فنحن نعتقد واجب الأقوال الناقضة لما ظهر من كلامك ، وكلامك معرض عنه ، لانتلقي منه هدياً ولا علماً ، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول ، ولم يرض منه الرسول بهذا ، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن يؤمن بشيء مما جاء به الرسول ، إذ العقول متفاوتة ، والشبهات كثيرة ، والشياطين لا تزال تلقي الوسواس في النفوس ، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر به الرسول وما أمر به !! وقد قال تعالى : (وما على الرسول إلا البلاغ) النور : ٥٤ . وقال : (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) النحل : ٣٥ . وقال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بآسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) إبراهيم : ٤ . (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) المائدة : ١٥ . (حم والكتاب المبين) الدخان : ١ - ٢ ، والزخرف : ١ - ٢ . (تلك آيات الكتاب المبين) يوسف : ٢ . (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) يوسف : ١١١ . (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) النحل : ٨٩ . ونظائر ذلك كثيرة في القرآن . فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر : إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا ؟ الثاني باطل ، وإن كان قد تكلم / بما يدل / على الحق بألفاظ مجملة محتملة . فما باغ البلاغ المبين ، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ ، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم ، فمن يدعي أنه في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين ، فقد افترى عليه صلى الله عليه وسلم .

قوله : (فن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الإيمان .)

ش : هذا تقرير للكلام الاول ، وزيادة تحذير أن يتكلم في اصول الدين - بل

وفي غيرها- بغير علم . وقال تعالى : (ولا تنقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولا) الاسراء : ٣٦ . وقال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير) الحج : ٣-٤ . وقال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) الحج : ٨-٩ . وقال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين) القصص : ٥٠ . وقال تعالى : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى) النجم : ٢٣ . الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى :

وعن ابي امامة الباهلي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماض قوم بعد هدى كانوا عليه إلا اوتوا الجدل » ثم تلا : (ماض ربوه لك إلا جدلا) (١) الزخرف : ٥٨ . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن . وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم » (٢) . خرجاه في « الصحيحين » .

ولاشك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده ، فإنه يقول برأيه وهواه ، ويقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله ، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول ، فانه قد اتخذ في ذلك إلها غير الله . قال تعالى : (أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه) الفرقان : ٤٣ . أي : عبد ماتهواه نفسه . وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق ، كما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله عليه :

(١) حسن كما قال الترمذي .

(٢) صحيح ، متفق عليه .

رأيت الذنوب تميمت القلوب وقد يورث اللد إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأخبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ، ويعارضونها بها ، ويقدمونها على حكم الله ورسوله . وأخبار السوء ، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بأرائهم وأقيستهم الفاسدة ، المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله ، وتحريم ما أباحه ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وإطلاق ما قيد ، وتقييد ما أطلقه ، ونحو ذلك . والرهبان وهم جهال المتصوفة ، المعترضون على حقائق الإيمان والشرع ، بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس : فقال الأولون : إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة ! وقال الآخرون : إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل ! وقال أصحاب الذوق إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف .

ومن كلام أبي حامد الغزالي رحمه الله في كتابه الذي سماه « إحياء علوم الدين » وهو من أجل كتبه ، أو أجابها : « فإن قلت : فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه ، فاعلم ان للناس في هذا غلواً وإسرافاً في أطراف . فمن قائل : انه بدعة وحرام ، وان العبد أن يلقي الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من ان يلقاه بالكلام . ومن قائل : لانه فرض ، إما على الكفاية ، وإما على الاعيان ، وانه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فانه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله . قال : وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك . وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من الساف » وساق الالفاظ عن هؤلاء . قال : وقد اتفق أهل الحديث من الساف على هذا . لا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات

فيه ، قالوا : ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لما يتولد منه من الشر . وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون » (١) . أي المتعمقون في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني على أربابه . ثم ذكر بقية استدلالهم ، ثم ذكر استللال الفريق الآخر . إلى أن قال : فإن قلت : فما المختار عندك ؟ . فأجاب بالتفصيل ، فقال : فيه منفعة ، وفيه ضرر : فهو في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب ، كما يقتضيه الحال . وهو باعتبار ضررته في وقت الاستضرار ومحلله حرام . قال : فأما ضررته ، فاثارة الشبهات ، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل بالابتداء . ورجوعها بالدليل . شكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص . فهذا ضرورة في اعتقاد الحق ، وله ضرر في تأكيد اعتقاد البدعة ، وتثبيتها في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . قال : وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفة ما هي عليه وهيئتها ، فايس في الكلام وفاء بهذا المطالب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف . قال : وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم قاله بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكاملين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في عاوم آخر سوى نوع الكلام ، وتحقيق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ، ولكن على الدور ، انتهى ما نقلته عن الغزالي رحمه الله .

وكلام مثله في ذلك حجة بالغة ، والساف لم يكرهه لمجرد كونه اصطلاحا

جديداً على معان صحيحة ، كالأصطلاح على ألفاظ العاوم الصحيحة ، ولا تتركوا
أيضا الدلالة على الحق والحاجة لأهل الباطل ، بل كرهوه لاشتغالهم على أمور كاذبة
ومخالفة للحق . ومن ذلك : مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من عاوم صحيحة ،
فقد وعروا الطريق الى تحصيلها ، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها ، فهي
لحم جمل غث على رأس جبل وعرة ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى . وأحسن
ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً ، وأحسن تفسيراً ، فليس عندهم إلا التكلف
والتطويل والتعقيد .

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك ، والفاضل الذي
يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك .

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله
وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين . بل الواجب أن يجعل
ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقابه ، ويعرف برهانه ودليله
العقلي والخبري السمعي ، ويعرف دلالة على هذا وهذا ، ويجعل اقوال الناس التي
توافقه وتخالفه متشابهة مجمة ، فيقال لأصحابها : هذه الألفاظ تحمل كذا وكذا ،
فان ارادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وان ارادوا بها ما يخالفه رد . وهذا مثل
لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والحيز والعرض ، ونحو ذلك . فان
هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل الاصطلاح ، بل
ولا في اللغة ، بل هم يخصصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها ، فتفسر
تلك المعاني بعبارات آخر ، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية ،
واذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل .

وسبب الإضلال الاعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله ، والاشتغال
بكلام اليونان والآراء المختلفة . وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام ، لأنهم لم يفيدوا
علماً لم يكن معروفاً ، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد ، وهو ما يضر بونه من القياس
لإيضاح ما علم بالحس ، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر ، ومع

من ينكر الحس . وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته - مع وجود النص ، او عارض النص بالمعقول - فقد ضاهى ابليس ، حيث لم يسلم لأمر ربه ، بل قال : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) الاعراف : ١١ . وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) النساء : ٨٠ . وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ . وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً) النساء : ٦٥ . اقسام سبحانه بنفسه انهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسلياً .

قوله : (فيمذبذب بين الكفر والايمان ، والتصديق والتكذيب ، والاقرار والانكار ، وسوسا تائها ، شاكا ، لامؤمنا مصدقا ، ولا جاحدا مكذبا) .

ش : يتذبذب : يضطرب ويتردد . وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم ، او اراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة ، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة ، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك ، كما قال ابن رشد الحفيد ، وهو من اعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم ، في كتابه « تهافت التهافت » : « ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به ؟ » . وكذلك الآمدي ، افضل اهل زمانه ، واقف في المسائل الكبار حائر . وكذلك الغزالي رحمه الله ، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ، ثم اعرض عن تلك الطرق واقبل على احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فبات البخاري على صدره . وكذلك ابو عبد الله محمد بن عمر الرازي ، قال في كتابه الذي صنفه : / اقسام / اللذات :

نهاية إقدام العقول - عقل	وغاية سعي العالمين - ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسدنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه : قيل وقالوا

فكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجالٌ ، فزالوا والجبالُ جبالٌ

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي غليلاً ، ولا
تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، إقرأ في الإثبات : (الرحمن
على العرش استوى) طه : ٥ . (إليه يصعد الكلم الطيب) فاطر : ١٠ . وإقرأ
في النفي : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ . (ولا يحيطون به علماً) طه : ١١٠ .
ثم قال : « ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » . وكذلك قال الشيخ
أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا
الحيرة والندم ، حيث قال :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني : يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام ، فلو عرفت
أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به . وقال عند موته : لقد خضت البحر
الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن
فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة
أمي ، أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور . وكذلك قال شمس الدين الخسرو
شاهي ، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي ، لبعض الفضلاء ، وقد دخل
عليه يوماً ، فقال : ماتعته ؟ قال : ما يعته المسلمون ، فقال : وأنت منشرح
الصدر لذلك مستيقن به ؟ أو كما قال ، فقال : نعم ، فقال : اشكر الله على هذه
النعمة ، لكني والله ما أدري ما اعتقد ، والله ما أدري ما اعتقد ، والله ما أدري ما اعتقد ،
وبني حتى أخضل لحيتي .

وقال الخوفجي عند موته : ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفقر

إلى المرجح ، ثم قال : الافتقار ووصف سلمي ، أموت وما عرفت شيئاً . وقال آخر :
أضطجع على فراشي وأضع اللحفة على وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء
حتى يطلع الفجر ، ولم يرجح عندي منها شيء .

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته والا ترندق ، كما قال
أبو يوسف : من طلب الدين بالكلام ترندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ،
ومن طلب غريب الحديث كذب . وقال الشافعي رحمه الله : حكى في أهل الكلام
أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزء
من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام . وقال : لقد اطلعت من أهل الكلام على
شيء ما ظننت مسلماً يقوله ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه - ما خلا الشرك
بالله - خير له من أن يبتلى بالكلام . انتهى .

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز ، فيقر بما أقروا به ،
ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك ، التي كان يقطع بها ، ثم تبين له فسادها ،
أو لم يتبين له صحتها ، فيكونون في نهاياتهم - إذا سلموا من العذاب - بمنزلة أتباع
أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب .

والدواء النافع لمثل هذا المرض ، ما كان طيب القلوب صلوات الله وسلامه
عليه يقوله - إذا قام من الليل بفتح الصلاة - : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل
واسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك
فيما كانوا فيه يختلفون ، اهتدي لما اختلف فيه من الحق باذنك ، انك تهدي من تشاء
إلى صراط مستقيم » (١) . أخرجه مسلم . توجه صلى الله عليه وسلم إلى ربه برؤية
جبرائيل وميكائيل واسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق باذنه ، إذ حياة
القلب بالهداية . وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة : فجبرائيل موكل بالوحي
الذي هو سبب حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان ،

(١) صحيح ، ورواه أبو عوانة أيضاً في « صحيحه » .

وسائر الحيوان ، واسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود
الأرواح الى أجسادها . فالتوسل الى الله سبحانه برؤية هذه الأرواح العظيمة
الموكلة بالحياة ، له تأثير عظيم في حصول المطلوب . والله المستعان .

قوله : (ولا يصح الايمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم
او تأولها بفهم ، اذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف الى الرؤية
- بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسالمين ، ومن لم يتوق النبي
والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي
الرؤية ، وعلى من يشبه الله بشيء من مخاوقاتة . فان النبي صلى الله عليه وسلم قال
« انكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » (١) ، الحديث : أدخل « كاف » التشبيه
على « ما » المصدرية / او / الموصولة بترون التي تتأول مع صلتها الى المصدر الذي
هو الرؤية ، فيكون التشبيه في الرؤية لافي المرئي . وهذا بين واضح في أن المراد
اثبات الرؤية وتحقيقها ، ودفع الاحتمالات عنها . وماذا بعد هذا البيان وهذا
الإيضاح ؟ ! فاذا ساط التأويل على مثل هذا النص ، كيف يستدل بنص من
النصوص ؟ ! وهل يحتمل هذا النص ان يكون معناه : إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون
القمر ليلة البدر ؟ ! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى : (ألم تر كيف فعل
ربك بأصحاب الفيل) الفيل : ١ . ونحو ذلك مما استعمل فيه « رأى » التي من افعال
القاوب !! ولا شك أن « ترى » تارة تكون بصرية ، وتارة تكون قايية ، وتارة
تكون من رؤيا الحلم ، وغير ذلك ، ولكن ما يخاو الكلام من قرينة تخلص أصل
معانيه من الباقي . وإلا لو أدخل المتكلم كلامه من القرينة المخالصة لأحد المعاني لكان
مجملاً ما عزا ، لا مبيناً موضحاً . وأي بيان وقرينة فوق قوله : « ترون ربكم كما ترون
الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب » ؟ فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر ،

(١) متفق عليه ، وقد تقدم .

أو برؤية القلب ؟ وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه ؟ !
فإن قالوا : الجأنا إلى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يتصور
إمكانها .

فالجواب : أن هذه دعوى منكم ، خالفكم فيها أكثر العقلاء ، وليس في
العقل ما يحيلها ، بل لو عرض على العقل وجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم
بأن هذا محال .

وقوله : « لمن اعتبرها منهم بوهم » ، أي توهم أن الله تعالى يرى على صفة
كذا ، فيتوهم تشبيهها ، ثم بعد هذا التوهم - ان أثبت ما توهمه من الوصف - فهو
مشبه ، وإن نفي الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم - فهو جاحدمعطل . بل الواجب
دفع ذلك الوهم وحده ، ولا يعم بنفيه الحق والباطل ، فينفيهما رداً على من أثبت
الباطل ، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق .

والى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله : « ومن لم يتوق النفي والتشبيه ،
زل ولم يصب التنزيه » ، فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي !
وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال ؟ فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال ، إذ المعلوم
لا يرى ، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة ، كما في
العلم ، فإن نفي العلم به ليس بكمال ، وإنما الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علماً .
فهو سبحانه لا يحاط به رؤية ، كما لا يحاط به علماً .

وقوله : « أو تأولها بفهم » أي ادعى أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرها ،
وما يفهمه كل عربي من معناها ، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل :
أنه صرف اللفظ عن ظاهره ، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص ، وقالوا : نحن
نتأول ما يخالف قولنا ، فسموا التحريف : تأويلاً ، تريئناً له وزخرفة ليقبل ، وقد
ذم الله الذين زخرفوا الباطل ، قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين
الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) الانعام : ١١٢ .

والعبارة للمعاني لا للألفاظ . فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق . وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم : « لاندخل في ذلك متأولين بأرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا » . ثم أكد هذا المعنى بقوله : « اذا كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية - : بترك التأويل ، وازوم التسليم ، وعليه دين المسلمين » . ومراده ترك التأويل / الذي / يسمونه تأويلا ، وهو تحريف . ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتي هي احسن ، كما امر الله تعالى بقوله : (وجادلهم بالتي هي احسن) النحل : ١٢٥ . وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلا ، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة . وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة ، المخالفة لمذهب السلف ، التي يدل الكتاب والسنة على فسادها ، وترك القول على الله بلا علم :

فن التأويلات الفاسدة ، تأويل أدلة الرؤية ، وأدلة العلو ، وأنه لم يكلم موسى تكليماً ، ولم يتخذ ابراهيم خليلاً !

ثم قد صار انفظ « التأويل » مستعملا في غير معناه الأصلي :

فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله : هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام : فتأويل الخبر : هو عين المخبر به ، وتأويل الامر : نفس الفعل المأمور به . كما قالت عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » ، يتأول القرآن (١) . وقال تعالى : (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) الاعراف : ٣٥ . ومنه تأويل الرؤيا ، وتأويل العمل ، كقوله : (هذا تأويل رؤياي من قبل) يوسف : ١٠٠ . وقوله : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) يوسف : ٦ . وقوله : (ذلك خير وأحسن تأويلا) النساء : ٥٨ . وقوله : (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) الكهف : ٧٨ ، الى قوله : (ذلك تأويل ما لم

(١) متفق عليه .

تسطع عليه صبراً) الكهف : ٨٢ . فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل ، والعلم بما
تعلق بالأمر والنهي منه ؟ وأما ما كان خبراً ، كالأخبار عن الله واليوم الآخر ، فهذا
قد لا يُعلم تأويله ، الذي هو حقيقته ، إذ كانت لا تعلم بمجرد الأخبار ، فإن المخبر
ان لم يكن قد تصور المخبر به ، أو ما يعرفه قبل ذلك - لم يعرف حقيقته ، التي هي
تأويله ، بمجرد الأخبار . وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله . لكن لا يلزم من
نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب لفهام المخاطب إياه ، فما في
القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها ، وما أنزل آية إلا وهو يحب ان يعلم ما عني بها ،
وان كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله . فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام
السلف ، وسواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر او مخالفاً له .

والتأويل في كلام كثير من المفسرين ، كابن جرير ونحوه ، يريدون به تفسير
الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره او خالف ، وهذا اصطلاح معروف ؛
وهذا التأويل كالتفسير ، يمحده حقه ، ويُرد باطلاه . وقوله تعالى : (وما يعلم تأويله
إلا الله والراسخون في العلم) آل عمران : ٧ ، الآية - فيها قراءتان : قراءة من
يقف على قوله (إلا الله) ، وقراءة من لا يقف عندها ، وكلتا القراءتين حق . ويراد
بالأولى المتشابهة في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله . ويراد بالثانية المتشابهة الإضافي
الذي يعرف الراسخون تفسيره ، وهو تأويله . ولا يريد من وقف على قوله (إلا
الله) ان يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى ، فان لازم هذا ان يكون الله أنزل على
رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول ، ويكون الراسخون في العلم
لاحظ لهم في معرفة معناها سوى قولهم : (آمنا به كل من عند ربنا) آل عمران :
٧ . وهذا القدر يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين ، والراسخون في العلم يجب
امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : انا من
الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله . واتقد صدق رضي الله عنه ، فإن النبي صلى
الله عليه وسلم دعا له وقال : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه

التأويل» (١). رواه البخاري وغيره. ودعاؤه صلى الله عليه وسلم لأيرد. قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس ، من أوله الى آخره ، أفقه عند كل آية واسأله عنها . وقد تواترت النقول عنه انه تكلم في جميع معاني القرآن ، ولم يقل عن آية لأنها من المتشابه الذي لا يعلم احد تأويله الا الله .

وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول : المتشابه : الحروف المقطعة في أوائل السور ، ويروى هذا عن ابن عباس . مع أن هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس ، فإن كان معناها معروفاً ، فقد عرف معنى المتشابه ، وإن لم يكن معروفاً ، وهي المتشابه ، كان ماسواها معلوم المعنى ، وهذا المطلوب .
وايضاً فإن الله قال : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) آل عمران : ٧ . وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادين .

والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك . وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية . فالتأويل الصحيح منه : الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد ، وهذا مبسوط في موضعه . وذكر في « التبصرة » أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمرو بن اسماعيل ابن حماد بن ابي يحيى بن محمد بن الحسن رحمهم الله : أنه

(١) صحيح ، رواه احمد (٢٦٦/١ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥) والطبراني في « المعجم الكبير » (٢/٨٤/١) والبيهقي في « دلائل النبوة » والضياء المقدسي في « المختارة » بسند صحيح عن ابن عباس . وأما عزو المصنف اياه للبخاري فوهم ، وإنما عنده بلفظ : « اللهم علمه الحكمة » ، وفي لفظ « الكتاب » بدل « الحكمة » ، أخرجه (٣١/١ ، ٤٤٥/٢ ، ٤٩٩/٤) وهو رواية لأحمد (٢١٤/١ ، ٢٦٩ ، ٣٥٩) والطبراني ، ورواه مسلم (١٥٨/٧) مختصراً بلفظ : « اللهم فقه » . وهو رواية لأحمد (٣٢٧/١) وفي أخرى له (٣٣٠/١) عن ابن عباس قال فدعا الله أن يزيدني علماً وفهما .

ممثل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره الى التشبيه ؟ فقال : نعمه ها كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولانقول : كيف وكيف . ويجب ان يعلم ان المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه ، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه ، وإذا كان قد قيل في قول بعض الناس :

وكم من عائب قولا صحيحاً وأفتنه من الفهم السقيس

وقيل :

هلي نحت القوافي من مقاطعها وما علي لهم أن تفهم البقر

فكيف يقال في قول الله ، الذي هو اصدق الكلام واحسن الحديث ، وهو الكتاب الذي (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هود : ١ . ان حقيقة قولهم ان ظاهر القرآن والحديث هو الضلال ، وانه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد ، ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه ؟ هذا حقيقة قول المتأولين . والحق ان مناد عليه القرآن فهو حق ، وما كان باطلا لم يدل عليه . والمنازعون يدعون دلالة على الباطل الذي يتعين صرفه !

فيقال لهم : هذا الباب الذي فتحتوه ، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على اخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة مخفية - : فقد فتحت عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين ، لا تقدرُونَ على سده ، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالة المفهومة بغير دليل شرعي ، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ ؟ فإن قلتم : ما دل القاطع العقلي على استحالة تأويلنا ، وإلا أقررناه ! قيل لكم : وبأي عقل وزن القاطع العقلي ؟ فإن القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ! ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد ! ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى ، وعلى امتناع قيام علم او كلام او رحمة به تعالى !! وباب التأويلات التي يدعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من ان تنحصر في هذا المقام ، ويلزم حيثئذ محذوران عظيمان : أحدهما : أن لا نقر بشيء

من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك ببحثاً طويلاً عريضة في إمكان ذلك بالعقل ! وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه ، فيؤول الأمر الى الحيرة المحذورة . الثاني : أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول ، اذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد ، والتأويلات مضطربة فيأزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد الى ما انبأ الله به العباد ، وخاصة النبي هي الانباء ، والقرآن هو النبأ العظيم . ولهذا نجد اهل التأويل انما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه ، وإن خالفته اولوه ! وهذا فتح باب الزندقة ، نسأل الله العافية .

قوله : (ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه) .

ش : النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب ، فإن أمراض القلوب نوعان : مرض شبهة ، ومرض شهوة ، وكلاهما مذكور في القرآن ، قال تعالى : (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) الاحزاب : ٣٢ . فهذا مرض الشهوة ، وقال تعالى : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) البقرة : ١٠ . وقال تعالى : (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) التوبة : ١٢٥ . فهذا مرض الشبهة ، وهو أردأ من مرض الشهوة ، اذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته . والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها ، وشبه النفي أردأ من شبه التشبيه ، فإن شبه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وتشبيه الله بخلقه كفر فإن الله تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ ، ونفي الصفات كفر ، فإن الله تعالى يقول : (وهو السميع البصير) الشورى : ١١ . وهذا أصل نوعي التشبيه ، فإن التشبيه نوعان : تشبيه الخالق بالخلق ، وهذا الذي يجب أهل الكلام في رده وإبطاله ، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني ، الذين هم أهل تشبيه المخلوق

بالخائق ، كعباد المشايخ ، وعزير ، والشمس والقمر ، والأصنام ، والملائكة ،
والنار ، والماء ، والعجل ، والقبور ، والجن ، وغير ذلك . وهؤلاء هم الذين أرسلت
لهم الرسل يدعونهم الى عبادة الله وحده لا شريك له .

قوله : فان ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوجدانية ، منعوت بنعوت
الفردانية ، ليس في معناه أحد من البرية .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف
نفسه نفياً وإثباتاً . وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص . فقوله :
موصوف بصفات الوجدانية . مأخوذ من قوله تعالى : (قل هو الله أحد . الله
الصمد) الإخلاص : ١ - ٢ . وقوله : منعوت بنعوت الفردانية . من قوله تعالى :
(الله الصمد . لم يلد ولم يولد) الإخلاص : ٢ - ٣ . وقوله : ليس في معناه أحد
من البرية من قوله تعالى : (ولم يكن له كفواً أحد) الإخلاص : ٤ . وهو أيضاً
مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه . والوصف والنعوت مترادفان ،
وقيل : متقاربان . فالوصف للذات ، والنعوت للفعل ، وكذلك الوجدانية والفردانية .
وقيل في الفرق بينهما : إن الوجدانية للذات ، والفردانية للصفات ، فهو تعالى موحد
في ذاته ، منفرد بصفاته . وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد ، ولكن في اللفظ
نوع تكرير . وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة ، وهو بالخطب
والأدعية أشبه منه بالعقائد ، والتسجييع (١) بالخطب أليق . و (ليس كمثل شيء)
الشورى : ١١ . أكمل في التنزيه من قوله : ليس في معناه أحد من البرية .

قوله : (وتعالى عن الحدود والغايات ، والأركان والأعضاء والأدوات ،
لاتخويه الجهات الست كسائر المبتدعات) .

ش : أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة ، وهي : أن

(١) التسجييع ، بالسین المهملة ، يعني : السجع .

الناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال : فطائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها ، وطائفة تفصل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها الا اذا تبين ، ما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفي بها فهو منفي . لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وابهام ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي . ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً ، ويدكرون عن مثبتها ما لا يقولون به ، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلاً ، مخالفاً لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان . ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفيًا ولا إثباتاً ، وانما نحن متبعون لا مبتدعون .

فالواجب ان ينظر في هذا الباب ، أعني باب الصفات ، فما أثبتته الله ورسوله أثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله نفيناه . والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي ، فنثبت ما أثبتته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني ، وننفي ما نفته نصوصها من الألفاظ والمعاني . وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها : فإن كان معنى صحيحاً قبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص ، دون الألفاظ المجملة ، إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ، ونحو ذلك .

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة ، كداود الجواربي وامثاله القائلين : إن الله جسم وانه جثة واعضاء وغير ذلك ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . فالمعنى الذي اراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق ، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقاً وباطلاً ، فيحتاج الى بيان ذلك . وهو : أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون الله حداً ، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته قال ابو داود الطيالسي : كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سامة وشريك

وأبو عوانة - لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون ، يروون الحديث ولا يقولون : كيف وإذا سئلوا قالوا بالآثر . وسيأتي في كلام الشيخ : وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به . فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحدٌ بحده ، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم . سئل عبدالله بن المبارك : بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على العرش ، بائن من خلقه ، قيل : بحد ؟ قال : بحد ، انتهى . ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره ، والله تعالى غير حال في خلقه ، ولا قائم بهم ، بل هو القيوم القائم بنفسه ، المقيم لما سواه . فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً ، فإنه ليس وراءه شيء إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته . وأما الحد بمعنى العلم والقول ، وهو أن يحده العباد ، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة . قال أبو القاسم القشيري في « رسالته » : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي ، سمعت أبا منصور بن عبدالله ، سمعت أبا الحسن العنبري ، سمعت سهيل بن عبدالله التستري يقول ، وقد سئل عن ذات الله ؟ فقال : ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا ، وهي موجودة بحقائق الإيمان ، من غير حد ولا إحاطة ولا حاول ، وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته فالقلوب تعرفه ، والعيون لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار ، من غير إحاطة ولا ادراك نهاية .

وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات - فيستدل بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية ، كاليد والوجه . قال أبو حنيفة رضي الله عنه في « الفقه الأكبر » : له يد ووجه ونفس ، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولا يقال : أن يده قدرته ونعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، انتهى . وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه ، ثابت بالأدلة القاطعة : قال تعالى : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) ص : ٧٥ . (والأرض جميعاً قبضته

يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (الزمر : ٦٧ . وقال تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) القصص : ٨٨ . (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الرحمن : ٢٧ . وقال تعالى : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) المائدة : ١١٦ . وقال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) الانعام : ٥٤ . وقال تعالى : (واصطنعتك لنفسي) طه : ٤١ . وقال تعالى : (ويحذركم الله نفسه) آل عمران : ٢٨ . وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة لما يأتي الناس آدم فيقولون له : « خلقتك الله بيده واسجد لك ملائكته وعامك أسماء كل شيء » (١) ، الحديث : ولا يصح تأويل من قال : ان المراد باليد : بالقدرة ، فإن قوله : (لما خلقت بيدي) ص : ٧٥ . لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد ، ولو صح ذلك لقال إبليس : وانا ايضاً خلقتني بقدرتك ، فلا فضل له علي بذلك . فإبليس - مع كفره - كان اعرف بربه من الجهمية . ولا دليل لهم في قوله تعالى : (او لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً فهم لها مالكون) يس : ٧١ . لأنه تعالى جمع الايدي لما أضافها الى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعان ، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة ولم يقل : « ايدي » مضافاً الى ضمير المفرد ، ولا « يدينا » بتثنية اليد مضافاً الى ضمير الجمع . فلم يكن قوله : (مما عملت ايدينا) نظير قوله : (لما خلقت بيدي) وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل : « حجابه النور ، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » (٢) .

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء ، أو جوارح ، أو أدوات ، أو أركان ، لأن الركن جزء الماهية ، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ ، سبحانه وتعالى ، والأعضاء فيها معني التفريق والتعضية (٣) ، تعالى الله عن ذلك ، ومن هذا المعنى

(١) صحيح ، أخرجه البخاري (٤ / ٤٥٤ ، ٤٦٤) واحمد (٣ / ١١٦) في

حديث الشفاعة من حديث انس ، وسيأتي بلفظ آخر .

(٢) صحيح ، وقد تقدم .

(٣) التعضية : التقطيع ، وجعل الشيء أعضاء :

قوله تعالى : (الذين جعلوا القرآن عضين) الحجر : ٩١ . والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع . وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع الضرر . وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى . فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني ، سالمة من الاحتمالات الفاسدة ، فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نقياً ولا إثباتاً ، لئلا يثبت معنى فاسد ، أو ينفي معنى صحيح : وكل هذه الألفاظ المجمة عرضة للمحقق والمبطل .

وأما لفظ الجهة ، فقد يراد به ماهو موجود ، وقد يراد به ماهو معندوم ، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق ، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك . وإن أريد بالجهة أمر علمي ، وهو مافوق العالم ، فليس هناك إلا الله وحده . فإذا قيل : إنه في جهة بهذا الاعتبار ، فهو صحيح ، ومعناه : أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع ، عال عليه . ونفاة لفظ « الجهة » ، الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم : أن الجهات كلها مخلوقة ، وأنه كان قبل الجهات ، وأن من قال إنه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها . وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات ، سواء سمي جهة أو لم يسم ، وهذا حق . ولكن الجهة ليست أمراً وجودياً ، بل امر اعتباري ، ولا شك أن الجهات لانهاية لها ، ولا يوجد فيما لانهاية له فليس بموجود .

وقول الشيخ رحمه الله : لائحويه الجهات الست كسائر المبتدعات . - هو حق ، باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه . وهذا المعنى هو الذي اراده الشيخ رحمه الله ، لما يأتي في كلامه : أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه . فإذا جمع بين كلاميه ، وهو قوله : لائحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ، وقوله : محيط بكل شيء وفوقه - مُعلم أن مراده أن الله تعالى

لأيجوبه شيء ، ولأيحيط به شيء ، كما يكون لغيره (١) من المخلوقات ، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العالني عن كل شيء .

قوله : (والمعراج حق ، وقد اسري بالنبي صلى الله عليه وسلم وعرج بشخصه في الیقظة ، الى السماء ، ثم الى حيث شاء الله / من العلا / ، واكرمه الله بما شاء ، واوحى اليه ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى . فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والاولى) .

ش : « المعراج » : مفعال ، من العروج (٢) ، أي الآلة التي يعرج فيها ، أي يصعد ، وهو بمنزلة السلم ، لكن لا يعلم كيف هو ، وحكمه كحكم غيره من المغيبات تؤمن به ولا نشغل بكيفيته .

وقوله : وقد اسري بالنبي صلى الله عليه وسلم / وعرج / بشخصه في الیقظة - اختلف الناس في الإسراء .

فقيل : كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده ، نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما ، ونقل عن الحسن البصري نحوه . لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً ، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم . فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولوا كان مناماً ، وإنما قالوا أسري بروحه ولم يفقد جسده ، وفرق ما بين الأمرين : / أن / ما يراه الناس قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة ، فيرى كأنه قد عرج الى السماء وذهب به الى مكة ، وروحه لم تصعد ولم تذهب ، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال . فما اراد (٣) ان الإسراء مناماً ، وإنما أراد أن الروح ذاتها أسري بها ، فقارقت الجسد ثم عادت اليه ، ويجعلان هذا من خصائصه ، فإن غيره لا تتال

(١) في الاصل : بغيره .

(٢) في الاصل : المعروج .

(٣) قوله : « فما اراد » - يعني عائشة ومعاوية . وهو كلام فاسد ، لا معنى له .

ذات روحه الصعود الكامل الى السماء إلا بعد الموت .

وقيل : كان الإسراء مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظت » ، وبين سائر الروايات . وكذلك منهم من قال : بل كان مرتين ، مرة قبل الوحي ، ومرة بعده ومنهم من قال : بل ثلاث مرات ، مرة قبل الوحي ، ومرتين بعده ، وكلما اشتهر عليهم لفظ زادوا مرة ، للتوفيق ! ! وهذا يفعله ضعفاء اهل الحديث وإلا فالذي عليه أئمة النقل : أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة ، بعد البعثة ، قبل الهجرة بسنة ، وقيل : بسنة وشهرين ، ذكره ابن عبد البر . قال شمس الدين ابن القيم : يا عجباً هؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً كيف ساغ لهم ان يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى يصير خمساً ، فيقول : « أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي » ، ثم يعيدها في المرة الثانية الى خمسين ، ثم يحطها الى خمس ؟ ! وقد غلط الحفاظ شريكاً في الفاظ من حديث الاسراء ، ومسلم اورد المسند منه ، ثم قال : « فقدم وأخر وزاد ونقص » . ولم يرد الحديث واجاد رحمه الله . انتهى كلام الشيخ شمس الدين / رحمه الله / .

وكان من حديث الإسراء : أنه صلى الله عليه وسلم أسري بجسده في القنطرة على الصحيح ، من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، راكباً على البراق ، صحبة جبرائيل عليه السلام ، فنزل هناك ، وصلى بالأنبياء إماماً ، وربط البراق بحلقة باب المسجد . وقد قيل : انه نزل بيت لحم وصلى فيه ، ولا يصح عنه ذلك البتة . ثم عرج من بيت المقدس تلك الليلة الى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبرائيل ، ففتح لها ، فرأى هناك آدم ابا البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، ثم عرج / به / الى السماء الثانية . فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى ابن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما ، فسلم عليهما ، فردا عليه السلام ، ورحبا به ، وأقرا بنبوته ، ثم عرج / به / الى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ، ثم

نُخْرِجُ / به / الى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلم عليه ورحب به وأقر
 بنبوته ، ثم عرج / به / الى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، فسلم
 عليه ورحب به وأقر بنبوته ، ثم عرج به الى السماء السادسة ، فلي فيها موسى فسلم
 عليه ورحب به وأقر بنبوته ، فلما جاوزه بكى موسى ، فقل له : ما يبكيك ؟ قال :
 أبسكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ، ثم
 عرج به الى السماء السابعة ، فلي فيها ابراهيم ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ،
 ثم رفع الى سدرة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور ، ثم عرج به الى الجبار ، جل
 جلاله وتقدست أسماؤه ، قلنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده
 ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مر على موسى ، فقال : بـم
 أمرت ؟ قال : بخمسين صلاة ، فقال : / إن / أمتك لاتطبق ذلك ، ارجع الى ربك
 فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت الى جبرائيل كأنه يستشير في ذلك ، فأشار أن
 نعم ، إن شئت ، فعلا به جبرائيل حتى أتى به / الى / الجبار تبارك وتعالى وهو في
 مكانه - هذا لفظ البخاري في صحيحه وفي بعض الطرق - فوضع عنه عشرين ، ثم
 نزل حتى مر بموسى ، فأخبره ، فقال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف ، فلم يزل
 يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى ، حتى جعلها خمسا ، فأمره موسى بالرجوع
 وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربي ، ولكن أرضى واسلم ، فلما نفذ
 نادى مناد : قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي (١) .

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل

(١) حديث الإسراء صحيح ، وهو ملتقط من احاديث متفرقة ، غير أن الدنو
 المذكور في هذا السياق هو من رواية شريك بن عبدالله بن أبي نمر الذي غلطه
 الجفاظ في الفاظ من حديث الإسراء كما ذكر المؤلف آنفاً ، ومن ذلك هذا اللفظ كما
 بينه الحافظ ابن كثير في تفسير (الاسراء) .

بعين رأسه ، وأن الصحيح أنه رآه (١) بقبابه ، ولم يره بعين رأسه ، وقوله :
(ما كذب الفؤاد ما رأى) النجم : ١١ ، (ولقد رآه نزلة أخرى) النجم : ١٣ ،
صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا المرئي / جبرائيل / ، رآه مرتين على
صورته التي خلق عليها (٢) .

وأما قوله تعالى في سورة النجم : (ثم دنى فتدلى) ، فهو غير الدنو والتدلي
المذكورين في قصة الإسراء ، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه ،
كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما ، فإنه قال : (علمه شديد القوى ، ذو
مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى) النجم : ٥ - ٨ . فالضمائر كلها
راجعة الى هذا المعلم الشديد القوى ، وأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء ،
فذلك صريح في أنه دنو الرب تعالى وتدليه (٣) . وأما الذي في سورة النجم : أنه
رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، فهذا هو جبرائيل ، رآه مرتين ، مرة في الارض
ومرة عند سدرة المنتهى .

ومما يدل على ان الإسراء بجسده في اليقظة ، قوله تعالى : (سبحان الذي
اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) الاسراء : ١ . والعبد
عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما ان الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح ،
هذا هو المعروف عند الإطلاق ، وهو الصحيح . فيكون الإسراء بهذا المجموع ،
ولا يمتنع ذلك عقلاً ، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ،
وذلك يؤدي الى إنكار النبوة وهو كفر .

فإن قيل : فما الحكمة في الاسراء الى بيت المقدس اولا ؟ فالجواب - والله
اعلم - : ان ذلك كان اظهراً لصدق دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم المعراج

(١) في الاصل : رأى .

(٢) متفق عليه .

(٣) لكن في ثبوته نظر كما تقدم في الصفحة (٩٣) :

حين سأله قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم واخبرهم عن غيرهم التي مر عليها في طريقه ، ولو كان عروجه الى السماء من مكة لما حصل ذلك ، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو اخبرهم عنه ، وقد اطلعوا على بيت المقدس ، فأخبرهم بنعته .

قوله : (والحوض - الذي اكرمه الله تعالى به غيائاً لأمته - حق) .

ش : الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تباغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً ، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير ، تغمده الله برحمته ، في آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » .
فمنها : ما رواه البخاري رحمه الله تعالى ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن قدر حوضي كما بين أيلة الى صنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » (١) . وعنه ايضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليردن علي ناس من أصحابي ، حتى اذا عرفتهم اخذتُهم دوني ، فأقول أصحابي ، فيقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك » (٢) . رواه مسلم . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، قال : « أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاة ، فرفع رأسه مبتسماً ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه أنزلت علي آناً سورة ، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر) الكوثر : ١ ، حتى ختمها ، ثم قال لهم : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ،

(١) صحيح ، وروى منه أحمد (٣ / ٢٢٥ ، ٢٣٨) بإسنادين صحيحين الشطر الثاني وزاد في أحدهما « أباريق الذهب والفضة » وهو رواية لمسلم ، ورواه البخاري أيضاً (٤ / ٢٤٨) بتمامه .

(٢) صحيح ، ورواه البخاري أيضاً (٤ / ٢٤٨ ، ٢٤٩) فلو عزاه اليه المؤلف لكان أولى ، فان اللفظ له ، ولفظ مسلم (٧ / ٧٠ - ٧١) بنحوه .

ترد عليه أمي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يُختلج العبد منهم ، فأقول : يارب
لأنه من أمي ، فيقال لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » (١) . ورواه مسلم ، ولفظه
« هو نهر وعدنيه ربي ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة » ،
والباقي مثله . ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض ،
والحوض في العرصات قبل الصراط ، لأنه يحتاج عنه ، ويمنع منه ، أقوام قد ارتدوا
على أعقابهم ، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط . وروى البخاري ومسلم عن جندب
بن عبد الله البجلي ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا فرطكم
على الحوض » (٢) . والفرط : الذي يسبق إلى الماء . وروى البخاري عن سهل بن
سعد الأنصاري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني فرطكم على
الحوض ، من مر عليّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن علي أقوام أعرفهم
ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم » (٣) . قال أبو حازم : فسمعت النعمان بن أبي
عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم . فقال : أشهد على أبي سعيد
الخدري ، سمعته وهو يزيد : فأقول : « إنهم من أمي » فقال : إنك لا تدري
ما أحدثوا بعدك . فقال : « مُحَقَّقاً مُحَقَّقاً لمن غير بعدي » . مُحَقَّقاً : أي بعداً .

والذي يتأخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض : أنه حوض عظيم
ومورد كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذي هو أشد بياضاً من
اللبن ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، وهو في غاية
الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفي بعض
الأحاديث : أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع ، وأنه ينبت في خلاله من

(١) صحيح ، وهو في « المستند » (٣ / ١٠٢) بسند صحيح على شرط مسلم ، وقد
أخرجه في « صحيحه » كما ذكر المؤلف .

(٢) صحيح ، متفق عليه .

(٣) صحيح ، ورواه مسلم أيضاً (٧ / ٦٦) .

المسك والرضراض من اللؤلؤ / و / قضبان الذهب ، ويثمر ألوان الجواهر ، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء . وقد ورد في احاديث ان لكل نبي حوضاً ، وأن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً . جعلنا الله منهم بفضله وكرمه (١) .

قال العلامة ابو عبد الله القرطبي / رحمه الله / في « التذكرة » : واختلف في الميزان والحوض : أيهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل : الميزان ، وقيل : الحوض . قال ابو الحسن القابسي : والصحيح ان الحوض قبل . قال القرطبي : والمعنى يقتضيه ، فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم ، كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط . قال ابو حامد الغزالي رحمه الله ، في كتاب كشف علم الآخرة : حكى بعض السلف من اهل التصنيف ، أن الحوض يورد بعد الصراط ، وهو غلط من قائله . قال القرطبي : هو كما قال ، ثم قال القرطبي : ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض ، بل في الأرض المبدلة ، أرض بيضاء كالفضة ، لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم على ظهرها احد قط ، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء . انتهى . فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض ، وأخلق بهم ان يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر :

(١) ضعيف ، وحديث حوض نبينا صلى الله عليه وسلم له طرق كثيرة متواترة ولم اجد في شيء منها « ان لكل نبي حوضاً » ، اللهم الا في حديث سمرة بن جندب أخرجه الترمذي (٢ / ٦٧ - طبع الهند) وصفه بقوله : « غريب » ثم ذكر انه ورد مرسلًا وقال : « وهو اصح » ورواه الطبراني ايضاً كما في « المجمع » (١٠ / ٣٦٣) وقال : « وفيه مروان بن جعفر السمرري وثقه ابن ابي حاتم ، وقال الازدي بتكلمون فيه ، وبقيّة رجاله ثقات » .

قوله : (والشفاعة التي ادخرها لهم حق ، كما روي في الأخبار) :

ش : الشفاعة انواع : منها ما هو متفق عليه بين الأمة ، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من اهل البدع .

النوع الأول : الشفاعة الاولى ، وهي العظمى ، الخاصة بنبيينا صلى الله عليه وسلم من بين سائر إخوانه من الانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم اجمعين . في «الصحيحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم اجمعين ، أحاديث الشفاعة .

منها : عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحم ، فدفع اليه منها الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ، ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون لم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد / واحد / ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون الى ما انتم فيه ؟ ألا ترون الى ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض ابوكم آدم ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، انت ابو البشر ، خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، / نفسي نفسي / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل الى أهل الارض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، فاشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول نوح : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي / نفسي نفسي / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم ، فيقولون : يا إبراهيم ، أنت نبي الله وخليفه من أهل الارض ، ألا ترى / الى / ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي / نفسي نفسي / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى موسى ،

فيأتون موسى : فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله ، اصطفاك الله برسالاته
 وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟
 فيقول لهم موسى : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب
 بعده مثله ، وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها ، نفسي نفسي / نفسي نفسي / ، اذهبوا
 الى غيري ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول
 الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، قال : هكذا هو ، وكلمت الناس في المهد ،
 فاشفع اننا الى ربك ، ألا ترى / الى / ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم
 عيسى : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده
 / مثله ولم يذكر له ذنبا / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم ،
 فيأتوني ، فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، غفر الله لك ذنبك ،
 ما تقدم منه وما تأخر ، فاشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد
 بلغنا ؟ فأقوم ، فأتي تحت العرش ، فأقع ساجدا لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ
 ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، فيقال : يا محمد ،
 ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع متشفع ، فأقول : يا رب أمي أمي ، يا رب
 أمي أمي ، يا رب أمي أمي / ، فيقول : أدخل من أمتك من لا حساب عليه من
 الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب ، ثم قال :
 والذي نفسي بيده ، لما بين مصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، أو كما
 بين مكة وبصرى (١) . أخرجاه في « الصحيحين » بمعناه ، واللفظ للإمام أحمد .
 والعجب كل العجب ، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ،
 لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى ، في مأثي الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، كما
 ورد هذا في حديث الصّور (٢) ، فإنه المقصود في هذا المقام ، ومقتضى سياق أول

(١) صحيح ، وهو في « المسند » (٢ / ٤٣٥) بسند « الصحيحين » .

(١) يأتي ذكر خلاصته في الكتاب قريبا .

الحديث ، فان الناس إنما يستشفعون الى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم ، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه ، فإذا وصلوا الى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار . وكان مقصود السلف - في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث - هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم ، فيما ذهبوا اليه من البدعة المخالفة للأحاديث . وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور ، ولولا مخوف الإطالة لسقته بطوله ، لكن من مضمونه : أنهم يأتون آدم ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم يأتون رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له الفحص ، فيقول الله : ما شأنك ؟ وهو أعلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقول : يا رب ، وعدتني الشفاعة ، فشفعني في خلقك ، فأقض بينهم ، فيقول سبحانه وتعالى : شفعتك ، أنا آتيكم فأقضي بينهم ، قال : فأرجع فأقف مسع الناس ، ثم ذكر انشقاق السموات ، وتنزل الملائكة في الغمام ، ثم يجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح ، قال : فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه ، ثم يقول : إني أنصت لكم منذ خلقكم الى يومكم هذا أسمع أقوالكم ، وأرى أعمالكم ، فأنصتوا إليّ ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجسه خيراً فليحمد الله ، ومن وجده غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، الى أن قال : فإذا أفضى أهل الجنة الى الجنة ، قالوا : من يشفع لنا الى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم ، إنه خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، / وكلمه / قبله ، فيأتون آدم ، فيطلبون (١) ذلك إليه ، وذكر نوحاً ، إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ثم محمداً صلى الله عليه وسلم ... الى أن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) في الاصل : فيطلب :

« فَأَتَى الْجَنَّةَ ، فَاتَّخَذَ بِحُلْقَةِ الْبَابِ ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ ، فُيَفْتَحَ لِي ، فَأُحْيَا وَيَرْحَبُ لِي ، فَإِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا ، فَيَأْذَنُ لِي مِنْ عَمَلِهِ وَتُحْمِجِيهِ بِشَيْءٍ مَا أُذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ لِي : ارْفَعْ يَا مُحَمَّدُ ، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ ، وَاسْأَلْ تَعْطَى ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي ، قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ - : مَا شَأْنُكَ ؟ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ : وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ ، فَشَفَعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قَدْ شَفَعْتُكَ ، وَأُذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ » (١) ، الْحَادِيثُ . رَوَاهُ الْأَثَمَةُ : ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَالطَّبْرَانِيُّ ، وَأَبُو يَعْلَى الْمُوَصِّلِيُّ ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرُهُمْ .

النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار ، أن لا يدخلونها .

النوع الرابع : شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم . وقد وافقت المجترة على هذه الشفاعة خاصة ، وخالفوا فيما عداها من المقامات ، مع تواتر الأحاديث فيها .

النوع الخامس : الشفاعة في أقوام أن يدخلوا (٢) الجنة بغير حساب ، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن ، حين دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب (٣) ، والحديث

(١) ضعيف ، أخرجه ابن جرير في تفسيره كما ذكر الشارح . (٢/٣٣٠-٣٣١) د
(٢/٣٠ ، ١٨٦-١٨٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، وإسناده ضعيف لأنه من طريق اسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن أبي زياد وكلاهما ضعيف بسندهما عن رجل من الأنصار ، وهو مجهول لم يسم ، وقول الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/٢٤٨ ، ٦٣/٤) أنه حديث مشهور ، لا يستلزم صحته كما لا يخفى على أهل العلم .

(٢) في الأصل : يدخلون بدل يدخلوا .

(٣) صحيح ، متفق عليه ، وهو الذي فيه قوله صلى الله عليه وسلم : « سبقتك بها عكاشة » .

مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

النوع السادس : الشفاعة في تخفيف العذاب غمّن يستحقّه ، كُشفاعته في غمّه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه (١) . ثم قال القرطبي في « التذكرة » بعد ذكر هذا النوع : فإن قيل : فقد قال تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) المدثر : ٤٨ : قيل له : لا تنفعه في الخروج من النار ، كما تنفع عصاة الموحدين ، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

النوع السابع : شفاعته ان يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، كما تقدم وفي « صحيح مسلم » عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أول شفيع في الجنة » (٢) .

النوع الثامن : شفاعته في أهل الكبائر من أمته ، ممن دخل النار ، فيخرجون منها ، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة فخالفوا في ذلك ، جهلاً منهم بصحة الأحاديث ، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته . وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً . وهذه الشفاعة تتكرر منه صلى الله عليه وسلم أربع مرات . ومن أحاديث هذا النوع ، حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » (٣) . رواه الإمام أحمد رحمه الله . وروى البخاري رحمه الله في كتاب « التوحيد » : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزي ، قال : اجتمعنا ، ناس من أهل البصرة ، فذهبنا إلى أنس بن مالك ، وذهبنا معنا بثابت / البناني إليه / ، يسأله لنا عن حديث الشفاعة ، فإذا هو في قصره ، فوافقناه يصلي الضحى ، فاستأذنا ، فأذن لنا وهو قاعد على

(١) صحيح ، رواه مسلم ، وقد خرجته في « الأحاديث الصحيحة » .

(٢) صحيح ، واحد أيضاً (٣ / ١٤٠) .

(٣) صحيح ، وله طرق وشواهد .

فأرأسه ، فقلنا لثابت : لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة ، / فقال : يا أبا حمزة ، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة ، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة / فقال : حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : إذا كان يوم القيامة ، ماج الناس بعضهم في بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : لست لها ولكن عليكم إبراهيم ، فإنه خليل الرحمن ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم موسى ، فإنه كلم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم عيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد / صلى الله عليه وسلم / ، فيأتوني ، فأقول : أنا لها ، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، ويأمرني محمد أحمد بهما ، لا تحضرني الآن ، فأحمد بتلك الحمد ، وأخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج / منها / من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنتلق فأفعل ، ثم أعود فأحمد بتلك الحمد ، ثم أخرج له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج / منها / من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنتلق فأفعل ، ثم أعود بتلك الحمد ، ثم أخرج له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، أمتي أمتي ، فيقول : انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان ، فأخرجه من النار ، فأنتلق فأفعل . قال : فلما خرجنا من عند أنس ، قلت / لبعض أصحابنا / لو مررنا بالحسن ، وهو متوار في منزل أبي خليفة ، فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك ، فأتيناه ، فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد ، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة ، فقال : هيه ؟ فحدثناه بالحديث ، فانتهى إلى هذا الموضع ، فقال : هيه ؟ فقلنا لم يزد لنا على هذا ، فقال : لقد حدثني وهو جميع ، منذ عشرين سنة ، فما أدري ، أنسي أم كره أن تتكلموا ؟

فقلنا : يا أبا سعيد ، فحدثنا ، فضحك وقال : خلق الإنسان عجولاً ! ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم ، حدثني كما حدثكم / به / ، قال : ثم أعود الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرج له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، ائذن لي فيمن قال : لا إلا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي ، وكبريائي وعظمتي ، لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله « (١) . وهكذا رواه مسلم . وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » (٢) . وفي « الصحيح » من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً ، قال : « فيقول الله تعالى : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرخص الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط » (٣) ، الحديث .

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال : فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم : يجعون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا . والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبيينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر . وأما أهل السنة والجماعة ، فيقرون بشفاعة نبيينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً ، كما في الحديث الصحيح ، حديث الشفاعة : « إنهم يأتون آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فيقول لهم عيسى عليه السلام : اذهبوا

(١) صحيح .

(٢) موضوع ، رواه ابن ماجه (٤٣١٣) والعقيلي في « الضعفاء » (ص ٣٣١) في ترجمة عنبسة بن عبد الرحمن القرشي وقال « لا يتابع عليه » وروي عن البخاري انه قال : تركوه . وقال ابو حاتم : كان يضع الحديث .

(٣) صحيح . أخرجه مسلم (١ / ١١٥ - ١١٦) وأحمد (٣ / ٩٤) ؛

الى مجد ، فإنه عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني ، فأذهب ، فإذا رأيت ربي خرت له ساجداً ، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي ، لا أحسنها الآن ، فيقول : أي مجد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فأقول : ربي : أمي فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة ، ثم انطلق فأسجد ، فيحد لي حداً (١) ذكرها ثلاث مرات .

وأما الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره في الدنيا الى الله تعالى في الدعاء ، ففيه تفصيل : فإن الداعي تارة يقول بحق نبيك أو بحق فلان ، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته ، فهذا محذور من وجهين : أحدهما : أنه أقسم بغير الله . والثاني : اعتقاده أن لأحد على الله حقاً . ولا يجوز الجلف بغير الله ، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه ، كقوله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) الروم : ٤٧ . وكذلك ما ثبت في « الصحيحين » من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه ، وهو رديفه : « يامعاذ ، أتدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم » (٢) . فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعدده الصادق ، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير ، وحقهم الواجب بوعدده هو أن لا يعذبهم ، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به ، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به ، لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً ، وكذلك الحديث الذي في « المسند » من حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قول الماشي الى الصلاة : « أسألك بحق ممشي هذا ، وبحق السائلين

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

عليك « (١) ، فهذا حق السائلين ، هو اوجبه على نفسه ، فهو الذي احق للسائلين ان يجيبهم ، وللعابدين ان يثيبهم ، ولقد احسن القائل :

ما للعباد عليه حق واجب كلا ، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعده ، او نعموا فبفضله وهو الكريم السامع

فإن قيل : فأبي فرق بين قول الداعي : « بحق السائلين عليك » وبين قوله : « بحق نبيك » او نحو ذلك ؟ فالجواب : ان معنى قوله : « بحق السائلين عليك » أنك وعدت السائلين بالإجابة ، وأنا من جملة السائلين ، فأجب دعائي ، بخلاف قوله : « بحق فلان - فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق - فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل . فكأنه يقول : لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي ! وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة ؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء . وقد قال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين) الاعراف : ٥٥ . وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة ، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن الصحابة ، ولا عن التابعين ، ولا عن احد من الأئمة رضي الله عنهم ، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطريقة . والدعاء من افضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع ، لا على الهوى والابتداع .

وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان ، فذلك محذور أيضا ، لأن الإقسام بالمخلوق لا يجوز ، فكيف على الخالق ؟ ! وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد اشرك » (٢) . ولهذا قال ابو حنيفة وصاحبه رضي الله عنهم :

(١) ضعيف ، وقد فصلت القول في ذلك في « ساسة الاحاديث الضعيفة » (رقم ٢٤) .

(٢) صحيح ، رواه احمد والترمذي والحاكم وصححه .

يُكره أن يقول الداعي : اسألك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام ، والمشعر الحرام ، ونحو ذلك . حتى كره أبو خنيفة ومجد رضي الله عنهما أن يقول الرجل : اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك ، ولم يكرهه أبو يوسف رحمه الله لما بلغه الأثر فيه . وتارة يقول : بجاه فلان عندك ، أو يقول : نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك . ومراده أن فلاناً عندك ذو جاهة وشرف ومنزلة فأجب دعائنا . وهذا أيضاً محذور ، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لفعلوه بعد موته ، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه ، يطلبون منه أن يدعو لهم ، وهم يؤمنون على دعائه ، كما في الاستسقاء وغيره . فلما مات صلى الله عليه وسلم قال عمر رضي الله عنه - لما خرجوا يستسقون - : اللهم إنا كنا إذا اجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا . معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ، ليس المراد أنا نقسم عليك / به / ، أو نسألك بجاهه عندك ، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي صلى الله عليه وسلم أعظم وأعظم من جاه العباس .

وتارة يقول : باتباعي لرسولك ومحبي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصليني لهم ، ونحو ذلك . فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع . فاللفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه لإجمال ، غلط بسببه (١) من لم يفهم معناه : فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً ، وهذا في حياته يكون ، أو لكون الداعي محباً له ، مطيعاً لأمره ، مقتدياً به ، وذلك أهل للمحبة والطاعة والافتداء ، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيطة وشفاعته ، وإما بمحبة السائل واتباعه ، أو يراد به الأقسام به والتوسل بذاته ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه . وكذلك السؤال بالشيء ، قد يراد به التسبب به ، لكونه سبباً في حصول المطلوب ، وقد يراد / به / الأقسام به .

(١) في الاصل : بتسببه .

ومن الأول : حديث الثلاثة الذين أُووا إلى الغار ، وهو تخذيث مشهور في « الصحيحين » وغيرهما ، فإن الصخرة انطبقت عليهم ، فتوسلوا إلى الله بذلك أعمالهم الصالحة الخالصة ، وكل واحد منهم يقول : فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون (١) . فهوؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال ، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ، ويتوجه به إليه ، ويمسأله به ، لأنه وعده أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .

فالحاصل أن الشفاعة عند الله / ليست / كالشفاعة عند البشر ، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعة (٢) في الطالب ، بمعنى أنه صار شفيعاً فيه بعد أن كان وترأ ، فهو أيضاً قد شفيع المشفوع إليه ، وبشفاعته (٣) صار فاعلاً للمطلوب ، فقد شفيع الطالب والمطلوب منه ، والله تعالى وتر ، لا يشفعه أحد ، / فلا يشفع عنده أحد / إلا بإذنه ، فالأمن كله إليه ، فلا شريك له بوجه . فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، / واسأل تعطه / ، واشفع تشفع » ، فيحده له حداً فيدخلهم الجنة ، فالأمر كله لله . كما قال تعالى : (قل إن الأمر كله لله) ، آل عمران : ١٥٤ . وقال تعالى : (ليس لك من الأمر شيء) آل عمران : ١٢٨ . وقال تعالى : (ألا له الخلق والأمر) :

فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء ، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء » (٤) . وفي « الصحيح » : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا بني

(١) صحيح ، متفق عليه .

(٢) في الاصل : شفيع .

(٣) في الاصل : فبشفاعته .

(٤) صحيح ، متفق عليه .

عبد مناف ، لأملك لكم من الله شيء ، يا صفيّة يا غمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لأملك لك من الله شيء ، يا عباس عم رسول الله ، لأملك لك من الله شيء » (١) :
 وفي « الصحيحين » أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لألفين أحدكم يأتي يوم
 القيامة على رقبته بغير له رمضاء ، أو شاة لها يعار ، أو رقاع تحفّق ، فيقول : أغثني
 أغثني ، فأقول : قد أبلغتك ، لأملك لك من الله من شيء » (٢) . فإذا كان سيد
 الخلق وفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به : « لا أملك لكم من الله من شيء »
 فما الظن بغيره ؟ وإذا دعاه الداعي ، وشفّع عنده الشفيّع ، فسمع الدعاء ، وقبل
 الشفاعة ، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق ، فإنه سبحانه
 / وتعالى / هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي
 وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء
 ثم أجابه . وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وإن الله خالق
 كل شيء .

قوله : (والميثاق الذي أخذ الله تعالى من آدم وذريته حق) .

ش : قال تعالى : (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم
 وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا
 كنا عن هذا غافلين) الأعراف : ١٧٢ . أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم
 من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم وأنه لا إله إلا هو . وقد
 وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب
 اليمين وإلى أصحاب الشمال ، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم :

فنها : مارواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله

(١) صحيح ، أخرجه مسلم (١ / ١٣٣) بآتم منه .

(٢) صحيح ، أخرجه البخاري (٢ / ٢٦٦) ومسلم :

عليه وسلم ، قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنسحمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراًها ، فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلاً ، قال : أأست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . . . الى قوله : المبطلون » (١) . ورواه النسائي ايضاً ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في « المستدرک » ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وروى الإمام أحمد ايضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انه سئل عن هذه الآية ، فقال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها ، فقال : ان الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / إن الله عز وجل / اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة ، حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة ، فيدخل / به الجنة ، واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار ، حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار فيدخل به النار » (٢) . ورواه ابو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن حبان في « صحيحه » .

وروى الترمذي عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله آدم مسح على ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل انسان منهم وبيصا من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : اي رب ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم ، فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، قال : / رب / ، كم عمره ؟ قال :

(١) صحيح ، لطرقه وشواهده .

(٢) صحيح لغيره .

ستون سنة ، قال : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى (١) عمر آدم جاء ملك الموت ، قال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال فجهل ! فجهل ! فحدث ذريته ، ونسي آدم ، فنسيت ذريته ، وخطى آدم ، فخطيت ذريته » (٢) . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، قال : فيقول : قد اردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي شيئاً » (٣) . وخرجاه في « الصحيحين » أيضاً .

وذكر احاديث أخرى أيضاً كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل النار وأهل الجنة . ومن هنا قال من قال : إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد . وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح الأجساد (٤) سبقاً مستقراً ثابتاً ، وغايتها أن تدل على أن باريها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدر خلقها واجلها وعملها ، واستخرج تلك الصور من مادتها ، ثم أعادها اليها ، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له ، ولا يدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد ثم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة ، كما قاله ابن حزم . فهذا لا تدل الآثار عليه . نعم ، الرب سبحانه يخلق

(١) في الأصل : قضى .

(٢) حسن .

(٣) صحيح ، متفق عليه ، وهو في « المسند » (٣ / ١٢٧ ، ١٢٩)

(٤) في الأصل : أو الأجساد .

منها جملة بعد جملة ، / كما قاله / على الوجه الذي سبق به التقدير (١) اولا ، فيجزي الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق ، كشأنه سبحانه في جميع مخلوقاته ، فإنه قدر لها اقداراً وآجالاً وصنعات وهيآت ، ثم ابرزها الى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق . فالآثار المروية في ذلك إنما تدل على القدر السابق ، وبعضها يدل على انه سبحانه استخرج امثالهم وصورهم وميز اهل السعادة من اهل الشقاوة . واما الإشهاد عليهم هناك ، فإنما هو في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر رضي الله عنهما . ومن ثم قال قائلون من الساف والخالف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم (٢) على التوحيد ، كما تقدم / كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة / في حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ومعنى قوله (شهدنا) : اي قالوا : بلى شهدنا انك ربنا . وهذا قول ابن عباس وأبي كعب . وقال ابن عباس ايضاً : اشهد بعضهم على بعض . وقيل : (شهدنا) من قول الملائكة ، / و / الوقف على قوله (بلى) . وهذا قول مجاهد والضحاك والسدي . ايضاً : هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته انهم شهدوا على إقرار بني آدم . والاول اظهر ، وما عداه احتمال لادليل عليه ، وإنما يشهد ظاهر الآية للأول .

واعلم ان من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على انفسهم بما اعادهم ، كالشعبي والبغوي وغيرهما ، ومنهم من لم يذكره ، بل ذكر انه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ١٤٩ ووحدانيتها وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم ، كالزمخشري وغيره ، ومنهم من ذكر القولين ، كالواحدي والرازي والقرطبي وغيرهم ، لكن نسب الرازي القول الاول الى اهل السنة ، والثاني الى المعتزلة . ولا ريب ان الآية لا تدل على القول الأول ، اعني ان الأخذ كان من ظهر آدم ، وإنما فيها ان الأخذ من ظهور بني آدم والإشهاد

(١) في الاصل : التدبير .

(٢) في الاصل : فطرتهم .

عليهم هناك في بعض الأحاديث ، وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار ، كما في حديث عمر رضى الله عنه ، وفي بعضها الأخذ وإراء آدم اياهم من غير قضاء ولا إشهداد ، كما في حديث أبي هريرة . والذي فيه الإشهداد - على الصفة التي قالها اهل القول الاول - موقوف على ابن عباس وعمر ، وتكلم فيه اهل الحديث ، ولم يخرج احد من اهل الصحيح غير الجاهل في «المستدرک على الصحيحين» والجاهل بمعروف التساهل رحمه الله .

والذي فيه القضاء بأن بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار دليل على مسألة القدر . وذلك شواهد كثيرة ، ولا نزاع فيه بين اهل السنة ، وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون .

وأما الأول : فالنزاع فيه بين اهل السنة من السلف والخلف ، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك ، وما قيل من الكلام عليها ، وما ذكر فيها من المعاني المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة .

قال القرطبي : وهذه الآية مشككة ، وقد تكلم العلماء في تأويلها ، فنذكر ما ذكره من ذلك ، حسب ما وقفنا عليه . فقال قوم : معنى الآية : أن الله اخرج من ظهر بني آدم بعضهم من بعض ، ومعنى (أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) الاعراف : ١٧٢ . دهم على توحيدده ، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً سبحانه وتعالى / قال : فقام ذلك مقام الإشهداد عليهم ، كما قال تعالى في السموات والأرض : (قالتا أتينا طائعين) ، ذهب الى هذا القفال واطنب . وقيل : انه / سبحانه وتعالى / أخرج الارواح قبل خلق الاجساد ، وانه جعل فيها من المعرفة ما عامت به ما خاطبها . ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك ، الى آخر كلامه . واقوى ما يشهد لصحة القول الاول : حديث أنس المخرج في «الصحيحين» ، الذي فيه : قد اردت منك ما هو أهون من ذلك ، قد اخذت

عليك في ظهر آدم ان لا تشرك بي شيئاً فأبیت الا ان تشرك بي (١). ولكن قدروي من طريق اخرى : قد سألتك اقل من ذلك وايسر فلم تفعل فيرد الى النار . وليس فيه : في ظهر آدم . وليس في الرواية الاولى إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها أصحاب القول الاول .

بل القول الأول يتضمن (٢) لأمرين عجيبين: أحدهما : كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان وانه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة . والثاني : أن الآية دلت على ذلك ، والآية لا تدل عليه لوجوه : أحدها : أنه قال : « من بني آدم » ، ولم يقل : من آدم ، الثاني : أنه قال : « من ظهورهم » ، ولم يقل : من ظهره ، وهذا يدل بعض ، او بدل اشتمال ، وهو احسن . الثالث : انه قال : « ذرياتهم » ولم يقل : ذريته ، الرابع : أنه قال : « وأشهدهم على انفسهم » ، ولا بد ان يكون الشاهد ذا كراً لما شهد به ، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار - كما تأتي الإشارة الى ذلك - لا يذكر شهادة قبله ، الخامس : أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة : (إنا كنا عن هذا غافلين) ، والحجة انما قامت عليهم بالرسـل والفطرة التي فطروا عليها ، كما قال تعالى : (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) النساء : ١٦٥ . السادس : تذكيرهم بذلك ، لئلا يقولوا يوم القيامة : (إنا كنا عن هذا غافلين) الاعراف : ١٧٢ ، ومعاًوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت ، فهذا لا يذكره أحد منهم ، السابع : قوله تعالى :

(١) صحيح ، وهو الذي قبله ، والرواية الاخرى عند مسلم (٨ / ١٣٤ ، ١٣٥) وكذا البخاري (٤ / ٢٣٩) ولا منافاة بينها وبين التي قبلها ، لان زيادة الثقة مقبولة كما لا يخفى ، وفي هذا الحديث زيادات اخرى وقد جمعتها في الحديث وخرجته في المائة الثانية من « سلسلة الاحاديث الصحيحة » .

(٢) في الاصل : يتضمن .

(أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل ونحن ذرية من بعدهم) الأعراف : ١٧٣ ،
 فذكر حكمتين في هذا الإلهاد (١) : لئلا يدعوا الغفلة ، أو يدعوا التقاليد ، فالغافل
 لا شعور له ، والمقلد متبع في تقليده لغيره . ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما
 قامت به الحجة من الرسل والفطرة . الثامن : قوله : (أفئذهلكنا بما فعل المبطلون)
 الأعراف : ١٧٣ : أي توعدهم (٢) ببحودهم وشركهم لما قالوا ذلك ، وهو
 سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم ، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك
 القرى بظلم وأهلها غافلون ، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل .
 التاسع : أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه ، واحتج عليه بهذا في غير
 موضع من كتابه ، كقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن
 الله) لقمان : ٢٥ ، فهذه هي الحجة التي أشهدهم (٣) على أنفسهم بمضمونها ،
 وذكرتهم بها رساله ، بقولهم : (أي الله شك فاطر السموات والأرض) إبراهيم :
 ١٠ . العاشر : أنه جعل هذا آية ، وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لدلولها ،
 وهذا شأن آيات الرب تعالى . فقال تعالى : (وكذلك نفصل الآيات ولعلهم
 يرجعون) الأعراف : ١٧٤ ، وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل
 لخلق الله ، فما من مولود إلا يولد على الفطرة ، لا يولد مولود على غير هذه الفطرة ،
 هذا أمر مفروغ منه ، لا تبديل ولا تغيير . وقد تقدمت الإشارة إلى هذا .
 والله أعلم .

وقد تفتن لهذا ابن عطية وغيره ، ولكن هابوا مخالفة / ظاهر / تلك الأحاديث
 التي فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم . وكذلك
 حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدي في « شرح التأويلات » ورجح القول
 الثاني ، وتكلم عليه ومال إليه .

(١) في الاصل : الاخذ بالإلهاد .

(٢) في الاصل : لوعد بهم .

(٣) في الاصل : أشهد .

ولأشاك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري ، والشرك حادث طارئ ،
والأبناء تقلدوه (١) عن الآباء ، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن
مجرىنا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن ،
يقال لهم : أنتم كنتم معترفين (٢) بالصانع ، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له ، وقد
شهدتم بذلك على أنفسكم ، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا ،
قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على
أنفسكم) النساء : ١٣٥ . وليس المراد أن يقول : أشهد على نفسي بكذا ، بل من
أقر بشيء فقد شهد على نفسه به ، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذي شهدتم
به على أنفسكم إلى الشرك ؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة ،
تقليداً لمن لا حجة معه ، بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية ، فإن تلك لم يكن
عندكم ما يعلم به فسادها ، وفيه مصلحة لكم ، بخلاف الشرك ، فإنه كان عندكم من
المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فسادها وعدولكم فيه عن الصواب .

فإن الدين الذي يأخذه الصبي عن أبيه هو دين التربية والعادة ، وهو لأجل
مصاحبة الدنيا ، فإن الطفل لابد له من كافل ، وأحق الناس به أبواه ، ولهذا جاءت
الشريعة بأن الطفل مع (٣) أبيه على دينها في أحكام الدنيا الظاهرة ، وهذا الدين
لا يعاقبه الله عليه - على الصحيح - حتى يبلغ وتقوم عليه الحجة ، وحينئذ فعليه
أن يتبع دين العلم والعقل ، وهو الذي يعلم بعقله هو أنه دين صحيح ، فإن كان
آبأؤه مهتدين ، كيوسف الصديق مع آبائه ، قال : (واتبعنا ما آتاني إبراهيم
وإسحق ويعقوب) يوسف : ٣٨ ، وقال ليعقوب بنوه : (نعبد لك وإله آبائك
إبراهيم وإسماعيل وإسحق) البقرة : ١٣٣ ، وإن كان الآباء مخالفين الرسل ، كان

(١) في الاصل : يقلدون .

(٢) في الاصل : مقرون .

(٣) في الاصل : على .

عليه ان يشيع الرسل ، كما قال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) العنكبوت : ٨ ، الآية .

فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم ، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه ، فهذا اتباع هواه ، كما قال تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا على آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) البقرة : ١٧٠ . وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام ، يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب (١) ، وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة ، بل هو من مسلمة الدار ، لامسمة الاختيار ، وهذا إذا قيل له في قبره : من ربك؟ قال : هاه هاه ، لأدري ، سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته .

فليتأمل اللبيب هذا المحل ، ولينصّح نفسه ، وليقيم معه ، ولينظر من أي الفريقين هو؟ والله الموفق ، فإن توحيد الربوبية لا يحتاج الى دليل ، فإنه مر كوزني الفطر . وأقرب ما ينظر فيه المرء (٢) أمرُ نفسه لما كان نطفة ، وقد خرج من بين الصلب والترائب / والترائب / : عظام الصدر (٣) ، ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين ، في ظلمات ثلاث ، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق ، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق ، واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدرُوا . ومحال توهم عمل الطبائع فيها ، لأنها دوات عاجزة ، ولا توصف بحياة ، ولن يتأتى من الموات فعل وتدبير ، فإذا تفكر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال الى حال ، علم بذلك توحيد الربوبية ، فانتقل منه الى توحيد الإلهية . فإنه اذا علم بالعقل أن له رباً اوجده ، كيف يليق به ان يعبد غيره ؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقيناً وتوحيداً ، والله الموفق ، لارب غيره ، ولا إله سواه .

(١) في الاصل : مذهبه .

(٢) في الاصل : من :

(٣) في الاصل : الصدور :

قوله : (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل غدد من يدخل الجنة ، وغدد من يدخل النار ، جماعة واحدة ، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه . وكذلك أفعالهم فيما علم منهم ان يفعلوه) .

ش : قال الله تعالى : (إن الله بكل شيء عليم) الانفال : ٧٥ . (وكان الله بكل شيء عايماً) الأحزاب : ٤٠ . فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلاً وأبداً ، لم يتقدم عامه بالأشياء جهالةً . وما كان ربك نسياً . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعده وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : دامن نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ، قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة . ثم قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) (١) خرجاه في « الصحيحين » .

قوله : (وكل ميسر لما خلق له ، والأعمال بالخواتيم ، والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله) .

ش : تقدم حديث علي رضي الله عنه وقوله صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ، وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر ابن عبد الله رضي الله

(١) صحيح ، متفق عليه .

عنهما ، قال : جاء سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال : يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأننا خائفنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، / أم فيما يستقبل ؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، / قال : ففيم العمل ؟ / قال زهير : ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه ، فسألت : ما قال ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر (١) . رواه مسلم . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » (٢) ، أخرجاه في « الصحيحين » وزاد البخاري : وإنما الأعمال بالخواتيم . وفي « الصحيحين » أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق - : « إن أحداكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً / نقطة / ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل / إليه / الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره ، إن أحداكم ليعمل بعمل / أهل / الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحداكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (٣) . والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وكذلك الآثار عن السلف . قال أبو عمر بن عبد البر في « التمهيد » : قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب ، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه ، وأهل السنة مجتمعون / على الإيمان / بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها ، وبالله العصمة والتوفيق :

(١) صحيح ، مسلم في « القدر » (٨ / ٤٨) وأحمد أيضاً (٣ / ٢٩٢ - ٢٩٣) .

(٢) صحيح ، متفق عليه .

(٣) صحيح ، متفق عليه .

وقوله : (وأصل القدر سر الله تعالى في خاقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالقدر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مراامه ، كما قال تعالى في كتابه : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) الانبياء : ٢٣ . فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) .

ش : أصل القدر سر الله في خاقه ، وهو كونه أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى ، وأمات وأحيا ، وأضل وهدى . قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه : القدر سر الله فلا نكشفه . والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور .

والذي عليه أهل السنة والجماعة : أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد . قال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) القمر : ٤٩ . وقال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) الفرقان : ٢ . وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ، ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه ، فيشاؤه كوناً ، ولا يرضاه ديناً ،

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة ، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ، ولكن الكافر شاء الكفر ، فردوا الى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه ! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار ! فإنهم هربوا من شيء وقعوا فيما هو شر منه ! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى ، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قلوبهم - والكافر شاء الكفر ، ف وقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى !! وهذا من أقبح الاعتقاد ، وهو قول لا دليل عليه ، بل هو مخالف للدليل .

وأما الأدلة من الكتاب والسنة : فقد قال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) السجدة : ١٣ . وقال تعالى : ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس : ٩٩ . وقال تعالى : (وما تشاؤون إلا

أن يشاء الله رب العالمين (التكوير : ٢٩ .) وما تشاؤون إلا أن يشاء الله . إن الله كان عليماً حكيماً (الدهر : ٣٠ . وقال تعالى : (من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجمعه على صراط مستقيم) الانعام : ٣٩ . وقال تعالى : (فمن يرد الله أن يضلله لا يجزئ) صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء (الانعام : ١٢٥ .

ومنشأ الضلال : من التسوية بين المشيئة والإرادة ، وبين المحبة والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا : فقالت الجبرية : الكون كله بقضائه وقدره ، فيكون محبوباً مرضياً . وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدره ولا مقضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه . وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة . أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب ، فقد تقدم ذكر بعضها . وأما نصوص المحبة والرضى ، فقال تعالى : (والله لا يحب الفساد) البقرة : ٢٠٥ . (ولا يرضى لعباده الكفر) الزمر : ٧ . وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر : (كل ذلك كان سيئاً عند ربك مكروهاً) الاسراء : ٣٨ . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » (١) . وفي « المسند » : إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته (٢) . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ برضالك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » (٣) . فتأمل ذكر / استعاذته / بصفة الرضا من صفة السخط ، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ، فالأول الصفة ، والثاني أثرها المرتب عليها ، ثم ربط ذلك كله بذاته

(١) صحيح متفق عليه ، البخاري في « الاستقراض » ومسلم في « الاقضية » .

(٢) صحيح . رواه احمد وغيره بسند صحيح .

(٣) صحيح .

سبحانه ، وأن ذلك كله راجع إليه وحده / لا إلى غيره / ، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك ، وما أعوذ به من رضاك ومخافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ، ان شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه ، وان شئت أن تغضب عليه وتعاقبه ، فأعاذني مما أكره ومنعه أن يحل بي ، هي بمشيئتك أيضاً ، فال محبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك ، فعياذني (١) بك منك ، وعياذني (١) بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك فلا ، / أستعين / بغيرك من غيرك ولا أستعين بك من شيء صادر عن غير مشيئتك ، بل هو منك . فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفته عبوديته .

فإن قيل : كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكرهه ؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكرهه ؟ قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً ، وتباينت طرقهم وأقوالهم . فاعلم أن المراد نوعان : مراداً لنفسه ، ومراد لغيره ، فالمراد لنفسه ، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير . فهو مراد لإرادة الغايات والمقاصد : والمراد لغيره ، قد لا يكون مقصوداً لما يريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما . وهذا كالدواء الكريه ، إذا علم المتناول له أن فيه شفاء ، وقطع العضو المتأكل ، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في إثارة هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب ، وان خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية . فهو سبحانه يكره الشيء ، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً إلى امر هو أحب إليه من فوقه . من ذلك : انه خالق إبليس ، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ،

(١) في الاصل : وعياذني .

وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، وغمهم بما يغضب الرب / سبحانه / ثبارك
وتعالى ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه . ومع هذا فهو وسيلة
إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، ووجودها أحب إليه من عدمها .
منها : أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق
هذا الذات ، التي هي اخبث الذوات وشرها ، وهي سبب كل شر ، في مقابلة ذات
جبرائيل ، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها ، وهي مادة كل خير ،
فتبارك خالق هذا وهذا . كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ، والدواء والداء
والحياة والموت ، والحسن والقيح ، والخير والشر . وذلك من أدل دليل على كمال
قدرته وعزته وملكه وسلطانه ، فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابلها بعضها ببعض
وجعلها محالاً تصرفه وتديره . فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته
وكمال تصرفه وتديره ملكه . ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية ، مثل : القهار ،
والمنتقم ، والعدل ، والضرار ، والشديد العقاب ، والسريع العقاب ، وذو البطش
الشديد ، والخافض ، والمذل . فإن هذه الأسماء والأفعال كمال ، لا بد من وجود
متعلقها ، وأو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء .
ومنها : ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه
وعتقه لمن شاء من عباده ، فلو لا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور
آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم
إلى هذا بقوله : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون
فيغفر لهم » (١) . ومنها : ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه الحكيم الخبير ،
الذي يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير
موضعه ، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته . فهو أعلم
حيث يجعل رسالاته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ، وأعلم بمن

(١) صحيح ، أخرجه مسلم :

لأيصال ذلك . فلو قدر عدم الأسباب المكروهة ، لتعطلت حكم كثيرة ، ولفأثت مصالح عديدة ، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر ، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح ، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر ، ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه . ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وثوابها من الموالاة لله سبحانه / وتعالى / والمعاداة فيه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى ، وعبودية التوبة والاستغفار ، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه . إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها .

وقوله : والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان . إلى آخره - التعمق : هو المبالغة في طلب الشيء ، والمعنى : أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان . الذريعة : الوسيلة . والذريعة والدرجة والسلم - متقاربة المعنى ، وكذلك الخذلان والخردان والطغيان متقاربة المعنى أيضا ، لكن الخذلان في مقابلة النصير ، والخردان في مقابلة الظفر ، والطغيان في مقابلة الاستقامة .

وقوله : فالخذر كل الخذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة . عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ؟ قال / وقد / وجدتموه ؟ / قالوا : نعم / ، قال : ذلك صريح الإيمان (١) . رواه مسلم ، الإشارة بقوله : « ذلك صريح الإيمان » إلى تعاظم أن يتكلموا به . ولمسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) صحيح ، أخرجه مسلم ، وقد جمعت طرقه ، وذكرت الفاظه في « الأحاديث

الصحيحة » رقم (١١٥) :

وسلم عن الوسوسة ؟ فقال : تلك محض الإيمان (١) . وهو (٢) بمعنى حديث أبي هريرة ، فإن وسوسة النفس او مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين ، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان . هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان . ثم خلف من بعدهم خلف ، سودوا الأوراق بتلك الوسواس ، التي هي شكوك وشبه ، بل وسودوا القلوب ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، ولذلك اطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه . وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابغض الرجال الى الله الألد الخصم » (٣) . وقال الإمام أحمد حدثنا ابو معاوية حدثنا داود بن ابي هند عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر ، قال : فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، قال : فقال / لهم / : ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ به - هذا هلك من كان قبلكم . قال : فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم اشهده ، بما غبطت نفسي بذلك المجلس ، اني لم اشهده (٤) . ورواه ابن ماجه ايضا . وقال تعالى : (فاستمتم بخلقكم كما استمتم الذين من قبلكم بخلقهم وخضتم كالذي خاضوا) التوبة : ٦٩ ، الخلاق : النصيب ، قال تعالى : (وما له في الآخرة من خلاق) البقرة : ٢٠٠ ، اي استمتم ببنصيبكم كما استمتم الذين من قبلكم بنصيبهم وخضتم كالذي خاضوا ، أي كالخوض الذي خاضوه ، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا : وجمع سبب حانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض ، لأن فساد الدين إما في العمل

(١) صحيح ، رواه مسلم .

(٢) في الاصل : فهو .

(٣) صحيح ، متفق عليه .

(٤) صحيح . رواه أحمد وغيره بسند جيد .

ولما في الاعتقاد ، فالأول من جهة الشهوات ، والثاني من جهة الشبهات . وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، قالوا : فارس والروم ؟ قال : فمن الناس إلا أولئك» (١) . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأتين على أمتي ما أتي على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي » (٢) . رواه الترمذي . وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تفرقت / اليهود / على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى مثل ذلك ، وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » (٣) . رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الكتابين افرقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة (٤) . يعني الأهواء ، كلها (٥) في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة . وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر . وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع . وقوله : فمن سأل : لم فعل ؟ فقد ردّ حكم الكتاب ، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين :

(١) صحيح ، أخرجه البخاري .

(٢) ضعيف بهذا السياق :

(٣) صحيح :

(٤) صحيح :

(٥) في الاصل : كلهم :

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورساله - على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع . ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبأمرها عن ربها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت وأذعنت ، وما عرفت من الحكمة عرفته ، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته ، ولا جعلت ذلك من شأنها ، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك ، كما في الإنجيل : « يا بني إسرائيل لا تقولوا : لم أمر ربنا ؟ ولكن قولوا : بم أمر ربنا » ، ولهذا كان سلف هذه الأمة ، التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلومًا - لا تسأل نبيها : لم أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قدر كذا ؟ ولم فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام ، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم . فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ، ثم العزم الجازم على امتثاله ، ثم المسارعة اليه والمبادرة به ، / والحذر / عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعله لكونه مأمورًا ، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته - فإن ظهرت له فعله وإلا عطله ، فإن هذا ينافي الانقياد ، ويقدر في الامتثال . قال القرطبي ناقلًا عن ابن عبد البر : فن سأل مستفهمًا راغبًا في العلم ونفي الجهل عن نفسه ، باحثًا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه : فلا بأس به ، فشفاء العي السؤال . ومن سأل متعنتًا غير متفقه ولا متعلم ، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره . قال ابن العربي الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة ، وإيضاح سهل النظر ، وتحصيل مقدمات الاجتهاد ، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد . قال : فإذا عرضت نازلة أتيت من بابها ، ونشدت من مظانها ، والله يفتح وجه الصواب فيها . انتهى . وقال صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) . رواه

الترمذي وغيره . ولا شك في تكفير من رد حكم الكتاب ، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له ، بين له الصواب ليرجع اليه ، فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل ، لكمال حكمته ورحمته وعدله ، لا لمجرد قهره وقدرته ، كما يقول جهنم وأتباعه . وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ : ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحاه .

قوله : (فهذا جملة ما يحتاج اليه من هو منور^ر قلبه من أولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الايمان الا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود) :

ش : الإشارة بقوله : فهذا . / الى / ما تقدم ذكره ، مما يجب اعتقاده والعمل به ، مما (١) جاءت به الشريعة . وقوله : وهي درجة الراسخين في العلم . أي علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلاً ، نفيًا وإثباتًا . ويعني بالعلم المفقود ، علم القدر الذي طواه الله عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه . ويعني بالعلم الموجود ، علم الشريعة ، اصولها وفروعها ، فمن انكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافرين ، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين . قال تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً : إلا من ارتضى من رسول) الجن^٣ : ٢٦ - ٢٧ ، الآية وقال تعالى : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير) لقمان : ٣٤ . ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ، ولا من جهلنا انتفاء حكمته (٢) . ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات ، التي لا يعلم منها إلا

(١) في الاصل : متى :

(٢) في الاصل : ولا انتفاؤها جهلنا حكمته :

المضرة : لم ينف أن يكون الله تعالى خالقاً لها ، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا ، لأن عدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم .

قوله : (ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قدرقم) .

ش : قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) البروج : ٢١-٢٢ وروى الخافظ ابو القاسم الطبراني بسنده الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله خلق لوحاً محفوظاً ، من درة بيضاء ، صفحاتها ياقوتة حمراء ، قامه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمئة لحظة ، / وعرضه ما بين السماء والارض ، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمئة نظرة / ، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ، ويعز ويلذل ويفعل ما يشاء » (١) . اللوح المذكور هو الذي كتب الله المقادير الخلاق فيه ، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير ، كما في « سنن أبي داود » ، عن عبادة بن الصامت ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « / إن / اول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : يارب ، وما ذا / اكتب ؟

(١) ضعيف ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/١٦٥/٣) ، وفيه زياد بن عبد الله وهو البكائي عن ليث وهو ابن ابي سليم وكلاهما ضعيف ، وقد رواه (٢/٨٨/٣) من طريق أخرى نحوه عن ابن عباس موقوفاً عليه ، واسناده يحتمل التحسين ، فان رجاله كلهم ثقات غير بكير بن شهاب وهو الكوفي قال فيه ابو حاتم : « شيخ » ، وذكره ابن حبان في « الثقات » (٣٢/٢) :

(تنبيه) : كان الحديث محرفاً في مطبوعة احمد شاكر ، وكان هو صححه من « مجمع الزوائد » الذي أورد الحديث عن ابن عباس موقوفاً ، وصححناه نحن من حديثه المرفوع من « المعجم » وهو الصواب لأن المؤلف ساقه من الطريق المرفوعة فلا يصح تصحيح ما وقع فيه من التحريف من الطريق الموقوفة ، كما لا يخفى ، لاختلاف لفظيها ، كما أشرت الى ذلك بقولي : « نحوه » .

قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » (١) :

واختلف العلماء : هل القلم اول المخاوقات ، او العرش ؟ على قولين ، ذكرهما

(١) صحيح ، غير انني متوقف في صحة الحرف الذي استدلل به المؤلف وهو « فقال »
فقد جاء في بعض الروايات باللفظ : « ثم قال » ، فأخرجه ابو داود (٤٧٠٠) من
طريق ابي حفصة قال : قال عبادة بن الصامت فذكره باللفظ « فقال »

قلت : وابو حفصة اسمه حياش بن شريح الشامي لم يوثقه غير ابن حبان ،
وفي « التقريب » : « مقبول » يعني عند المتابعة ، والا فابن الحديث كما نص عليه
في المقدمة ، وقد توبع ، لكن الطريق الى المتابع لا يصح ، فقال الطيالسي : (٥٧٧)
حدثنا عبد الواحد بن سليم عن عطاء بن ابي رباح حدثني الوليد بن عبادة بن الصامت
عن ابيه به .. ومن طريق الطيالسي رواه الترمذي (٢٣٢/٢) وقال : « حديث
حسن غريب ، وفيه عن ابن عباس » .

قلت : وعبد الواحد هذا ضعيف كما في « التقريب » .

وقد خالفه ايوب بن زياد فقال : حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني
ابي به لكنه قال : « ثم قال اكتب : . . . »

وهذا أخرجه احمد (٣١٧/٥) وسنده حسن ، رجاله كلهم ثقات معروفون
غير زياد هذا ، وقد روى عنه جماعة ، ووثقه ابن حبان ، فهو حسن الحديث ان شاء
الله تعالى ، لكن قد أخرجه الآجري في « كتاب الشريعة » (ص ١٧٧) من طريقه
باللفظ « فقال له : اجر . . . » .

ورواه يزيد بن ابي حبيب عن الوليد بن عبادة به باللفظ : « ثم قال له اكتب » .
ورجاله ثقات غير ابن لهيعة فانه سيء الحفظ .
ويشهد له حديث ابي هريرة باللفظ :

« ان اول شيء خاق الله عز وجل القلم ، ثم خاق النون وهي الدواة ، ثم قال : =

الحافظ أبو العلاء الهمداني ، أصحهما : أن العرش قبل القلم ، لما ثبت في « الصحيح » من حديث عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، / قال / : وعرشه على الماء » (١) . فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم ، بحديث عبادة هذا . ولا يخلو قوله : « أول ما خلق الله القلم » إلخ - إما أن يكون جملة أو جملتين . فإن كان جملة ، وهو الصحيح ، كان معناه أنه عند أول خلقه قال له : « اكتب » ، / كما في اللفظ : « أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب / » بنصب « أول » و « القلم » ، وإن كان جملتين ، وهو مروي برفع

= اكتب ... الحديث.

رواه الآجري والواحدي في تفسيره (٢/١٥٧/٤) وفيه الحسن ابن يحيى الخشني ومختلف فيه ، وفي « التقريب » « صدوق كثير الغلط » . وبالجمل ، فالروايات في هذا الحرف مختلفة ، ولذلك فانه لا يتم للمصنف الاستدلال بالرواية الاولى على تقدم خلق العرش على القلم ، حتى يثبت ارجحيتها على الاخرى : « ثم قال ... » ، واذا كان لابد من الترجيح بينهما ، فالأخرى ارجح من الاولى لاتفاق اكثر الرواة عليها ، ولان لها شاهداً عن ابي هريرة كما تقدم ، ولانها تتضمن زيادة في المعنى ، وعليه فلا تعارض بين الحديث على هذه الرواية وبين حديث عبد الله بن عمرو ، لان حديثه صريح في ان الكتابة تأخرت عن خلق العرش ، والحديث على الرواية الراجحة صريح في ان القلم اول مخلوق ، ثم أمر بأن يكتب كل شيء يكون ، ومنه العرش ، فالارجح عندي ان القلم متقدم على العرش . والله اعلم .

وفي الحديث اشارة لطيفة الى الرد على من يقول من العلماء بمحوادث لا أول لها ، وأنه مامن بمخلوق الا وهو مسبوق بمخلوق وهكذا الى ما لا أول له ! فتأمل .

(١) صحيح وتقدم .

« أول » و « القلم » ، فيتعين حملهما على أنه أول المخاوقات من هذا العالم ، فيتفق الحديثان ، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر : « لما خلق الله القلم قال له : اكتب » فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير : إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى : (ن . والقلم وما يسطرون) القلم : ١ ، ٢ . والقلم الثاني : قلم الوحي : وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله ، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والأقلام كلها خدام لأقلامهم . وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم لله ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها ، أمر العالم العلوي والسفلي .

قوله : (فلو اجتمع الخاق كلهم على شيء كتب به الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلاه غير كائن - لم يقدرُوا عليه . ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ، ليجعلاه كائناً - لم يقدرُوا عليه . جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة) .

ش : تقدم حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : جاء سراق بن مالك بن جعشم ، فقال : يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأننا خلقتنا الآن ، فيم العمل اليوم ، أفما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما استقبل ؟ قال : « لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » (١) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كنت خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال : يا غلام ألا اعلمك كلمات : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء

(١) صحيح وتقدم .

« أول قلم » و « القلم » ، فيتعين حملهما على أنه أول المخاوقات من هذا العالم ، فيتمشق الحديثان ، إذ حديث عبدالله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر : « لما خلق الله القلم قال له : اكتب » فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير : إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى : (ن . والقلم وما يسطرون) القلم : ١ ، ٢ . والقلم الثاني : قلم الوحي : وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله ، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والأقلام كلها خدام لأقلامهم . وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم لله ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحى به الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها ، أمر العالم العلوي والسفلي .

قوله : (فلو اجتمع الخاق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلاه غير كائن - لم يقدرُوا عليه . ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ، ليجعلاه كائناً - لم يقدرُوا عليه . جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة) .

ش : تقدم حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : جاء سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال : يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ، أفما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما استقبل ؟ قال : « لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » (١) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كنت خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال : يا غلام ألا اعلمك كلمات : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء

(١) صحيح وتقدم .

لم يضر ولكم لا بشيء قد كتبه الله عليكم ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » (١)
رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وفي رواية غير الترمذي : « احفظ
الله تجده أمامك ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك
لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن
الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

وقد جاءت « الأقلام » في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة ، فدل ذلك على
أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول ، الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ .
والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة ، وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم (٢)
ذكره : القلم الأول : العام الشامل لجميع المخلوقات ، وهو الذي تقدم ذكره مع
اللوحة . القلم الثاني : خبر (٣) خلق آدم ، وهو قلم عام أيضاً ، لكن لبني آدم ، ورد
في هذا آيات تدل على أن الله قد راعى أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم
عقيب خلق أبيهم القلم الثالث : حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه ، فينفخ
فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي
أو سعيد (٤) . كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة . القلم الرابع : الموضوع على
العبد عند بلوغه ، الذي بأيدي الكرام الكاتبين ، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم ، كما
ورد في الكتاب والسنة .

وإذا علم العبد أن كلاماً من عند الله ، فالواجب لإفراده سبحانه بالخشية والتقوى ،
قال تعالى : (فلا تخشوا الناس واخشوا) المائدة : ٤٤ . (وإياي فارهبون)
البقرة : ٤٠ . (وإياي فاتقون) البقرة : ٤١ . (ومن يطع الله ورسوله ويخش
الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) النور : ٥٢ . (هو أهل التقوى وأهل المغفرة)
المدثر : ٥٦ . ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة . ولا بد لكل عبد أن يتقي أشياء ،

(١) صحيح لغيره . (٢) في الاصل : المتقدم .

(٣) في الاصل : حين . (٤) متفق عليه .

فإنه لا يعيش وحده ، ولو كان ملكاً مطاعاً فلا بد أن يتي أشياء يراعي بها رعيته .
 فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتي ، فإن لم يتي الله اتقى المخلوق ، والمخلوق لا يتفق
 حبهم كلهم وبغضهم ، بل الذي يريد هذا يبيغضه هذا ، فلا يمكن إرضاءهم
 كلهم ، كما قال الشافعي رضي الله عنه : رضي الناس غاية لا تدرك ، فعليك بالأمر
 الذي يصالحك فالزمه ، ودع ماسواه فلا تعانه . فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور ،
 وإرضاء الخالق مقدور (١) ومأمور . / و / أيضاً فالمخلوق لا يغني عنه من الله
 شيئاً ، فإذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس . كما كتبت عائشة الى معاوية ، روي
 مرفوعاً ، وروي موقوفاً عليها : من أَرْضَى الله بسخط الناس ، رضي الله عنه وأرضى
 عنه الناس ، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله ، عاد حامده من الناس / له / ذاماً (٢) .
 فمن أَرْضَى الله كفاه مؤنة الناس ورضي عنه ، ثم فيما بعد يرضون ، إذ العاقبة للتقوى ،

(١) في الاصل : مقدور .

(٢) صحيح ، رواه الترمذي (٦٧/٢) من طريق عبد الوهاب بن الورد عن رجل
 من أهل المدينة قال : كتب معاوية الى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي
 لي كتاباً وصيني فيه ، ولا تكثري علي ، فكتبت عائشة رضي الله عنها الى معاوية :
 سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس
 رضي الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضي الناس بسخط
 الله ، وكله الله الى الناس ، والسلام عليك » . ثم رواه من طريق هشام بن عروة عن
 أبيه عن عائشة انها كتبت الى معاوية فذكر الحديث بمعناه ، ولم يرفعه .

قالت : والمرفوع اسناده ضعيف لجهالة الرجل الذي لم يسم .

وأما الموقوف فسنده صحيح رجاله كلهم ثقات .

ورواه عثمان بن واقد عن أبيه عن محمد بن المنكدر عن عروة بن الزبير به
 مرفوعاً بلفظ :

« من التمس رضي الله بسخط الناس رضي الله عنه ، وأرضى عنه الناس ، ومن =

ويحبه الله فيحبه الناس ، كما في « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
إذا أحب الله العبد نادى : يا جبرائيل ، إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبرائيل ، ثم
ينادي جبرائيل في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع
له القبول في الأرض « (١) » ، وقال في البغض مثل ذلك . فقد بين أنه لا بد لكل
مخلوق من أن يتقي إما المخلوق ، وإما الخالق . وتقوى المخلوق ضررها راجح

= التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس .
رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (ق ٢/٤٢) ومشرق بن عبد الله في « حديثه »
(ق ٢/٦١) وابن عساكر (١/٢٧٨/١٥) :

قلت : وهذا سند حسن ، رجاله كلهم ثقات معروفون ، وفي عثمان ابن واقد
كلام لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن وفي « التقريب » : « صدوق ربما وهم » .
وروى بعضه ابن بشران في « الأمالي » (١٤٤/١٤٥) وابن الأعرابي في « معجمه »
(١/٨٢) وأبو القاسم المهراني في « الفوائد المنتخبة » (١/٢٣/٣) وابن شاذان
الأزجي في « الفوائد المنتقاة » (٢/١١٨/١) و « القضاعي » (٢/٤٢) عن قطبة
بن العلاء بن المنهال الغنوي ثنا أبي عن هشام بن عروة به بلفظ :
« من طلب محامد الناس بمعصية الله عاد حامده ذاماً » .

وقال المهراني :

« حديث غريب ، لأعلم رواه عن هشام غير العلاء بن المنهال » .
وروي عنه بلفظ :

« من التمس محامد الناس بمعاصي الله تعالى عاد حامده من الناس ذاماً له » .
رواه الخرائطي في « مساويء الاخلاق » (٢/٥/٢) والعقيلي في « الضعفاء »
(٣٢٥) وابن عدي في « الكامل » (ق ٢/٢٧٢) وأبو الحسن ابن الصلت في =
(١) صحيح متفق عليه .

على نفعها من وجوه كثيرة ، وتقوى الله هي التي يحصل بها (١) سعادة الدنيا والآخرة ، فهو سبحانه أهل التقوى ، وهو أيضاً أهل المغفرة ، فإنه هو الذي يغفر الذنوب ، لا يقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويحير من عذابها غيره ، وهو الذي يحير ولا يحار عليه . قال بعض السلف : «احتاج تقي قط ، لقوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق : ٢-٣ ، فقد ضمن الله للمؤمنين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس ، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خلافاً ، فليستغفر الله وليتب إليه ، ثم قال تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الطلاق : ٣ ، أي فهو كافيه ، لا يحوجه الى غيره .

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب ، وأن الأمور إذا كانت مقطرة فلا حاجة الى الأسباب ! وهذا فاسد ، فإن الاكتساب : منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ، كما قد عرف

= حديث ابن عبد العزيز الهاشمي (ق ١/٧٦) وقال العقيلي :

« العلاء بن المنهال لا يتابع عليه ، ولا يعرف إلا به » :

وقال ابن عدي : « وليس بالقوي » .

قلت : وأما ابن حبان فذكره في « الثقات » !

ثم قال العقيلي :

« ولا يصح في الباب مسند ، وهو موقوف من قول عائشة » :

قلت : الصواب عندي أن الحديث صحيح موقوف مرفوعاً ، أما الموقوف فظاهر

الصحة ، وأما المرفوع ، فلأنه جاء من طريق حسنة عن عثمان بن واقد كما تقدم ،

فاذا انضم إليه طريق الترمذي ارتقى الحديث ان شاء الله الى درجة الصحة :

(١) في الاصل : لها .

في موضعه. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أفضل المتوكلين ، يلبس لأمة الحرب ويمشي في الأسواق للاكتساب ، حتى قال الكافرون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) الفرقان : ٧ . ولهذا تجد كثيراً ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يزقون على يد من يعطيهم ، إما صدقة ، وإما هدية ، وقد يكون / ذلك / من مكاس ، أو والي شرطة ، أو نحو ذلك ، وهذا مبسوط في موضعه ، لا يسعه هذا المختصر . وقد تقدمت الإشارة الى بعض الأقوال التي في / تفسير / قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب) الرعد : ٣٩ ، وأما قوله تعالى : (كل يوم هو في شأن) الرحمن : ٢٩ - فقال البغوي . قال مقاتل : نزلت في اليهود حين قالوا : ان الله لا يقضي يوم السبت ! قال المفسرون : من شأنه أنه يحيي ويميت ، ويرزق ، ويعز قوماً ويذل آخرين ، ويشفي مريضاً ، ويفك عانياً ، ويفرج مكروباً ، ويجيب داعياً ، ويعطي سائلاً ، ويغفر ذنباً ، الى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء .

قوله : (وما اخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه) .

ش : هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة ، ولقد أحسن القائل حيث يقول :

ما قضى الله كائن لا محاله والشقي الجهول من لام حاله

والقائل الآخر :

اقنع بما ترزق يا ذا الفتى فليس ينسى ربنا ثم له
إن اقبل الدهر فقم قائماً وإن تولى مدبراً ثم له

قوله : (وعلى العبد ان يعلم ان الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ،
فقدّر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ، ليس فيه ناقص ، ولا معقب ولا مزيل ولا مغير
ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمواته وأرضه) .

ش : هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات ، وانه
قدر مقاديرها قبل خلقها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « قدر الله مقادير الخلق
قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة » ، وعرشه على الماء . فيعلم
ان الله قد علم ان الأشياء تصير موجودة لأوقاتها ، على ما اقتضته حكمته البالغة /
فكانت كما علم / . فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور
إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها . قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف
الخبير) الملك : ١٤ . وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل ، وقالوا : إن
الله تعالى لا يعلم أفعال العباد / حتى يفعلوا / ! تعالى الله عما يقولون عواً كبيراً .
قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ،
وإن أنكروا كفروا . فإن الله / تعالى / يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه
فيشيء ، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه ، فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة
وقد علم الله ذلك منه ، ومن لا يستطيع لأمره ولا يعذبه على ما لم يستطيعه .

وإذا قيل : فيأزم ان يكون العبد قادراً على تغيير علم الله ، لأن الله علم أنه
لا يفعل ، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله ؟ قيل : هذه مغالطة ، وذلك
ان مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم ، وإنما يظن من يظن تغيير العلم اذا
وقع الفعل ، ولو وقع الفعل اكان المعاووم وقوعه لاعدم وقوعه ، فيه تنع أن يحصل
وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه ، بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم
يقع كان الله قد علم انه لا يقع . ونحن لانعلم علم الله الا بما يظهر ، وعلم الله مطابق
للواقع ، فيجتنع ان يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم
والعبد الذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم ، / بل هو قادر على فعل لم يقع ، ولو
وقع لكان الله قد علم أنه يقع ، لا أنه لا يقع .

قوله : (وذلك من عقد (١) الإيمان وأصول المعرفة والأعتراف بشوحيده الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) الفرقان : ٢ . وقال تعالى : (وكان أمر الله قدرا مقدورا) الاحزاب : ٣٨ .

ش : الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها . قال صلى الله عليه وسلم في جواب السائل عن الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » (٢) . وقال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث : « يا عمر ، أتدري من السائل ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبرائيل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم .

وقوله : والاقرار بتوحيد الله وربوبيته ، أي لا يتم التوحيد والاقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى ، فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك ، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله ؟! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة ، وأحاديثهم في « السنن » . وروى أبو داود عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » (٣) . وروى أبو داود أيضاً عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوهم ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال » (٤) . وروى أبو داود أيضاً عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا تجالسوا أهل

(١) في الاصل : عقائد .

(٢) صحيح ، رواه مسلم عن عمر ، والبخاري ومسلم أيضاً عن أبي هريرة نحوه .

(٣) اسناده ضعيف ، لكن له طرق يتقوى بها .

(٤) اسناده ضعيف .

القدر ولا تفأخوهم» (١) . وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من بني آدم ليس لهم في الإسلام نصيب : المرجئة والقدرية » (٢) . لكن كل احاديث القدرية المرفوعة ضعيفة وإنما يصح الموقوف منها : فمن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض (٣) تكذيبه توحيداً (٤) . وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما اظهر من علمه الذي لا يحاط به وكتابة مقادير الخلائق . وقد ضل في هذا الموضوع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ، ممن ينكر علمه بالجزئيات او بغير ذلك ، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر . واما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة ، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد ، فأخرجوها عن قدرته وخالقه .

والقدر ، الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه ، وأن الذي جعلوه هم القدرية المحضة بلا نزاع : هو ما قدره الله من مقادير العباد . وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء ، كقول ابن عمر رضي الله عنهما ، لما قيل له : يزعمون أن لا قدر وأن الأمر انمف : اخبرهم أني منهم بريء وانهم مني برآء .

والقدر ، الذي هو التقدير المطابق للعلم : يتضمن اصولاً عظيمة : احدها : انه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها ، فيثبت علمه القديم ، وفي ذلك الرد على من

(١) اسناده ضعيف .

(٢) اسناده ضعيف ولا يغتر بتصحيح صاحب التاج اياه .

(٣) في الاصل : نقص .

(٤) ضعيف موقوفاً ومرفوعاً ، اما الموقوف فرواه اللالكائي في « شرح السنة » (١/١٤٢ ، ٢/٢٦٢) وفيه من لم يسم ، واما المرفوع ، فرواه الطبراني في الاوسط وفيه هانيء بن المتوكل وهو ضعيف :

ينكر علمه القديم . الثاني : ان التقدير يتضمن مقادير المخلوقات ، ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها ، فإن الله قد جعل لكل شيء قدراً ، قال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) الفرقان : ٢ . فالخلق يتضمن التقدير ، تقدير الشيء في نفسه ، بأن يجعل له قدراً ، وتقديره قبل وجوده . فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته ، كان ذلك ابلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة ، خلافاً لمن انكر ذلك وقال : إنه يعلم الكلليات دون الجزئيات ! فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات . الثالث : انه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلاً ، فيقضي أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلاً ، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق اولى بهذا العلم ، فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو ؟! الرابع : انه يتضمن انه مختار لما يفعله ، يحدث له بمشيئته وإرادته ، ليس لازماً لذاته . الخامس : انه يدل على حدوث هذا المقدور ، وانه كان بعد ان لم يكن ، فإنه يقدره ثم يخلقه .

قوله : (فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوجهه في فحوص الغيب سرّاً كتبها ، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً) .

ش : / اعلم ان / القاب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك اعظم مما للبدن . قال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثاه في الظلمات ليس بخارج منها) الانعام : ١٢٢ . أي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان . فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نقر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت اليها ، بخلاف القاب الميت ، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر (١) . وكذلك القلب المريض بالشهوة ، فإنه لضعفه يميل الى ما يعرض له من

(١) لا اعرفه :

ذلك بحسب قوة المرض وضعفه .

ومرض القلب نوعان ، كما تقدم : مرض شهوة ، ومرض شبهة ، وادؤها مرض الشبهة ، وادأ الشبه ما كان من أمر القدر . وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر (١) به صاحبه ، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها ، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته ، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ، ولا يوجهه جهله بالحق وعقائده الباطلة . فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته . * ما الجرح بميت لإيلا * وقد يشعر بمرضه ، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها ، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء فإن دواءه في مخالفة الهوى ، وذلك أصعب شيء على النفس ، وليس له انفع منه ، وتارة يوطن نفسه على الصبر ، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه ، لضعف عامه وبصيرته وصبره ، كمن دخل في طريق مخوف مفض الى غاية الأمن ، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف واعقبه الأمن ، فهو محتاج الى قوة صبر وقوة يقين بما يصير اليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول : أين ذهب الناس فليأسوة بهم ! وهذه حال أكثر الخلق ، وهي التي اهلكتهم . فالصابر (٢) الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقدته ، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الاول ، (الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) النساء : ٦٩ .

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة - في كتاب « الحوادث والبدع » - : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيراً ، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، ولا

(١) في الأصل : يعرف .

(٢) في الاصل : فالصبر :

ننظر الى كثرة اهل الباطل بعدهم . وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : السنة - والذي لا اله الا هو - بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فإن اهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقي ، الذين / لم / يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ، ولا مع أهل البدع في بدعتهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذاك فكونوا .

وعلاوة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة ، إلى الأغذية الضارة وعدوله عن دوائه النافع ، إلى دوائه الضار . فههنا أربعة أشياء : غذاء نافع ، ودواء شاف ، وغذاء ضار ، ودواء مهلك . فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي ، على الضار المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك . وأنفع الأغذية غذاء الإيمان ، وأنفع الأدوية دواء القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء ، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين ، فإن الله تعالى يقول : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) فصلت : ٤٤ . وقال تعالى : (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) الاسراء : ٨٢ . و«من» في قوله : « من القرآن » لبيان الجنس ، لا للتبعض . وقال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) يونس : ٥٧ . فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدوية القلبية والبدنية ، وأدواء الدنيا والآخرة ، وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوي به ، ووضع على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه : لم يقاوم الداء أبداً . وكيف تقاوم الأدوية ككلام رب الأرض والسما ، الذي لو نزل على الجبال لصدعها ، أو على الأرض لقطعها ؟! فما من مرض / من أمراض / القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحماية منه ، لمن رزقه الله فهماً في كتابه :

وقوله : لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرّاً كتبنا ، أي طاب بوهمه

في البحث عن الغيب سرّاً مكتوماً ، إذ القدر سسر الله في خلقه ، فهو يروم ببجته الأطلاع على الغيب ، وقد قال تعالى : (عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول) الجن : ٢٦ ، ٢٧ ، الى آخر السورة . وقوله : وعاد بما قال فيه ، أي في القدر : أفاكأ أثيا ، أي مأثوماً .

وقوله : (والعرش والكروسي حق) .

ش : كما بين تعالى في كتابه ، قال تعالى : (ذو العرش المجيد . فعال لما يريد) البروج : ١٥-١٦ . (رفيع الدرجات ذو العرش) غافر : ١٥ . (ثم استوى على العرش) الاعراف : ٥٣ ، في غير ما آية من القرآن (١) : (الرحمن على العرش استوى) طه : ٥ . (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) المؤمنون : ١١٧ . (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) النمل : ٢٦ . (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) غافر : ٧ . (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) الحاقة : ١٧ . (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) الزمر : ٧٥ . وفي دعاء الكرب المروي في « الصحيح » : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم (٢) .

وفي « صحيح » البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » (٣) . يروى « وفوقه » بالنصب على الظرفية ، وبالرفع على الابتداء ، أي : وسقفه .

(١) الاعراف : ٥٣ ، ويونس : ٣ ، والرعد : ٢ ، والفرقان : ٥٩ ، والم السجدة :

٤ ، والحديد : ٤ .

(٢) متفق عليه .

(٣) صحيح .

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، وربما سموه : الفلك الأطلس ، والفلك التاسع ! وهذا ليس بصحيح ، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » (١). والعرش في اللغة : عبارة عن السرير الذي للملك ، كما قال تعالى عن بلقيس : (ولها عرش عظيم) النمل : ٢٣ . وليس هو فلكاً ، ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن إنما نزل بلغة العرب ، فهو : سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف المخلوقات . فمن شعر أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً
بالبناء العالي الذي بهر النا س وسوى فوق السماء سريراً
شرجاً لا يناله بصر العين ترى حوله الملائك صُوراً

الصور هنا : جمع : اصور ، وهو المائل العنق لنظره الى العلو . والشرج : هو العالي المنيف . والسرير : هو العرش في اللغة . ومن شعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ، الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدتُ بأن وعد الله حق / وأن النار مثوى الكافرة
وأن العرش فوق الماء طاف / وفوق العرش رب العالمية
وتحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مسوهمينا

ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة ، وروى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش ، إن ما بين / شحمة / أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » (٢) . ورواه

(١) صحيح متفق عليه .

(٢) صحيح ، رواه أبو داود وغيره .

ابن أبي حاتم ولفظه : « تخفق الطير سبعمائة عام » .
وأما من حرف كلام الله ، وجعل العرش عبارة عن الملك ، كيف يصنع
بقوله تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) الحاقة : ١٧ . وقوله :
(وكان عرشه على الماء) هود : ٧ . أيقول : ويحمل ملكة يومئذ ثمانية ؟! وكان
ملكه على الماء ! ويكون موسى عليه السلام آخذاً بقائمة من قوائم الملك ؟! هل
يقول هذا عاقل ؟ يدري ما يقول ؟!

وأما الكرسي فقال تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) البقرة : ٢٥٥ .
وقد قيل : هو العرش . والصحيح أنه غيره ، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله
عنهما وغيره . روى ابن أبي شيبة في كتاب « صفة العرش » ، والحاكم في « مستدركه »
وقال : إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ،
في قوله تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) البقرة : ٢٥٥ ، أنه قال :
الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى (١) . وقد روي
مرفوعا ، والصواب أنه موقوف على ابن عباس . وقال السدي : السموات
والأرض في جوف الكرسي بين يدي العرش . وقال ابن جرير : قال أبو ذر
رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما الكرسي في
العرش إلا كحاقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » (٢) . وقيل :
كرسيه عامه ، وينسب إلى ابن عباس . والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة ، كما
تقدم . ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن . والظاهر أنه من جراب
الكلام المذموم ، كما قيل في العرش . وإنما هو - كما قال غير واحد من السلف - بين
يدي العرش كالمرقاة إليه .

(١) صحيح موقفا ، وأما المرفوع فضعيف ، كما بينته في تخريج كتاب « ما دل
عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان » للألوسي ، وقد طبعه المكتب
الإسلامي قريبا .

(٢) صحيح .

قوله : (وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، وقوله أعجز عن الاحاطة خلقه) .

ش : أما قوله : وهو مستغن عن العرش وما دونه . فقال تعالى : (إن الله لغني عن العالمين) العنكبوت : ٦ . وقال تعالى : (والله هو الغني الحميد) فاطر : ١٥ . وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا ، لأنه لما ذكر العرش والكرسي ، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ، ليبين أن خلقه العرش لا استوائه عليه ، ليس لحاجته إليه ، بل له في ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالي فوق السافل ، لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي ، محيطاً به ، حاملاً له ، / ولا / أن يكون الأعلى (١) مفتقراً إليه . فانظر الى السماء ، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها ؟ فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك ، بل لو ازم علوه من خصائصه ، وهي حملة بقدرته للسافل ، وفقر السافل ، وغناه هو سبحانه عن السافل ، وإحاطة عز وجل به ، فهو فوق العرش مع حملة بقدرته للعرش وحملته ، وغناه عن العرش ، وفقر العرش إليه ، وإحاطته بالعرش ، وعدم إحاطة العرش به ، وحصره للعرش ، وعدم حصر العرش له وهذه اللوازم متفية عن المخلوق .

ونفاة العلو ، / أهل التعطيل / ، لو فصلوا بهذا التفصيل ، لهدوا الى سواء السبيل ، وعلموا مطابقة العقل للتزويل ، ولسلكوا خلف الدليل ، ولكن فارقوا الدليل فضّلوا عن سواء السبيل . والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله ، لما سئل عن قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) الاعراف : ٥٣ وغيرها : كيف استوى ؟ فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول .

وأما قوله : محيط بكل شيء وفوقه ، وفي بعض النسخ : محيط بكل شيء فوقه ، / يحذف الواو / من قوله : فوقه ، والنسخة الأولى هي الصحيحة ، ومعناها :

(١) في الاصل : للاعلاء .

أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء . ومعنى الثانية : أنه محيط بكل شيء فوق العرش . وهذه - والله أعلم - إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهواً ، ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة ، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصداً للفساد ، وإنكاراً لصفة الفوقية ! وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات ، فلا يبقى لقوله : محيط - بمعنى : محيط بكل شيء فوق العرش - ، والحالة هذه : معنى ! إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحيط به ، فتعين ثبوت الواو . ويكون المعنى : أنه سبحانه محيط بكل شيء ، وفوق كل شيء .

أما كونه محيطاً بكل شيء ، فقال تعالى : (والله من ورائهم محيط) البروج . ٢٠ . (ألا إنه بكل شيء محيط) حسم السجدة : ٥٤ . (والله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً) النساء : ١٢٥ . وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك ، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما المراد : إحاطة عظيمته ، وسعة علمه وقدرته (١) ، وأنها بالنسبة إلى عظيمته كخردلة . كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهما في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم . ومن المعلوم - والله المثل الأعلى - أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة ، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها ، وإن شاء جعلها تحته ، وهو في الحالين مبين لها ، عال عليها فوقها من جميع الوجوه ، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظيمته وصف واصف . فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم ، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة ، فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن ، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق

(١) في الاصل : احاطة عظيمة وسعة وعلم وقدرة . وكلا العبارتين حسن ، وهو من التأويل الذي ينقحه الشارح ، مع أنه لا بد منه أحياناً .

سَمَوَاتِهِ ؟ أَوْ يَدُنِي إِلَيْهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ؟ فَنُفِي ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقُّ قُدْرِهِ . وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينِ الْمَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُؤْيَا رَبِّهِ تَعَالَى : فَقَالَ لَهُ أَبُو رَزِينٍ : كَيْفَ يَسْعُنَا - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَهُوَ وَاحِدٌ وَنَحْنُ جَمِيعٌ ؟ فَقَالَ : سَأُنْبِثُكَ بِمَثَلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللَّهِ : هَذَا الْقَمَرُ ، آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، كُلُّكُمْ يَرَاهُ مَخْلُوبًا بِهِ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِذَا أَقْلُ تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (١) : فَهَذَا يَزِيلُ كُلَّ إِشْكَالٍ ، وَيُبْطِلُ كُلَّ خِيَالٍ :

وَأَمَّا كَوْنُهُ فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الْإِنْعَامُ : ١٨ وَ ٦١ . (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) النُّحْلُ : ٥٠ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الْأَوْعَالِ : « وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ » (٢) . وَقَدْ أَنْشَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ شِعْرَهُ الْمَذْكُورَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَقْرَهُ عَلَى مَا قَالَ ، وَضَحِكَ مِنْهُ (٣) . وَكَذَا أَنْشَدَهُ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَوْلَهُ :

شَهِدَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ مَجْدًا رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عِلْمٍ
وَأَنْ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَاهُمَا لَهُ عَمَلٌ مِنْ رَبِّهِ مُتَقَبَّلٌ
وَأَنْ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مَرْسَلٌ
وَأَنَا أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ قَامَ فِيهِمْ يَجَاهِدُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَيَعْدِلُ

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَأَنَا أَشْهَدُ » (٤) . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ : « لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي

(١) ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ .

(٢) ضَعِيفٌ .

(٣) ضَعِيفٌ ، وَقَوْلُ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ « رَوَيْنَاهُ مِنْ وَجْهِهِ صَحَاحٌ » فِيهِ نَظَرٌ ، فَقَدْ قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي « الْعُلُو » (ص ١٠٦) مُعْقِبًا عَلَيْهِ : « رَوِيَ مِنْ وَجْهِهِ مَرْسَلَةٌ ثُمَّ ذَكَرَهَا » .

(٤) ضَعِيفٌ ، رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي « الطَّبَقَاتِ » بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ وَمُنْقَطِعٍ :

تكتاب فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي» (١) وفي رواية : «تغلب غضبي» رواه البخاري وغيره . وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه ، قال «بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا إليه رؤوسهم ، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة ، سلام عليكم ، ثم قرأ قوله تعالى : (سلام قولاً من رب رحيم) يس : ٥٨ . فينظر إليهم ، وينظرون إليه ، فلا يفتنون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه» (٢) . وروى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في تفسير قوله تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) الحديد : ٣ بقوله : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء» (٣) . والمراد بالظهور هنا : العلو . ومنه قوله تعالى : (فما استطاعوا أن يظهروه) الكهف : ٩٧ ، أي يعلوه . فهذه الأسماء الأربعة متقابلة : اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبدية ، واسمان لعلوه وقربه . وروى أبو داود عن جابر بن محمد بن مطعم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي ، فقال يا رسول الله ، جهدت الأنفس / وضاعت العيال / ونهكت الأموال ، / وهلكت الأنعام / ، فاستسق الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك ! أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله اعظم من ذلك ، ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن الله فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته ، وقال بأصابعه ! مثل

(١) متفق عليه .

(٢) ضعيف ، وتقدم ، وقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : « واسناده جيد »

غير جيد ، لما ذكرته هناك .

(٣) صحيح :

القبة / عليه / ، وإنه ليُط به أطيظ الرجل بالراكب » (١) . وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة ، لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات » (٢) . وهو حديث صحيح ، أخرجه الاموي في مغازيه ، وأصله في « الصحيحين » . وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها : أنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات (٣) . وعن عمر رضي الله عنه : أنه مر بعجوز ، فاستوقفته ، فوقف معها يحدثها ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، حبست الناس بسبب هذه العجوز ؟ فقال : ويلك ! أتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة التي أنزل الله فيها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله) (٤) المجادلة : ١ أخرجه الدارمي . وروى عكرمة عن ابن عباس ، في قوله : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم) الاعراف : ١٧ قل : ولم يستطع ان يقول من فوقهم ، لأنه قد علم ان الله سبحانه من فوقهم :

(١) ضعيف .

(٢) صحيح بدون قوله : « فوق سبع سموات » كذلك هو في « الصحيحين » و « المسند » . وأما هذه الزيادة فتفرد بها محمد بن صالح التمار ، كما في « العاوي » (١٠٢) وقال : « وهو صدوق » وفي « التقريب » « صدوق بخطيء » ، قلت : فثله لا يقبل تفرده ، وان صححه المؤلف وكذا الذهبي ، وفي اثبات الفوقية أحاديث صحيحة تغني عن هذا ، وسيدكر المؤلف بعضها .

(٣) صحيح :

(٤) ضعيف . أخرجه ابو سعيد الدارمي في « الرد على الجهمية » (ص ٢٦ ، طبع المكتب الإسلامي) من طريق ابى يزيد المدني عن عمر به . قال الذهبي : (١١٣) « وهذا إسناد صالح فيه انقطاع ، ابو يزيد لم يلحق عمر » .

ومن سماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام السلف ، وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر . ولا ريب ان الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك ، فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فتعين أنه خالقهم خارجاً عن ذاته ، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات ، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم ، لكان متصفاً بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لا يخاو منه او من ضده ، وضد الفوقية : السفول ، وهو مذموم على الإطلاق ، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده .

فإن قيل : لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها . قيل : لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها ، فتمى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه ، غير مخالط للعالم ، وأنه موجود في الخارج ، ليس وجوده ذهنياً فقط بل وجوده خارج الأذهان قطعاً ، وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو : إما داخل العالم وإما خارج عنه ، وانكار ذلك انكار ماهو أجلي وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلاريب ، فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه ، وأوضح وأبين . وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال ، لا نقص فيه ، ولا يستأزم نقصاً ، ولا يوجب محذوراً ، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ، ففني حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً . فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رساله ، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله - : إلا بذلك ؟ فكيف إذا انضم الى ذلك شهادة العقول السليمة ، والفطر / المستقيمة / ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوق عباده ، التي تقرب من عشرين نوعاً : أحدها : التصريح بالفوقية مقروناً بأداة من ، المصينة للفوقية بالذات ، كقوله تعالى : (يخافون ربهم من فوقهم) النحل : ٥٠ الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة ، كقوله تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) الانعام : ١٨ و ٦١ . الثالث : التصريح بالعروج اليه نحو : (تعرج الملائكة)

والروح اليه) المعارج : ٤ . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يخرج الذين باثوا فيكم فيسألهم » (١) . الرابع : التصريح بالصعود اليه . كقوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب) فاطر : ١٠ . الخامس : التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه ، كقوله تعالى : (بل رفعه الله اليه) النساء : ١٥٨ . وقوله : (إني متوفيك ورافعك إلي) آل عمران : ٥٥ . السادس : التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتاً وقدرأً وشرفاً ، كقوله تعالى : (وهو العلي العظيم) البقرة : ٢٥٥ . (وهو العلي الكبير) سبأ : ٢٣ . (إنه عليم حكيم) الشورى : ٥١ . السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) غافر : ٢ . (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الزمر : ١ . (تنزيل من الرحمن الرحيم) فصلت : ٢ . (تنزيل من حكيم حميد) فصلت : ٤٢ . (قل نزل به روح القدس من ربك بالحق) النحل : ١٠٢ . (حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين) الدخان : ١ - ٥ . الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب اليه من بعض ، كقوله : (إن الذين عند ربك) الاعراف : ٢٠٦ . (وله من في السموات والأرض ومن عنده) الانبياء : ١٩ . ففرق بين « من له » عموماً وبين « من عنده » من ملائكته وعبيده خصوصاً . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه : « أنه عنده فوق العرش » (٢) . التاسع : التصريح بأنه تعالى في السماء ، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين : إما أن تكون « في » بمعنى « على » ، وإما أن يراد بالسماء العلو ، لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره . العاشر : التصريح بالاستواء مقروناً بأداة

(١) متفق عليه ، وهو قطعة من حديث اوله : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » .

(٢) متفق عليه :

« على » مخصصاً بالعرش ، الذي هو أعلى المخلوقات ، مصاحباً في الأكثر لأداة :
 « ثم » الدالة على الترتيب والمهابة. الحادي عشر : التصريح برفع الأيدي الى الله تعالى ،
 كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يستحي من عبده إذا رفع اليه يديه أن يردهما
 صفراً » (١). والقول بأن العلو قبل الدعاء فقط - باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده
 من نفسه كل داع ، كما يأتي إن شاء الله تعالى . الثاني عشر : التصريح بنزوله كل لاية
 الى سماء الدنيا ، والنزول المعتبر عند جميع الأمم إنما يكون من علو الى سفلى . الثالث
 عشر : الإشارة اليه حساً الى العلو ، كما اشار اليه من اهو اعلم بربه (٢) وبما يجب له
 ويمتنع عليه من جميع البشر ، لما كان بالمجمع الأعظم / الذي لم يجتمع لأحد مثله ،
 في اليوم الأعظم ، في المكان الأعظم ، قال لهم : « انتم مسؤولون عني ، فاذا انتم
 قائلون ؟ قالوا : نشهد انك قد باغت واديت ونصحت » (٣) ، فرفع اصبعه
 الكريمة الى السماء ، رافعاً لها الى من هو فوقها وفوق كل شيء ، قائلاً : « اللهم اشهد » .
 فكأننا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة الى الله ، وذلك اللسان الكريم وهو
 يقول لمن رفع اصبعه اليه : « اللهم اشهد » ، ونشهد انه باغ البلاغ المبين ، وادى
 رسالة ربه كما امر ، ونصح انته غاية النصيحة ، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه
 وإيضاحه الى تنطع المتنطعين ، وحذقة المتحذقين ! والحمد لله رب العالمين .
 الرابع عشر : التصريح باللفظ : « الأين » كقول اعلم الخلق به ، وانصحهم
 لأهله ، وافصحهم بياناً عن المعنى الصحيح ، فلفظ لا يوهم باطلا بوجه : « اين
 الله » (٤) ، في غير موضع . الخامس عشر : شهادته صلى الله عليه وسلم لمن قال

(١) صحيح ، أخرجه الحاكم وغيره .

(٢) في الاصل : به .

(٣) صحيح ، وهو قطعة من حديث جابر الطويل في حجة النبي صلى الله عليه

وسلم . رواه مسلم وابو داود والدارمي وابن ماجه وغيرهم .

(٤) صحيح ، رواه مسلم (٧١/٢) وغيره عن معاوية بن الحكم السلمي ان النبي

صلى الله عليه وسلم قال للجارية : اين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من انا ؟
 قالت : انت رسول الله ، قال : اعتقها فإنها مؤمنة .

إن ربه في السماء .. بالإيمان (١) . السادس عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود الى السماء ليطلع الى إله موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات ، فقال : (ياها مان ابن لي صرحاً لعلى ابلاغ الأسباب اسباب السموات فأطلع الى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً) المؤمن : ٣٦ . فمن نفي العاو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبته فهو موسوي مجدي . السابع عشر : إخباره صلى الله عليه وسلم انه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد الى ربه ثم يعود الى موسى عدة مرار (٢) . الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية اهل الجنة له تعالى ، من الكتاب والسنة ، واخبار النبي صلى الله عليه وسلم انهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه ستار ، فلا يرونه الا من فوقهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « بينا اهل الجنة في نعيمهم ، اذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الجبار جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا اهل الجنة ، سلام عليكم ، ثم قرأ قوله تعالى : (سلام قولاً من رب رحيم) يس : ٥٨ . ثم يتوارى عنهم ، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم » (٣) رواه الإمام احمد في « المسند » ، وغيره ، من حديث جابر رضي الله عنه . ولا يتم انكار الفوقية الا بانكار الرؤية . ولهذا طرد الجهمية الشقين (٤) ، وصدق اهل السنة بالأميرين معاً ، واقرؤا بها ، وصار من اثبت الرؤية ونفى العاو مذهباً بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ! وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو الف دليل ، فعلى المتأول ان يجيب عن ذلك كله ! وهيئات له بجواب صحيح عن بعض ذلك !

(١) صحيح وهو الحديث الذي قباه .

(٢) متفق عليه .

(٣) ضعيف .

(٤) في الاصل : النقيضين .

وَكَلَامُ السَّلَفِ فِي اثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ كَثِيرٌ جَدًّا : فَمِنْهُ : مَا رَوَى شَيْخُ الْإِسْلَامِ
 أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِيُّ فِي كِتَابِهِ الْفَارُوقَ ، بِسَنَدِهِ إِلَى مَطْيَعِ الْبَاخِيِّ : أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا
 حَنِيفَةَ عَمَّنْ قَالَ : لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ ؟ فَقَالَ : قَدْ كَفَرَ ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ :
 (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) طه : ٥ وعرشه فوق سبع سمواته ، قلت : فإن قال : إنه على العرش ،
 ولكن يقول : لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ؟ قال : هو كافر ، لأنه
 أنكر أنه في السماء ، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر . وزاد غيره : لأن الله في أعلى
 عاليتين ، وهو يُدعى من أعلى ، لا من أسفل . انتهى . ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك
 ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم ،
 مخالفون له في كثير من اعتقاداته . وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم
 في / بعض / اعتقاداتهم . وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي ، لما أنكر أن
 يكون الله عز وجل فوق العرش - : مشهورة . رواها عبد الرحمن بن أبي حاتم
 وغيره .

ومن تأول « فوق » ، بأنه خير من عباده وأفضل منهم ، وأنه خير من
 العرش وأفضل منه ، كما يقال : الأمير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم - : فذلك
 مما تنفر عنه العقول السليمة ، وتشتم منه القلوب الصحيحة ! فإن قول القائل
 / ابتداء / : الله خير من عباده ، وخير من عرشه : من جنس قوله : الحاج بارد ،
 والنار حارة ، والشمس أضوأ من السراج ، والسماء أعلى من سقف الدار ، والجبل
 أثقل من الحصى ، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي / ، والسماء فوق الأرض !!
 وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح ، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه
 وأهيجته ! فكيف يليق بكلام الله ، الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا
 بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؟ ! بل في ذلك تنقص ، كما قيل
 في المثل السائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل : الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك ! لضحك منه العقلاء ، للتفاوت الذي بينهما ، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق اعظم واعظم . بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك ، بأن كان احتجاجاً على مبطل ، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام : (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يوسف : ٣٩ . وقوله تعالى : (الله خير اما يشر كون) النمل : ٥٩ : (والله خير وابقى) طه : ٧٣ .

ولما ثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه ، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر ، وفوقية القسار (١) ، وفوقية الذات ، ومن اثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص ، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه .

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ، ثابت بالعقل والفطرة ، اما ثبوته بالعقل فن وجوه : احدها : العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين ، إما ان يكون احدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات ، وإما ان يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر . الثاني : انه لما خلق العالم ، فإما ان يكون خلقه في ذاته او خارجاً عن ذاته ، والأول باطل : اما اولاً : فبالافتقار ، واما ثانياً : فلأنه يلزم ان يكون محلاً للخسائس (٢) والقاذورات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . والثاني يقتضي كون العلم واقعاً خارج ذاته ، فيكون منفصلاً ، فتعينت المباينة ، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه - غير معقول . الثالث : ان كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه - : يقتضي / نفى / وجوده بالكلية ، لأنه غير معقول : فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه . والأول باطل ، فتعين الثاني ، فلزم المباينة .

واما ثبوته بالفطرة ، فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقاوبهم السليمة يرفعون

(١) في الاصل : الفضل .

(٢) في الأصل : للحشائش .

أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقاوبهم عند التضرع الى الله تعالى .
 وذكر محمد بن طاهر المتسلسلي ان الشيخ ابا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ
 ابي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين ، وهو يتكلم في نفى صفة العلو ، ويقول :
 كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان ! فقال الشيخ ابو جعفر : اخبرنا
 يا استاذ عن هذه الضرورة التي نبحثها في قلوبنا ؟ فإنه ما قال عارف قط : يا الله ،
 إلا وجد في قلبه ضرورة طلب (١) العلو ، لا يلتفت بمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع
 بهذه الضرورة عن انفسنا ؟ قال : فاطم ابو المعالي على راسه ونزل ! واطنه قال :
 وبكى ! وقال : حيرني الهمداني حيرني ! اراد الشيخ : ان هذا امر فطر الله عليه
 عباده ، من غير ان يتلقوه من المرسلين ، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه الى
 الله ويطلبه في العلو .

وقوله : وقد أعجز عن الإحاطة خاتمه - أي لا يحيطون به علما ولا رؤية ،
 ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة ، بل هو سبحانه محيط بكل شيء ، ولا يحيط به شيء .

قوله : (ونقول : ان الله اتخذ ابراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تكليما ، ايمانا
 وتصديقا وتسليما) .

ش : قال / الله / تعالى : (واتخذ الله ابراهيم خليلا) النساء : ١٢٤ ، وقال
 تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) النساء : ٢٦٤ . الخلة : كمال المحبة . وأنكرت
 الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين ، زعموا منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب
 والمحبوب ، وانه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ! وكذلك أنكروا
 حقيقة التكليم ، كما تقدم ، وكان اول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم
 في أوائل المائة الثانية ففصحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق
 بواسط ، خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحكوا ، تقبل الله ضحكايكم ،

(١) في الأصل : بطلب .

فلإني (١) مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، ثم نزل فذبجه . وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم ، فجزاه الله عن الدين وأهله خيراً . وأخذ هذا المذهب /عن الجعد/ - الجهم بن صفوان ، فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول : « الجهمية » . فقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان بها ، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد ، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون ، حتى امتحن أئمة الإسلام ، ودعواهم إلى الموافقة لهم على ذلك . وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة ، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً وموسى كليماً ، لأن الخلقة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب ، كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلاً

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى ، كسائر صفاته . ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في « الصحيح » عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » (٢) ، يعني نفسه . وفي رواية : « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت /متخذاً/ من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » . وفي رواية : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » . فبين صلى الله عليه وسلم أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً ، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق . مع أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً ، كقوله لمعاذ : « والله إني لأحبك » (٣) . وكذلك قوله للأَنْصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابنه أسامة حبه : وأمثال ذلك . وقال له عمرو بن العاص : أي الناس أحب إليك ؟ قال « عائشة » ، قال : فمن

(١) في الاصل : فانه .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح ، رواه أحمد وغيره .

الرجال ؟ قال : « أبوها » (١) . فعلم أن الخلقة أخص من مطلق المحبة ، والمحبوب بها
لكمالها يكون محباً لذاته ، لا لشيء آخر ، إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن
ذلك الغير ، ومن كمالها لا تقبل الشراكة / ولا / المزاحمة ، لتخللها المحبة ، ففيها كمال
التوحيد وكمال الحب . ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكان إبراهيم قد سأل
ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فوهب له اسماعيل ، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه ،
فغار الخليل على قاب خايله أن يكون فيه مكان لغيره ، فامتحنه به بلذجه ، ليظهر
سر الخلقة في تقديمه محبة خليته على محبة ولده ، فلما استسلم لأمر ربه ، وعزم على فعائه ،
فظهر سلطان الخلقة في الإقدام على ذبح الولد ليثارة محبة خليته على محبته ، نسخ الله
ذلك عنه ، وفداه بالذبح العظيم ، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين
النفس على ما أمر ، فلما حصلت هذه المصاحبة عاد الذبح نفسه مفسدة ، فنسخ في حقه ،
وصارت الذبائح والقرايين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه الى يوم القيامة . وكما
أن منزلة الخلقة الثابتة لإبراهيم صلات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه
وسلم كما تقدم ، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلات الله عليه قد شاركه فيها
نبينا صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء .

وهنا سؤال مشهور ، وهو : أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم
صلى الله عليه وسلم ، فكيف طالب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم ، مع أن المشبه به
أصله أن يكون فوق المشبه ؟ وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين ؟ وقد
أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة ، يضيق هذا المكان عن بسطها ، وأحسنها : أن
آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم ، فإذا طلب للنبي صلى الله
عليه وسلم وآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء ، حصل لآل محمد
ما يليق بهم لانهم لا يبلغون مراتب الأنبياء ، وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم
إبراهيم لمحمد صلى الله عليهما وسلم ، فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره ،

(١) متفق عليه .

وأحسن من هذا : أن النبي صلى الله عليه وسلم من آل ابراهيم ، بل هو أفضل آل ابراهيم ، فيكون قولنا : « كما صليت على آل / ابراهيم » - متناولا الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية ابراهيم وهو متناول لإبراهيم أيضا ، كما في قوله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) آل عمران ٣٣ فأبراهيم وعمران دخلا في آل ابراهيم وآل عمران ، وكما في قوله تعالى : (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) القمر : ٣٤ . فإن لوطاً داخل في آل لوط ، وكما في قوله تعالى : (إذ نجيناكم من آل فرعون) البقرة : ٤٩ وقوله : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) المؤمن : ٤٦ فإن فرعون داخل في آل فرعون . ولهذا والله أعلم ، أكثر روايات حديث الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إنما فيها كما صليت على آل ابراهيم . وفي كثير منها كما صليت على ابراهيم ولم : يرد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إلا في قليل من الروايات وما ذلك إلا لأن في قوله : كما صليت على ابراهيم يدخل آله تبعاً . وفي قوله : كما صليت على آل ابراهيم ، هو داخل في آل ابراهيم . وكذلك لما جاء أبو أوفى رضي الله عنه بصدقة إلى النبي صلى الله عليه وسلم دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » . ولما كان بيت ابراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الإطلاق ، خصهم الله بخصائص : منها : أنه جعل فيه النبوة والكتاب ، فلم يأت بعد ابراهيم نبي إلا من أهل بيته . ومنها : أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة ، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فلأنما دخل من طريقهم وبدعوتهم . ومنها : أنه سبحانه اتخذ من الخليلين ، كما تقدم ذكره . ومنها : أنه جعل صاحب هذا البيت إماماً للناس . قال تعالى : (إني جاعلك للناس إماماً) قال : ومن ذريتي ، قال : لا ينال عهدي الظالمين (البقرة : ١٢٤ . ومنها : أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً للناس ومثابة وأمناً ، وجعله قبلة لهم وحجاً ، فكان ظهور هذا البيت في الأكرمين . ومنها : أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل البيت . إلى غير ذلك من الخصائص :

قوله : (ونؤمن بالملائكة والنبين ، والكتب المنزلة على المرسلين ، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين) .

ش : هذه الامور من أركان الإيمان . قال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) البقرة : ٢٨٥ - الآيات . وقال تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) البقرة : ١٧٧ - الآية . فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة ، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين ، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة ، بقوله : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) النساء : ١٣٦ . وقال صلى الله عليه وسلم ، في الحديث المتفق على صحته ، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » (١) . فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل :

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول . وأصل الدين : الإيمان بما جاء به الرسول ، كما تقدم بيان ذلك ، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة - لما تضمنتا هذا الأصل - : لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ، ففي « الصحيحين » عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » (٢) . وفي « صحيح مسلم » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « بينا جبرائيل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع راسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ،

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح .

فُنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم ، وقال : ابشرا بنورين اوتيتهما ، لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا اوتيته «(١) . وقال ابو طالب المكي : اركان الإيمان سبعة ، يعني هذه الخمسة ، والإيمان بالقدر ، والإيمان بالجنة والنار . وهذا حق ، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية . وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوجيه والرسالة .

واما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : (فالمدبرات امراً) النازعات : ٥ . (فالمقسمات امراً) الذاريات : ٤ . وهم الملائكة عند اهل الإيمان واتباع الرسل ، واما المكذبون بالرسول المنكرون للصانع فيقولون : هي النجوم . وقد دل الكتاب والسنة على اصناف الملائكة ، وانها موكلة بأصناف المخاوقات ، وانه سبحانه وكل بالجناب لملائكة ، ووكل بالسحاب والمطر لملائكة ، ووكل بالرحم لملائكة تدبر امر النطفة حتى يتم خلقها ، ثم وكل بالعبد لملائكة لحفظ (٢) ما يعمل به وإحصائه وكتابته ، ووكل بالموت لملائكة ، ووكل بالسؤال في القبر لملائكة ، ووكل بالأفلاك لملائكة يحركونها ، ووكل بالشمس والقمر لملائكة ، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب اهلها وعمارتها لملائكة ، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها لملائكة . فالملائكة اعظم جنود الله ومنهم : (المرسلات عرفاً) المرسلات : ١ و (الناشرات نشرأ) المرسلات : ٢ و (الفارقات فرقاً) المرسلات : ٣ و (الملقيات ذكرأ) المرسلات : ٤ ومنهم : (النازعات غرقاً) النازعات : ١ و (الناشطات نشطاً) النازعات : ٢ و (السابحات سبحاً) النازعات : ٣ (فالسابقات سبقاً) النازعات : ٤ ومنهم : (الصافات صفأ) فالزاجرات زجرأ . فالتاليات ذكرأ) الصافات :

(١) صحيح .

(٢) في الاصل : تحفظ .

أ - ٣ . ودعني جتمع التائبين في ذلك كله : الفرق والطوائف والجماعات ، التي مفردتها : « فرقة » و « طائفة » و « جماعة » ، ومنهم الملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش ، وملائكة قد وكلوا بجارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس ، الى غير ذلك من اصناف الملائكة التي لا يحصيها الا الله : ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر من رسله ، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله للواحد القهار ، وهم ينفذون أمره : (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) الانبياء : ٢٧ . / (يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم) / البقرة : ٢٥٥ . (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) الانبياء : ٢٨ . (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) النحل : ٥٠ . فهم عباد مكرمون ، منهم الصافون ، ومنهم المسيحون ، ليس منهم إلا له مقام معلوم ، ولا يتخطاه ، وهو على عمل قد أمر به ، لا يقصر عنه ولا يتعداه ، واعلاهم الذين عنده (لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون) الانبياء : ١٩ - ٢٠ ورؤسائهم الأملاك الثلاثة : جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، الموكلون بالحياة ، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الارض والنبات والحيوان ، واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم . فهم رسل الله في خلقه وأمره ، وسفرائه بينه وبين عبادته ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم ، ويصعدون اليه بالأمر ، قد اطت السموات بهم ، وحقق لها ان تنط ، ما فيها موضع اربع اصابع الا وملك قائم او راكع او ساجد لله ، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون اليه آخر ما عليهم . والقرآن مملوء بذكر الملائكة واصنافهم ودرجاتهم ، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم ، وصلاته بصلاتهم ، ويضيفهم اليه في مواضع التشریف ، وتارة يذكر حفيهم بالعرش وحملهم له ، ودرجاتهم من الدنوا (١) ، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم ، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص . قال تعالى :

(١) في الاصل : وبراعتهم من الذنوب .

(كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) البقرة : ٢٨٥ . (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ) آل عمران : ١٨ . (هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) الاحزاب : ٤٣ . (الَّذِينَ يُحْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) غافر : ٧ . (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ تَحُولِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) الزمر : ٧٥ . (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) الانبياء : ٢٦ . (اِنَّ الَّذِيْنَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُوْنَهُ وَلَهُ يُسَجِّدُونَ) الاعراف : ٢٠٦ . (فَاِنَّ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِيْنَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَوْنَ) فصات : ٣٨ . (كَرَامًا كَاتِبِينَ) الانفطار : ١١ . (كَرَامٌ بَرَّةٌ) عبس : ١٦ . (يَشْهَادُهُ الْمُقَرَّبُونَ) المطففين : ٢١ . (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى) الصافات : ٨ . وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم . فلهذا كان الإيمان بالملائكة احد الأصول الخمسة التي هي اركان الايمان .

واما الانبياء والمرسلون ، فعليتنا الايمان بمن سمي الله تعالى في كتابه من رسله ، والايمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء ، لا يعلم أسمائهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم . فعليتنا الايمان بهم جملة ، لأنه لم يأت في عددهم نص . وقد قال تعالى : (وَرَسُولًا قَدْ قُصِّصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصِصْ عَنْكَ مِنَ الْنِّسَاءِ : ١٦٤ . وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قُصِّصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَنْكَ) غافر : ٧٨ . وعليتنا الايمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوه (١) بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا اليه جهله ، ولا يحل خلافه . قال تعالى : (فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النحل : ٣٥ . (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النحل : ٨٢ . / (وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) / (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النور : ٥٤ . (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) المائدة : ٩٥ .

(١) في الاصل : بينوا .

وأما أولو العزم من الرسل . فقد قيل فيهم أقوال أحسنها : ما نقله البهوتي وغيره عن ابن عباس وقتادة : انهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم . قال : وهم المذكورون في قوله تعالى : (وإذا اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) الأحزاب : ٧ . وفي قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . / كبر على المشركين ما تدعوهم إليه /) الشورى : ١٣ .

وأما الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً .

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين ، فنؤمن بما سمي الله تعالى منها في كتابه ، من التوراة والإنجيل والزبور ، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه ، لا يعرف اسماءها وعددها إلا الله / تعالى / .

وأما الإيمان بالقرآن ، فالإقرار به ، / و / اتباع ما فيه ، وذلك امر زائد على الإيمان بغيره من الكتب . فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله اتتهم (١) من عند الله ، وانها حق وهدى ونور وبيان وشفاء . قال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) البقرة : ١٣٦ . إلى قوله : (وما أوتي النبيون من ربهم) البقرة : ١٣٦ . (ألم . الله لا إله الا هو الحي القيوم) آل عمران : ١ ، ٢ . إلى قوله : (وأنزل الفرقان) آل عمران : ٢ . (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) البقرة : ٢٨٥ . (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) النساء : ٨٢ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ان الله تكلم بها ، وانها نزلت من عنده . وفي ذلك اثبات صفة الكلام والعلو . وقال تعالى : (كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق) البقرة : ٢١٣ .

(١) في الاصل : آيتهم .

(وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)
 حم السجدة : ٤٢ . (ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق)
 سبأ : ٦ . (يا ايها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى
 ورحمة للمؤمنين) يونس : ٥٧ . (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) حم السجدة :
 ٤٤ . (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا) التغابن : ٨ . وامثال ذلك في
 القرآن كثيرة :

قوله : (ونسمي اهل قبلتنا مسلمين ، ما داموا بما جاء به النبي صلى
 الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قاله واخبر مصدقين) :

ش : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا ، واستقبل
 قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فهو المسلم ، له مالنا وعليه ما علينا » (١) . ويشير الشيخ
 رحمه الله بهذا الكلام الى أن الإسلام والإيمان واحد ، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام
 بارتكاب الذنب ما لم يستحلله . والمراد بقوله : أهل قبلتنا ، من يدعي الإسلام
 ويستقبل الكعبة وإن كان من أهل الأهواء ، أو من أهل المعاصي ، ما لم يكذب بشيء
 مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول
 الشيخ : ولا تكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب ما لم يستحلله . وعند قوله : والإسلام
 والإيمان واحد ، وأهله في أصله سواء .

قوله : (ولا نخوض في الله ، ولا نماري في دين الله) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله الى الكف عن كلام المتكلمين الباطل ، وذم
 علمهم ، فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أئامهم . (إن يتبعون إلا الظن
 وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) النجم : ٢٣ . وعن أبي حنيفة
 رحمه الله ، أنه قال : لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء ، بل يصفه بما

(١) متفق عليه .

وصف به نفسه . وقال بعضهم : الحق سبحانه يقول : من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب ، ومن كشفت له حقيقة ذاتي ألزمته العطب ، فاختر الأدب أو العطب . ويشهد لهذا : أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتلك كدك ولم يثبت على عظمة الذات : قال الشبلي : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب . وقوله : ولا تخاري في دين الله . معناه : لا تخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم ، التماساً لامترائهم وميلهم ، لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل ، وتلبيس الحق ، وإفساد دين الإسلام .

قوله : (ولا تجادل في القرآن ، ونشهد أنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، فها هو سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وهو كلام الله تعالى ، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلافه ، ولا نخالف جماعة المسلمين) .

ش : فقوله ولا تجادل في القرآن ، يحتمل أنه أراد : أننا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، بل نقول : إنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، إلى آخر كلامه . ويحتمل أنه أراد : أنا لا نجادل في القراءة الثابتة ، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح . وكل من المعنيين حق . /و/ يشهد بصحة المعنى الثاني ، ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه قال : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافاً ، فأخذت بيده ، فانطلقت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فعرفت في وجهه الكراهة ، وقال : « كلا كما تحسن ، لا تختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » (١) رواه مسلم . نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي

(١) صحيح ، ولم يروه مسلم ، بل تفرد به البخاري دونه ، أخرجه في «الخصومات» و «الأنبياء» ومن الغريب تصدير الشارح إياه بقوله : «روي» المشعر بضعفه في اصطلاح المحدثين ! وهذا أمر تساهل فيه أكثر المتأخرين كما نبه عليه النووي وغيره .

فيه جمحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق ، لأن كلا القارئين كان محسناً فيما قرأه ، وعال ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلکوا . ولهذا قال حذيفة رضي الله عنه ، لعثمان رضي الله عنه : أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم . فجمع الناس على حرف واحد اجتماعاً سائغاً . وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ، ولم يكن في ذلك تركٌ لواجب (١) ، ولا فعل لمحذور ، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة ، رخصة من الله تعالى ، وقد جعل الاختيار اليهم في أي حرف اختاروه . كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوباً . ولهذا كان ترتيب مصحف عبدالله على غير ترتيب المصحف العثماني ؛ وكذلك مصحف غيره . وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية ، بخلاف السور . فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد - جمعهم الصحابة عليه . هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء . قاله ابن جرير وغيره : منهم من يقول : إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام لما في المحافظة ، على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً ، فلما تذلت ألسنتهم بالقراءة ، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم ، وهو أوفق لهم - : أجمعوا على الحرف الذي كان في العرصة الأخيرة ؛ وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف يشتمل على الأحرف السبعة لأنه لا يجوز أن يهمل شيء من الأحرف السبعة . وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني . وترك ما سواه . وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب ، وهو : أن ذلك كان جائزاً لا واجباً ، أو أنه صار منسوخاً . وأما من قال عن ابن مسعود إنه كان يجوز القراءة بالمعنى ! فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت إلى القراءة (٢) فرايت قراءتهم متقاربة ، وإنما هو كقول أحدكم : هلم ، واقبل ، وتعال ، فاقرؤوا كما علمتم .

(١) في الأصل : واجب .

(٢) في الأصل : القراءة .

او كما قال . والله تعالى قد امرنا ان لانجادل اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم ، فكيف بمناظرة اهل القبلة ؟ فإن اهل القبلة من حيث الجملة خير من اهل الكتاب ، فلا يجوز ان يناظر من لم يظلم منهم الا بالتي هي احسن ، وليس اذا اخطأ يقال : انه كافر ، قبل ان تقام عليه الحجة التي حكم الرسول بكفر من تركها . والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان . ولهذا ذم السلف اهل الأهواء ، وذكر /وا/ ان آخر امرهم السيف . وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان ، ان شاء الله تعالى ، عند قول الشيخ : ونرى الجماعة حقاً وصواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً . وقوله : ونشهد أنه كلام رب العالمين ، قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله : وإن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً .

وقوله : (نزل به الروح الأمين) الشعراء : ١٩٣ ، هو جبرائيل عليه السلام سمي روحاً لانه حامل الوحي الذي به حياة القلوب الى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين ، وهو أمين حق أمين ، صلوات الله عليه . قال تعالى : (نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥ . وقال تعالى : (إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) التكوين : ١٩ - ٢١ . وهذا وصف جبرائيل . بخلاف قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر) الحاقة : ٤٠ ، الآيات . فإن الرسول هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم :

وقوله : فعلمه سيد المرسلين ، تصريح بتعاليم جبرائيل إياه ، لإبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاماً .

وقوله : ولانقول بخلقه ، ولانخالف جماعة المسلمين ، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فإن ساف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق ، بل قوله : ولا نخالف جماعة المسلمين ، مجرى على

إطلاؤه : أننا لا نحالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافتهم زيل وضلال وبدعة .

قوله : (ولا نكفر احداً من اهل القبلة بذنب ، ما لم يستحلله ، ولا نقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله) .

ش : أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله : ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ، / ماداموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين / ، يشير الشيخ رحمه الله / بهذا الكلام / الى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب .

واعلم - رحمك الله وإيانا - أن باب التكفير وعدم التكفير ، باب عظمت الفتنة والمحنة فيه ، وكثر فيه الافتراق ، وتشتت فيه الأهواء والآراء ، وتعارضت فيه دلائلهم . فالناس فيه ، في جنس تكفير اهل المقالات والعقائد الفاسدة ، المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الامر ، او المخالفة لذلك في اعتقادهم على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف في تكفير اهل الكبائر العمالية .

فطائفة تقول : لا نكفر من اهل القبلة احداً ، فتنفي التكفير نفياً عاماً ، مع العلم بأن في اهل القبلة المنافقين ، الذين فيهم من هو اكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع ، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم ، وهم يتظاهرون بالشهادتين . وايضاً : فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو اظهر انكار الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك ، فإنه يستتاب فإن تاب ، وإلا قتل كافراً مرتداً . والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور ، كما ذكره الخلا ل في كتاب السنة ، بسنده الى محمد بن سيرين ، أنه قال : إن أسرع الناس ردة اهل الاهواء ، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) الانعام : ٦٨ . ولهذا امتنع

كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأننا لا نكفر أحداً بذنوب ، بل يقال : لأنكفرهم بكل ذنب ، كما تفعله (١) الخوارج . و الفرق بين النفي العام ونفي العموم . والواجب أنما هو نفي العموم ، مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب . ولهذا - والله أعلم - قيده الشيخ رحمه الله / بقوله / : فالـم يستحله . وفي قوله : فالـم يستحله إشارة الى أن مراده من هذا النفي العام لكل ذنب / من / الذنوب العملية والعلمانية وفيه اشكال فإن الشارع لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل ، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح بل أعمال القلوب اصل لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبع . الا ان يضمن قوله : يستحله بمعنى : يعتقده ، او نحو ذلك .

وقوله : ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ... الى آخر كلامه ، رد على المرجئة ، فإنهم يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة هؤلاء في طرف ، والخوارج في طرف ، فإنهم يقولون نكفر المسلم بكل ذنب ، او بكل ذنب كبير ، وكذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط إيمانه كله بالكبيرة ، فلا يبقى معه شيء من الإيمان . لكن الخوارج يقولون : يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر ! والمعتزلة يقولون : يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين !! ويقولهم بخروجه من الإيمان اوجبوا له الخاود في النار ! وطوائف من اهل الكلام والفقهاء والحديث لا يقولون ذلك في الأعمال ، لكن في الاعتقادات البدعية ، وان كان صاحبها متأولاً ، فيقولون : يكفر كل من قال هذا القول ، لا يفرقون بين المجتهد المخطئ وغيره ، او يقولون : يكفر كل مبتدع . وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات العام امور عظيمة ، فإن النصوص المتواترة قد دلت على انه يخرج من النار من في قلبه / مثقال / ذرة من إيمان ، ونصوص الوعد التي يحتاج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتاج بها اولئك . والكلام في الوعيد

(١) في الاصل : يفعله .

مبسوط في موضعه . وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ : واهل الكباثر في النار لا يخلدون ، اذا ماتوا وهم موحدون . والمقصود هنا : أن البدع هي من هذا الجنس ، فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً ، لكن تأول تأويلاً خاطئاً فيه ، اقام مجتهداً واما مفرطاً مذنباً ، فلا يقال : ان ايمانه حبط لمجرد ذلك ، الا ان يدل على ذلك دليل شرعي ، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة ، ولانقول : لا يكفر بل العبدل هو الوسط ، وهو : ان الاقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبتته الرسول ، او إثبات ما نفاه ، او الأمر بما نهى عنه ، او النهي عما أمر به - : يقال فيها الحق ، ويشب لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ، ويبين انها كفر ، ويقال : من قالها فهو كافر ، ونحو ذلك ، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والاموال ، وكما قد قال كثير من اهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن / وان الله لا يرى في الآخرة ولا يعلم الاشياء قبل وقوعها . وعن ابي يوسف رحمه الله أنه قال : ناظرت ابا حنيفة رحمه الله مدة ، حتى اتفق رأيي ورأيه : أن من قال بخلق القرآن فهو كافر / . واما الشخص المعتن ، اذا قيل : هل تشهدون انه من اهل الوعيد وانه كافر ؟ فهذا لانشهد عليه الا بأمر تجوز معه الشهادة ، فإنه من اعظم البغي ان يشهد على معين ان الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار ، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت . ولهذا ذكر أبو داود في سننه في كتاب الأدب : « باب النهي عن البغي » ، وذكر فيه عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كان رجلان في بني اسرائيل متواخين ، فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب ، فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب ، فقال له : أقصر . فقال : خلني وربني ، أبعثت علي رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، ولا يدخلك / الله / الجنة فقبض ارواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : اكنت بي عالماً ؟ او كنت على ما في يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به الى النار . قال ابو هريرة : والذي نفسي بيده ، لتكلم بكلمة او بقت دنياد

وأخبرته « (١) . وهو حديث حسن : ولأن الشخص المعين يمكن ان يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له ، / ويمكن ان يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص / ، ويمكن ان يكون له ايمان عظيم وحسنات اوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذي قال : « إذا مت فاسحقوني ثم اذروني ، ثم غفر الله له لحشيشته » (٢) وكان يقطن ان الله لا يقدر على جمعه واعادته ، او شك في ذلك . لكن هذا التوقف في امر الآخرة لا يمنعنا ان نعاقبه في الدنيا ، لمنع بدعته ، وان نستتبيه ، فإن تاب والا قتلناه . ثم اذا كان القول في نفسه كفراً قيل : انه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ولا يكون ذلك الا / اذا / صار منافقاً زنديقاً . فلا يتصور ان يكفر احد من اهل القبلة المظهرين الاسلام الا من يكون منافقاً زنديقاً . وكتاب الله يبين ذلك ، فإن الله صنف الخلق في ثلاث اصناف : صنف : كفار من المشركين ومن اهل الكتاب وهم الذين لا يقرون بالشهادتين . وصنف : المؤمنون باطناً وظاهراً . وصنف اقرؤا به ظاهراً لا باطناً . وهذه الاقسام الثلاثة مذكورة في اول سورة البقرة . وكل من ثبت انه كافر في نفس الامر وكان مقراً بالشهادتين . فإنه لا يكون الا زنديقاً ، والزنديق هو المنافق .

وهنا يظهر غلط الطرفين ، فإنه من كفر كل من قال القول المبتدع في الباطن ، يلزمه أن يكفر أقواماً ليسوا في الباطن منافقين ، بل هم في الباطن يحبون (٣) الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين ، ثبت في « صحيح البخاري » عن أسلم مولى عمر / رضي الله عنه / ، عن عمر : أن رجلاً كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه : عبدالله ، وكان يلقب : حماراً ، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جلدته في

(١) حسن ، وفيه عكرمة بن عمار احتج به مسلم ، وفيه ضعف .

(٢) صحيح أخرجه البخاري وغيره .

(٣) في الاصل : يحبون .

الشراب ، فأتى به يوماً ، فأمر به فجلده ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ! ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تلعه ، / فوالله ما علمت / ، إنه يحب الله ورسوله » (١) وهذا أمر متيقن به في طوائف كثيرة وائمة في العلم والدين ، وفيهم بعض مقالات الجهمية او المرجئة او القدرية او الشيعة أو الخوارج . ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بحملة تلك البدعة ، بل بفرع منها . ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف (٢) من الساف المشاهير . فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ، ومن مباح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكتفرون .

ولكن بقي هنا إشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله ، وهو : أن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفراً ، قال الله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) المائدة : ٤٤ . وقال صلى الله عليه وسلم : « سباب المسلم (٣) فسوق ، وقتاله كفر » (٤) . متفق عليه مق حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٥) : و : « إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر - فقد باء بها أحدهما » (٦) . متفق عليهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « اربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه / خصلة منهن كان فيه / خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم

(١) صحيح .

(٢) في الاصل : الطوائف .

(٣) في الاصل : المؤمن .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح .

(٦) صحيح .

فجر» (١) . متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، والتوبة معروضة بعد » (٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : « بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة » (٣) . رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من أتى كاهناً فصدقه ، أو أتى امرأة في دبرها ، فقد كفر بما أنزل على محمد » (٤) . وقال صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد كفر » (٥) . رواه الحاكم بهذا اللفظ . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثنتان في أمي / بهم / كفر : الطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت » (٦) . ونظائر ذلك كثيرة .

والجواب : أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفوراً ينقل عن الملة بالكلية ، كما قالت الخوارج ، إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً يقتل على كل حال ، ولا يقبل عفو ولي القصاص ، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقه وشرب الخمر ! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام . وه متفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل في الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين ، كما قالت المعتزلة ، فإن قولهم باطل ايضاً ، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) البقرة : ١٧٨ ، الى ان قال : (فمن عني له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف) البقرة ١٧٨ . فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله اخاً لولي القصاص ، والمراد اخوة الدين بلا ريب . وقال تعالى : (وإن طائفتان من

(١) صحيح . (٢) صحيح .

(٣) صحيح . (٤) صحيح .

(٥) صحيح .

(٦) صحيح . رواه مسلم (٥٨/١) باللفظ « اثنتان في الناس ... » والباقي مثله .

المؤمنين اقتتلوا فأصاحوا بينهما) الحجرات : ٩ ، الى ان قال : (إنما المؤمنون إخوة ، فأصاحوا بين أخويكم) الحجرات : ١٠ . ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على ان الزاني والسارق والقاذف لا يقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على انه ليس بمرتد . وقد ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض او شيء فليتحلله منه اليوم ، قبل ان لا يكون درهم ولا دينار ، إن كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلومته ، وإن لم يكن له حسنات اخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ، ثم التي في النار » (١) . اخرجاه في « الصحيحين » . فثبت ان الظالم يكون له حسنات يستوفي المظالم منها حقه . وكذلك ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما تعادون المفلس فيكم ؟ قالوا : المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار ، قال : المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات امثال الجبال ، / فيأتي / وقد شتم هذا واخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، فيقتص هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » (٢) . رواه مسلم . وقد قال تعالى : (ان الحسنات يذهبن السيئات) هود : ١١٥ . فدل ذلك على انه في حال اساءته يعمل (٣) حسنات تمحو سيئاته . وهذا مبسوط في موضعه .

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة ، فإنهم وافقوهم على ان مرتكب الكبيرة مخلص في النار ، لكن قالت الخوارج : نسفيه كافراً ، وقالت المعتزلة : نسفيه فاسقاً ، فالخلاف بينهم لفظي فقط . واهل السنة ايضاً متفقون على انه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب ، كما وردت به النصوص . لا كما يقوله

(١) صحيح .

(٢) رواه مسلم .

(٣) في الاصل : يفعل .

المرجئة من انه لا يضر مع الإيمان ذنب ، ولا ينفع مع الكفر طاعة ! واذا اجتمعت
نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة ، ونصوص الوعيد التي استدلت بها
الخوارج والمعتزلة - : تبين لك فساد القولين ! ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى انك
تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى .

ثم بعد هذا الاتفاق تبين ان اهل السنة اختلفوا خلافاً لفظياً ، لا يترتب عليه
فساد ، وهو : انه هل يكون الكفر على مراتب ، كفرأ دون كفر ؟ كما اختلفوا :
هل يكون الايمان على مراتب ، ايماناً دون ايمان ؟ وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم
في معنى « الإيمان » : هل هو قول وعمل يزيد وينقص ، ام لا ؟ بعد اتفاقهم على
ان من سماه الله تعالى ورسوله كافراً نسميه كافراً ، اذ من الممتنع ان يسمي الله
سبحانه الحاكم بغير ما انزل الله كافراً ، ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافراً -
ولانطابق عليهما اسم الكفر . ولكن من قال : إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ،
قال : هو كفر عملي لا اعتقادي ، والكفر عنده على مراتب ، كفر دون كفر ،
كالإيمان عنده . ومن قال : ان الإيمان هو التصديق ، ولا يدخل العمل في معنى
الإيمان ، والكفر هو الجحود ، ولا يزيدان ولا ينقصان ، قال : هو كفر مجازي
غير حقيقي ، إذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة . وكذلك يقول في تسمية
بعض الأعمال بالإيمان ، كقوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) البقرة : ١٤٣
أي صلاتكم الى بيت المقدس ، انها سميت ايماناً مجازاً ، لتوقف صحتها عن الإيمان
او لدلالاتها على الإيمان ، إذ هي دالة على كون مؤديها مؤمناً . ولهذا يحكم بإسلام
الكافر إذا صلى صلاتنا . فليس بين فقههاء الأمة نزاع في أصحاب الذنوب ، إذا
كانوا مقرين باطنياً وظاهراً بما جاء به الرسول وما تواتر عنهم انهم من اهل الوعيد -
ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليد هم في النار ، كالخوارج والمعتزلة .
ولكن اردأ ما في ذلك التعصب على من يضادهم ، وإلزامه لمن يخالف قوله بما
لا يلزمه ، والتشنيع عليه ! واذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين ، وأن

لِحِجَادُ لَوَا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَكَيْفَ لَا يُعَدُّلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْخِلَافِ ؟
 قَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) المائدة : ٨ ، الآية ،
 وَهَذَا أَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يُتَفَقَّنَ لَهُ ، وَهُوَ : أَنَّ الْحُكْمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَدْ يَكُونُ
 كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً : كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً ، وَيَكُونُ كُفْرًا : إِمَّا
 مُجَازِيًا ، وَإِمَّا كُفْرًا أَصْغَرَ ، عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ . وَذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِ الْحَاكِمِ :
 فَإِنَّهُ إِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ ، وَإِنَّهُ مَخِيرٌ فِيهِ ، أَوْ اسْتِهَانٌ بِهِ مَعَ
 تَيَقُّنِهِ أَنَّهُ حَكَمَ اللَّهُ - : فَهَذَا كُفْرٌ كَبِيرٌ (١) . وَإِنْ اعْتَقَدَ وَجُوبَ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ،
 وَعَلِمَهُ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ ، وَعَدَلَ عَنْهُ مَعَ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ ، فَهَذَا عَاصٍ ،
 وَيُسَمَّى كَافِرًا كُفْرًا مُجَازِيًا ، أَوْ كُفْرًا أَصْغَرَ . وَإِنْ جَهِلَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهَا ، مَعَ بَذَلِ
 جَهْدِهِ وَاسْتِفْرَاحِ وَسْعِهِ فِي مَعْرِفَةِ الْحُكْمِ وَاخْطَآءِهِ ، فَهَذَا مُخْطِئٌ ، لَهُ أَجْرٌ عَلَى
 اجْتِهَادِهِ ، وَخَطْؤُهُ مَغْفُورٌ .

وَأَرَادَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا نَقُولُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبُ مَنْ عَمِلَهُ -
 مُخَالَفَةَ الْمَرْجُئَةِ . وَشَبَّهْتَهُمْ كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ لِبَعْضِ الْأَوَّلِينَ ، فَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَى
 قَتْلِهِمْ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا مِنْ ذَلِكَ . فَإِنَّ قَدَامَةَ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ شَرِبَ الْخَمْرَ بَعْدَ تَحْرِيمِهَا هُوَ
 وَطَائِفَةٌ ، وَتَأَوَّلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا
 طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) المائدة : ٩٣ ، الآية . فَلِمَا ذَكَرُوا

(١) قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ : وَهَذَا مِثْلُ مَا ابْتُلِيَ بِهِ الَّذِينَ دَرَسُوا الْقَوَانِينَ الْأَوْرَبِيَّةَ
 مِنْ رِجَالِ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَنِسَائِهَا أَيْضًا ! الَّذِينَ أَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ حُبَّهَا ، وَالشَّغْفَ
 بِهَا ، وَالذَّبَّ عَنْهَا ، وَحَكَمُوا بِهَا ، وَادَّاعَوْهَا . بِمَا رَبُّوا مِنْ تَرْبِيَةِ أُسَاسِهَا صَنَعَ
 الْمُبْشِرِينَ الْهَدَامِينَ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْرَحُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَوَارَى .
 وَيَكَادُونَ يَكُونُونَ سِوَاءَ . فَانَا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : حَكَمٌ .

ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على انهم ان اعترفوا بالتحريم جاهدوا ، وإن اصرروا على استحلالها قتلوا . وقال عمر لقدامة : اخطأت اسمك الحفرة ، اما انك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر . وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب ان الله سبحانه لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد وقعة أحد ، قال بغض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فأ نزل الله هذه الآية . بين فيها ان من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصالحين ، كما كان من امر استقبال بيت المقدس . ثم ان أولئك الذين فعلوا/ ذلك يذمون/ على انهم اخطأوا وأيسوا من التوبة . فكتب عمر الى قدامة يقول له : (حم . تنزيل الكتاب من العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) غافر : ١ - ٣ . ما ادري أي ذنبيك اعظم ؟ استحلالك المحرم اولا ؟ ام يأسأك من رحمة الله ثانياً ؟ وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين ائمة الإسلام .

قوله : (ورجو للمحسنين من المؤمنين ان يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ، ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئتهم ، ونخاف عليهم ، ولا نقنطهم) .

ش : وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره . قال تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) الاسراف : ٥٧ وقال تعالى : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) آل عمران : ١٧٥ . وقال تعالى : (وإياي فاتقون) البقرة : ٤١ . (وإياي فارهبون) البقرة : ٤٠ . (فلا تخشوهم واخشوني) البقرة : ١٥٠ . ومدح أهل الخوف ، فقال تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) المؤمنون : ٥٧-٥٨

الى قوله : (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) المؤمنون : ٦١ . وفي «المسند» والترمذي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت : يا رسول الله ، (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجاسة) المؤمنون : ٦١ ، هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق ؟ قال : « لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنّه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » (١) . قال الحسن رضي الله عنه : عماوا - والله - بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن تردّ عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إسماعة وأمناء . انتهى . وقد قال تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) البقرة : ٢١٨ . فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات ؟ فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى ، شرعه وقدرته (٢) وثوابه وكرامته . ولو أن رجلاً له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه ، فأهملها ولم يحراثها ولم يبنرها ، ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض - : لعدّه الناس من أسفه السفهاء ! وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع ! أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام ! وأمثال ذلك . فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاءه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، من غير طاعة ولا تقرب الى الله تعالى بامثال أوامره واجتناب نواهيه . ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاءه أموراً : أحدها : محبة ما يرجوه . الثاني : خوفه من فواته . الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان . وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك ، فهو من باب الأمانى ، والرجاء شيء والأمانى شيء آخر . فكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير ، مخافة الفوات . وقال تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء : ٤٨ ، ١١٦ . فالمشرك لا ترجى له

(١) حديث حسن ، وقد خرجته في « الاحاديث الصحيحة » :

(٢) في الاصل : وقدره .

المُغْفَرَةُ ، لِأَنَّ اللَّهَ نَفَى عَنْهُ الْمَغْفَرَةَ ، وَمَا سِوَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ غُفِرَ لَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذِبَهُ . وفي «معجم الطبراني» : الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان لا يغفر الله منه شيئاً ، وهو الشرك بالله ، ثم قرأ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) النساء : ٤٨ ، ١١٦ . وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وهو مظلَمُ العباد بعضهم بعضاً . وديوان لا يعبأ الله به ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه (١) . وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر ، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رحمه الله : وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون . ولكن ثم أمر ينبغي التفتن له ، وهو : أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لما ما يلحقها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغيرة من قلّة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر . وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره .

/وأيضاً/ : فإنه قد يعنى لصاحب الإحسان (٢) العظيم ما لا يعنى لغيره ، فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب ، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة : السبب الأول : التوبة ، قال تعالى : (إِلَّا مَنْ تَابَ) مريم : ٦٠ ، الفرقان : ٧٠ . (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) البقرة : ١٦٠ وغيرها . والتوبة النصوح ، وهي الخالصّة ، لا يختص بها ذنب دون ذنب ، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة ؟ حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل ؟ والصحيح أنها تقبل . وهل يُجب الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها ؟ أم لا بد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك ؟ حتى لو أسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر

(١) ضعيف ، ولم يروه الطبراني بل أحمد (٢٤٠/٦) والحاكم (٥٧٥/٤ - ٢٧٦) وقال : «صحيح الاسناد» ! ورده الذهبي بقوله : «قلت : صدقة ، ضعفه ، وابن بابنوس فيه جهالة» .

(٢) في الاصل : السيئات .

مثلاً ، هل يؤخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر ؟ أم لابد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه ؟ أو يتوب توبة عامة من كل ذنب ؟ وهذا هو الأصح : أنه لابد من التوبة مع الإسلام ، وكون التوبة سبباً لغفران الذنوب وعدم المؤاخذه بها - مما لاخلاف فيه بين الأمة . وليس شيء يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبة ، قال تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً لأنه هو الغفور الرحيم) الزمر : ٥٣ ، وهذا لمن تاب ، ولهذا قال : (لا تقنطوا) ، وقال بعدها : (وأنيبوا إلى ربكم) الزمر : ٥٤ ، الآية : السبب الثاني : الاستغفار ، قال تعالى : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) الانفال : ٣٣ . لكن الاستغفار تارة يذكر وحده ، وتارة يقرن بالتوبة ، فإن ذكره وحده دخلت معه التوبة ، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار . فالتوبة تتضمن الاستغفار ، والاستغفار يتضمن التوبة ، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق ، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى ، فالاستغفار : طلب وقاية شر ماضى ، والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله . ونظير هذا : الفقير والمساكين ، إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر ، وإذا ذكرا معاً كان لكل منهما معنى . قال تعالى : (فإطعام عشرة مساكين) المائدة : ٨٩ . (فإطعام ستين مسكيناً) المجادلة : ٤ . (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) البقرة : ٢٧١ . لاخلاف أن كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم ، ولما قرن أحدهما بالآخر في قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) التوبة : ٦٠ ، الآية - : كان المراد بأحدهما المقل ، والآخر المعدم ، على خلاف فيه . وكذلك الإثم والعنوان ، والبر والتقوى ، والفسوق والحصيان . ويقرب من هذا / المعنى / : الكفر والنفاق ، فإن الكفر أعم ، فإذا ذكر الكفر شمل النفاق ، وإن ذكرا معاً كان لكل منهما معنى . وكذلك الإيمان والإسلام على ما يأتي الكلام فيه ، إن شاء الله تعالى . السبب الثالث : الحسنات : فإن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، فالويل لمن / غلبت / آحاده عشراته . وقال تعالى :

(إن الحسنات يذهبن السيئات) هود : ١١٥ . وقال صلى الله عليه وسلم : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » (١) . السبب الرابع : المصائب الدنيوية ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا غم ولا هم ولا حزن ، حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر بها من خطاياها » (٢) . وفي «المسند» : أنه لما نزل قوله تعالى : (من يعمل سوءاً يجز به) النساء : ١٢٣ - قال أبو بكر : يا رسول الله ، نزلت قاصمة الظهر (٣) ، وأينما لم يعمل سوءاً ؟ فقال : « يا أبا بكر ، ألسنت تنصب ؟ ألسنت تحزن ؟ ألسنت يصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به » (٤) . فالمصائب نفسها مكفرة ، وبالصبر عليها يثاب العبد ، وبالسخط يأثم . والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة ، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد ، وهي جزاء من الله للعبد على

(١) حديث حسن .

(٢) متفق عليه .

(٣) في الاصل : للظهر :

(٤) ضعيف الاسناد ، صحيح المعنى ، قال احمد شاكر في تعليقه هنا : حديث أبي بكر هذا في «المسند» ، برقم : ٦٨ بشرحنا . ولكن اوله هناك أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ .. فكل سوء عملناه جزينا به ؟ . ليس فيه قوله هنا « نزلت قاصمة الظهر .. » وهو حديث ضعيف ، اسناده منقطع : وكان الأجدر بالشارح أن يذكر حديث أبي هريرة في «المسند» : ٧٣٨٠ أنه لما نزلت هذه الآية « شقت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ ، فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : قاربوا وسددوا ، فكل ما يصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة ينكبها » وهو حديث صحيح ، رواه مسلم في صحيحه (٢٨٢/٢) ، وزاد في آخره : « والشوكة يشاكها » . ولو رجع الشارح رحمه الله الى تفسير شيخه ابن كثير في هذه الآية (٨٥٦/٢ - ٥٩٠) لوجد حديث أبي هريرة وأحاديث أخر في معناه ، بعضها اصح اسنادا من حديث أبي بكر .

ذنبه ، ويكفر ذنبه بها ، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله ، والصبر والسخط من فعله ، وإن كان (١) الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد ، بل هدية من الغير ، أو فضلاً من الله من غير سبب ، قال تعالى : (ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) النساء : ٤٠ . فنفس المريض جزاء وكفارة لما تقدم . وكثيراً ما يفهم من الأجر غفران الذنوب ، وليس ذلك مدلوله ، وإنما يكون من لازمه . السبب الخامس : عذاب القبر . وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله تعالى . السبب السادس : دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات . السبب السابع : ما مهيئ له بعد الموت ، من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ، ونحو ذلك ، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى . السبب الثامن : أهوال يوم القيامة وشدائده . السبب التاسع : ما ثبت في « الصحيحين » : « أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » (٢) . السبب العاشر : شفاعة الشافعين ، كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها . السبب الحادي عشر : عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة ، كما قال تعالى : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء : ٤٨ ، ١١٦ . فإن كان ممن لم يشأ الله أن (٣) يغفر له لعظم جرمه ، فلا بد من دخوله إلى الكبر ، ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه ، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، بل من قال : لا إله إلا الله ، كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه (٤) . وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع القطع لأحد معين من الأمة ، غير من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) في الاصل : كان الثواب :

(٢) متفق عليه :

(٣) في الاصل : لم .

(٤) متفق عليه :

بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ، ونخاف عليهم .

قوله : (والأمن والاياس ينقلان عن ملة الاسلام ، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة) .

ش : يجب ان يكون العبد خائفاً راجياً ، فإن الخوف المحمود الصادق : ماحال بين صاحبه وبين محارم الله ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والتشوط . والرجاء المحمود : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، او رجل اذنب ذنباً ثم تاب منه الى الله ، فهو راج لغفرته . قال الله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم) البقرة : ٢١٨ . اما اذا كان الرجل متعادياً في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب . قال : ابو علي الروذباري رحمه الله : الخوف والرجاء كجناحي الطائر ، اذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، واذا نقص احدهما وقع فيه النقص ، واذا ذهب صار الطائر في حد الموت . وقد مدح الله اهل الخوف والرجاء بقوله : (آمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الزمر : ٩ ، الآية . وقال : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) السجدة : ١٦ ، الآية . فالرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ، والخوف يستلزم الرجاء ، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً . وكل احد اذا خفته هربت منه ، إلا الله تعالى ، فإنك اذا خفته هربت اليه ، فالخائف هارب من ربه الى ربه . وقال صاحب « منازل السائرين » رحمه الله : الرجاء أضعف منازل المريد . وفي كلامه نظر ، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من اشرف منازل المريد . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : انا عند ظن عبدي بي . فليظن / بي / ماشاء » (١) وفي « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله

(١) متفق عليه .

صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه » (١) ، ولهذا قيل : إن العبد ينبغي أن يكون رجاءه في مرضه أرجح من خوفه ، بخلاف زمن الصحة ، فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه . وقال بعضهم من عبد الله بالحب / وحده / فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، / وروى / : ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحّد . ولقد احسن محمود الوراق في قوله :

لو قد رأيت الصغير من عمل الخ ير ثواباً عجبت من كبره
أو قدر رأيت الخفير من عمل الله رجزاء اشفقت من حذره

قوله : (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بحدود ما ادخله فيه) .

ش : يشير الشيخ الى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة . وفيه تقرير لما قال أولاً : لانكفر احداً من اهل القبلة بذنب ، ما لم يستحلّه . وتقدم الكلام على هذا المعنى :

قوله : (والإيمان : هو الإقرار باللسان ، والتصديق بالجنان . وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق . والإيمان واحد ، واهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقوى ، ومخالفة الهوى ، وملازمة الأولى .

ش : اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان ، اختلافاً كثيراً : فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحق بن راهويه وسائر اهل الحديث واهل المدينة رحمهم الله واهل الظاهر وجماعة من المتكلمين : الى انه تصديق بالجنان ،

(١) رواه مسلم .

وإقرار باللسان ، وغفل بالأركان . وذهب كثير من أصحابنا الى ما ذكره الطحاوي رحمه الله : أنه الإقرار باللسان ، والتصديق بالجنان . ومنهم من يقول : إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي ، والى هذا ذهب ابو منصور الماتريدي رحمه الله ، ويروى عن ابي حنيفة رضي الله عنه . وذهب الكرامية الى ان الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ! فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان ، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي اوعدهم الله به ! وقولهم ظاهر الفساد . وذهب الجهم بن صفوان وابو الحسن الصالحى احده رؤساء القدرية - الى ان الإيمان هو المعرفة بالقلب وهذا القول اظهر فساداً مما قبله ! فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، / فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ، ولم يؤمنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون : (لقد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر) الاسراء : ١٠٢ . وقال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلاوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) النمل : ١٤ . واهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون ابناءهم ، ولم يكونوا مؤمنين به ، بل كافرين به ، معادين له ، وكذلك ابو طالب عنده يكون مؤمناً ، فإنه قال :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير اديان البرية ديننا
اولا الملامة او حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مبيدنا

بل ابليس يكون عند الجهم مؤمناً كامل الإيمان ! فإنه لم يجهل ربه ، بل هو عارف به ، (قال : رب فانظرنى الى يوم يبعثون) الحجر : ٣٦ . (قال : رب بما اغويتني) الحجر : ٣٩ . (قال : فبعزتك لأغوينهم اجمعين) ص : ٨٢ . والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى ، ولا احد اجهل منه بربه ! فإنه جعله الوجود المطلق ، وسلب عنه جميع صفاته ، ولا جهل اكبر من هذا ، فيكون كافراً بشهادته على نفسه ! وبين هذه المذاهب مذاهب اخر ، بتفاصيل وقيود ، اعرضت عن ذكرها اختصاراً ، ذكر هذه المذاهب ابو المعين

النسبي (١) في «تبصرة الأدلة» وغيره :

وحاصل الكل / يرجع / الى ان الإيمان : اما ان يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما ذهب اليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله ، كما تقدم او بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة واصحابه رحمهم الله . او باللسان وحده ، كما تقدم ذكره عن الكرامية . او بالقلب وحده ، وهو اما المعرفة ، كما قاله الجهم ، او التصديق كما قاله ابو منصور الماتريدي رحمه الله . وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر :

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقيين من اهل السنة - اختلاف صوري . فإن كون اعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب ، او جزءاً من الإيمان ، مع الاتفاق على ان مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ، بل هو في مشيئة الله ، ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه - : نزاع لفظي ، لا يترتب عليه فساد اعتقاد : والقائلون بتكفير تارك الصلاة ، ضموا الى هذا الأصل ادلة اخرى . وإلا فقد نفي النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ، ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية ، اتفاقاً . ولا خلاف بين اهل السنة ان الله تعالى أراد من العباد القول والعمل ، وأعني بالقول : التصديق بالقلب والإقرار باللسان ، وهذا الذي يُعنى به عند إطلاق قولهم : الإيمان قول وعمل . لكن هذا المطلوب من العباد : هل يشمله اسم الإيمان ؟ ام الإيمان أحدهما ، وهو القول وحده ، والعمل مغاير له لا يشمله اسم الإيمان عند افراده بالذكر ، وإن أطلق عليهما كان مجازاً ؟ هذا محل النزاع .

وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه ، وامتنع عن العمل بجوارحه :-

(١) هو ميمون بن محمد بن محمد ابو المعين النسفي الحنفي عالم بالاصول والكلام كان بسمهرقند وسكن بخارى . له كتب عدة (٤١٨ - ٥٠٨) .

/أنه/ عاص الله ورسوله ، مستحق للوعيد ، لكن فيمن يقول : إن الأعمال غير داخله
في مسمى الإيمان من قال : لما كان الإيمان شيئاً واحداً فإيماني كإيمان أبي بكر
الصديق وعمر رضي الله عنهما ! بل قال : كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل
وميكائيل عليهم السلام !! وهذا غاو منه . فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر ،
ولاشك أن البصر يختلِفون في قوة البصر وضعفه ، فمنهم الأخفش والأعشى ، و
/من/ يرى الخط الثخين ، دون الدقيق (١) إلا بزجاجة ونحوها ، ومن يرى عن
قرب زائد على العادة ، وآخر بضده .

ولهذا - والله أعلم - قال الشيخ رحمه الله : وأهله في أصله سواء ، يشير الى
أن التساوي إنما هو في أصله (٢) ، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه ، بل تفاوت
/درجات/ نور « لا إله إلا الله » في قلوب أهلها لا يحيطها إلا الله تعالى : فمن الناس
من نور/ « لا إله إلا الله »/ في قلبه كالشمس ، ومنهم من نورها في قلبه كالنور
الدري ، وآخر كالشمس العظم ، وآخر كالسراج المضيء ، وآخر كالسراج الضعيف .
ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار ، بحسب ما في
قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً ، وكلما اشتد نور هذه الكرامة وعظم
أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته ، بحيث إنه ربما وصل الى حال
لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنباً إلا أحرقه ، وهذه حال الصادق في توحيده ،
فسماه إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق . ومن عرف هذا عرف معنى قول
النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي
بذلك وجه الله » (٣) ، وقوله : « لا يدخل النار من قال : لا إله إلا الله » (٤) ، وما

(١) في الاصل : الرفيع .

(٢) في الاصل : العلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أشككت على كثير من الناس ، حتى ظننها بعضهم منسوخة ، وظننها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي ، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار ، وأول بعضهم الدخول بالخلود ، ونحو ذلك . والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط ، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، فإن المنافقين يقولونها بالاستنهم ، وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار ، فإن الأعمال لا تنفاضل بصورها وعددها ، وإنما تنفاضل بتفاضل ما في القلوب . وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفنة ، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مد البصر ، فتثقل البطاقة ، وتطيش السجلات ، فلا يعذب صاحبها (١) . ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار . وتأمل مقام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان ، التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية ، وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدوره وهو يعالج سكرات الموت وتأمل مقام بقلب البغي من الإيمان ، حيث نزعته موقها وسقت الكلب من الركية ، فغفر لها . وهكذا العقل أيضا ، فإنه يقبل التفاضل ، وأمله في أصله سواء ، مستوون في أنهم عقلاء غير مجانين ، وبعضهم أعقل من بعض . وكذلك الإيجاب والتحريم ، فيكون إيجاب دون إيجاب ، وتحريم دون تحريم . هذا هو الصحيح ، وإن كان بعضهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب . وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل - : فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ماوجب بعد نزول القرآن كله ، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره ، كما في حق النجاشي وأمثاله . وأما الزيادة بالعمل والتصديق ، المستلزم لعمل القلب والجوارح - : فهو / أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه ، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به ، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف المزموم . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) صحيح .

« ليس المخبر كالمعاريين » (١) وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح ، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك أشك موسى في خبر الله ، لكن المخبر ، وإن جزم بصدق المخبر ، فقد لا يتصور / المخبر به نفسه ، كما يتصوره / إذا عاينه ، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه : (رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبي) البقرة : ٢٦٠ . وأيضاً : فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلاً ، يجب عليه / من / الإيمان أن يعلم ما أمر به ، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره / الإيمان به / إلا مجعلاً ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل . وكذلك الرجل أول ما يسلم ، إنما يجب عليه الإقرار بالمجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجودها ويؤديها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان . ولا شك أن من قام بقلبه بالتصديق الجازم ، الذي لا يقوى على معارضته شهوه ولا شبهة - : لا تقع معه معصية ، ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى ، بل يشغل قلبه ذلك الوقت بما يواقع من المعصية ، فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصى . ولهذا - والله اعلم - قال صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢) ، الحديث . فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا ، وإن بقي أصل التصديق في قلبه ، ثم يعاوده : فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) الاعراف : ٢٠١ . قال ليث عن مجاهد : هو الرجل يهيم بالذنب فيذكر الله فيدعه . والشهوة والغضب مبدأ السيئات ، / فإذا أبصر رجع : ثم قال تعالى : (واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) الاعراف : ٢٠٢ ، أي واخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون . قال ابن عباس : لا

(١) صحيح ، أخرجه أحمد (١/٢١٥ ، ٢٧١) والطبراني والخطيب وغيرهم بسند

صحيح باللفظ : « ليس الخبر كالمعاينة » :

(٢) متفق عليه وقد مضى :

الإنس تقصر عن السيئات / ، ولا الشياطين تمسك عنهم . فإذا لم يبصر بقي قلبه في عمى ، والشيطان يمدّه في غيه ، وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب ، فذلك النور والإبصار ، وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه . وهذا كما أن الإنسان يغض عينه فلا يرى ، وإن لم يكن أعمى ، فكذلك القاب ، بما يغشاه من رين الذنوب ، لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر . وجاء هذا المعنى مرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « إذا زنا العبد نزع منه الإيمان ، فإذا تاب أعيد اليه » (١) .

إذا كان النزاع في هذه المسألة بين أهل السنة نزاعاً لفظياً ، فلا محذور فيه ، سوى ما يحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك ، وأن يصير ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم ، وإلى ظهور الفسق والمعاصي ، بأن يقول : أنا مؤمن مسلم حقاً كامل الإيمان والاسلام ولي من اولياء الله ! فلا يبالي بما يكون منه من المعاصي . وبهذا المعنى قالت المرجئة لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله ! وهذا باطل قطعاً . فالامام أبو حنيفة رضي الله عنه نظر الى حقيقة الايمان لغة مع أدلة من كلام الشارع : وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا الى حقيقته في عرف الشارع ، فإن الشارع ضم الى التصديق اوصافاً وشرائط كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك .

وقد اعترض على استدلالهم بأن الايمان في اللغة عبارة عن التصديق - بمنع الترادف بين التصديق والايمان ، وهب ان الامر يصح في موضع ، فلم قلتم إنه يوجب الترادف مطاقاً ؟ وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الاسلام والايمان . ومما يدل على عدم الترادف : أنه يقال للمخبر إذا صدق : صدقه ، ولا يقال : آمنه ، ولا آمن به ، بل يقال : آمن له ، كما قال تعالى : (فأمن له لوط) العنكبوت : ٢٦ . (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف) يونس : ٨٣ . وقال تعالى : (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) التوبة : ٦١ ، ففرق بين المعدي بالبلاء والمعدي باللام ، فالأول يقال للمخبر به ، والثاني للمخبر

(١) صحيح ، أخرجه ابو داود والحاكم وصححه هو والذهبي :

ولا يرد كونه يجوز أن يقال : ما أنت بمصدق لنا ، لأن دخول اللام لتقوية العامل / كما إذا تقدم المعمول ، أو كان العامل / اسم فاعل ، أو مصدرأً ، على ما عرف في موضعه . فالحاصل أنه لا يقال : قد آمنت ، ولا صدقت له ، إنما يقال : آمنت له ، كما يقال : أقررت له . فكان تفسيره بأقررت - أقرب من تفسيره بصدقت ، مع الفرق بينهما ، لأن الفرق بينهما ثابت في المعنى ، فإن كل مخبر عن مشاهد أو غيب يقال له في اللغة : صدقت ، كما يقال له : كذبت . فمن قال : السماء فوقنا ، قيل له : صدقت . وأما لفظ الايمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب ، فيقال لمن قال : طلعت الشمس - : صدقناه ، ولا يقال : آمنا له ، فإن فيه أصل معنى الأمن والاثمان إنما يكون في الخبر عن الغائب ، فالأمر الغائب هو الذي يؤتمن عليه المخبر . ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له - إلا في هذا النوع . ولأنه لم يقابل لفظ الايمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق ، وإنما يقابل بالكفر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ، بل لو قال : أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك ، بل أعاديك وابغضك وأخالفك - : لكان كفراً أعظم ، فعلم أن الايمان ليس التصديق فقط ، ولا الكفر التكذيب فقط ، بل إذا كان الكفر يكون تكديباً ، ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب . فكذلك الايمان ، يكون تصديقاً وموافقة وهوالة وانقياداً ، ولا يكفي مجرد التصديق ، فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان . ولو سلم الترادف ، فالتصديق يكون بالأفعال ايضاً . كما ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العينان تزنيان ، وزناهما النظر ، والأذن تزني ، وزناها السمع » إلى أن قال : « والفرج يصدق ذلك ويكذبه » (١) . وقال الحسن البصري رحمه الله : ليس الايمان بالتعالي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقع في الصدور وصدقته الأعمال . ولو كان تصديقاً فهو تصديق مخصص ، كما في الصلاة ونحوها كما قد تقدم ، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييراً له ، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق ، بل بإيمان خاص

(١) متفق عليه وتقدم .

ووصفه وبينه والتصديق الذي هو الإيمان ، ادنى أحواله ان يكون نوعاً من التصديق العام ، فلا يكون مطابقاً له في العموم والخصوص ، من غير تغير اللسان ولا قلبه ، بل يكون الإيمان في كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص ، كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق . ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح ، فإن هذه من لوازم الإيمان التام ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم . ونقول : إن هذه لوازم تدخل في معنى اللفظ تارة ، وتخرج عنه أخرى ، أو إن اللفظ باق على معناه في اللغة ، ولكن الشارع زاد فيه أحكاماً ، أو أن يكون الشارع استعماله في معناه المجازي ، فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوي ، أو ان يكون قد نقله الشارع . وهذه الأقوال لمن سلك هذا الطريق :

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً : منها : قوله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) الانفال : ٢ . (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) مريم : ٧٧ . (ويزداد الذين آمنوا إيماناً) المدثر : ٣١ . (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) الفتح : ٤ . (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) آل عمران : ١٧٣ . وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به ؟ فهل في قول الناس : « قد جمعوا لكم فاخشوهم » آل عمران : ١٧٣ زيادة مشروع ؟ وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع ؟ وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة و يقيناً ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) آل عمران : ١٦٧ . وقال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيسم زادته هذه إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) التوبة : ١٢٥ . وأما مارواه الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله ، في تفسيره عند هذه الآية ، فقال :

حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذي ، قالاً : حدثنا فارس بن مرذويه ، قال :
حدثنا محمد بن الفضل بن العابد ، قال حدثنا يحيى بن عيسى ، قال : حدثنا أبو مطيع
عن حماد بن سلمة ، عن أبي المهزّم ، عن أبي هريرة ، قال : جاء وفد ثقيف الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، الإيمان يزيد وينقص ؟
فقال : « لا ، الإيمان مكمل في القلب ، زيادته كفر ونقصانه شرك » (١) . فقد سئل
شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله عن هذا الحديث ؟ فأجاب : بأن الإسناد
من أبي الليث الى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة
وأما أبو مطيع ، فهو : الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ، ضعفه أحمد ابن حنبل ،
ويحيى بن معين ، وعمر بن علي الفلاس ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ،
وأبو حاتم الرازي ، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي ، والعقيلي ، وابن عدي ،
والدارقطني ، وغيرهم . وأما أبو المهزّم ، الراوي عن أبي هريرة ، وقد تصحّف على
الكتابة ، واسمه : يزيد بن سفيان ، فقد ضعفه أيضاً ، غير واحد ، وتركه شعبة بن
الحجاج ، وقال النسائي : متروك ، وقد اتهمه شعبة بالوضع ، حيث قال : لو
أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً !!

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده
ووالده والناس أجمعين » (٢) . والمرادني الكمال ، ونظائره كثيرة ، وحديث مشعب
الإيمان ، وحديث الشفاعة ، وأنه يخرج من النار من في قلبه ادنى ادنى ادنى مثقال
ذرة من إيمان ، فكيف يقال بعد هذا : ان إيمان أهل السموات والأرض سواء ؟!
وإنما التفاضل بينهم بمكان آخر غير الإيمان ؟! وكلام الصحابة رضي الله عنهم في

(١) موضوع .

(٢) متفق عليه .

السلام للعالم (١) ذكره البخاري رحمه الله في « صحيحه » : وفي هذا المقدار كفاية
وبالله التوفيق :

هذا المعنى كثير أيضاً . منه : قول أبي الدرداء رضي الله عنه : فقير العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقير العبد أن يعلم أن يزداد هو أم ينتقص ، وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه : هلموا نردد إيماناً ، فيذكرون الله تعالى عز وجل : وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم زدنا إيماناً و يقيناً وفقها . وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة . ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه . وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : إنصاف من نفسه ، والإنفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالم (١) ذكره البخاري رحمه الله في « صحيحه » . وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق .

وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة ، فلا يكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان . فلا شك أن الإيمان تارة يذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام ، وتارة يقرن بالعمل الصالح ، وتارة يقرن بالإسلام . فالمطلق مستلزم للأعمال ، قال تعالى : (إنما المؤمنون إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الانفال : ٢ ، الآية . (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الحجرات : ١٥ ، الآية . (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) المائدة : ٨١ . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢) ، الحديث . « لا تؤمنوا حتى تحابوا » (٣) . « من غشنا فليس منا » (٤) . « من حمل علينا السلاح فليس

(١) البخاري في « الإيمان » معلقاً مجزوماً موقوفاً ، ورواه بعضهم مرفوعاً وهو خطأ كما قال أبو زرعة وغيره ذكره الحافظ في « الفتوح » (١ / ٩٠ - طبع مصطفى الحلبي) وقال : « إلا أن مثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع » .

(٢) متفق عليه :

(٣) مسلم :

(٤) مسلم :

منا» (١) : وما أبعد قول من قال : إن معني قوله : « فليس مثلاً » - أي فليس مثلاًنا ! فليت شعري ، فمن لم يغش يكون مثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .
أما إذا عطف عليه العمل الصالح ، فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب : أعلاها : أن يكونا متباينين ، ليس أحدهما هو الآخر ، ولا جزءاً منه ، ولا بينهما تلازم ، كقوله تعالى : (خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) الانعام : ١ . (وأنزل التوراة والإنجيل) آل عمران : ٣ . وهذا هو الغالب ، وبإيه : أن يكون بينهما تلازم ، كقوله تعالى : (ولا تأبسوا الحق بالباطل وتكتنموا الحق وأنتم تعلمون) البقرة : ٤٢ . (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) المائدة : ٩٢ . الثالث : عطف بعض الشيء عليه ، كقوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) البقرة : ٢٣٨ . (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) البقرة : ٩٨ . (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك) الأحزاب : ٧ . وفي مثل هذا وجهان : أحدهما : أن يكون داخلاً في الأول ، فيكون مذكوراً مرتين . والثاني : أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا ، وإن كان داخلاً فيه منفرداً ، كما قيل مثل ذلك في لفظ « الفقراء والمساكين » ونحوهما ، تتنوع دلالاته بالإنفراد والإقتران . الرابع : عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين ، كقوله تعالى : (غافر الذنب وقابل التوب) غافر : ٣ . وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط ، كقوله :

فألقى قولها كذباً وميناً

ومن الناس من زعم أن في القرآن من ذلك قوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) المائدة : ٤٨ . والكلام على ذلك معروف في موضعه .
فإذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه ، نظرنا في كلام الشارع :

(١) مسلم :

كيف ورد فيه الإيمان فوجدناه إذا اطلق يراد به ما يراد بلفظ البر ، والتقوى ،
والدين ، ودين الإسلام . ذكر في أسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان ؟ فأنزل
الله هذه الآية : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) البقرة :
١٧٧ ، الآيات . قال محمد بن نصر : حدثنا إسحق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله بن يزيد
المقريء ، والملائي ، قالا : حدثنا المسعودي ، عن القاسم ، قال : جاء رجل الى ابي
ذر رضي الله عنه ، فسأله عن الإيمان ؟ فقراً : (ليس البر أن تولوا وجوهكم)
البقرة : ١٧٧ ، إلى آخر الآية ، فقال الرجل : ليس عن هذا سألتك ، فقال : جاء
رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني عنه ، فقراً / عليه / الذي
قرأت عليك ، فقال له الذي قلت لي ، فلما أبى أن يرضى ، قال : « إن المؤمن
الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها ، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها » (١)
وكذلك أجاب جماعة من السلف بهذا الجواب . وفي « الصحيح » قوله لو قد عبد
القيس : « أمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله الا
الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من
المغنم » (٢) . ومعلوم أنه لم يُرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب
لما قد أنخبر في مواضع أنه لا بد من إيمان القلب ، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو
الإيمان . وأي دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فوق هذا الدليل ؟

(١) ضعيف بهذا السياق والاسناد ، وعلته الانقطاع ، واختلاط المسعودي ،
لكن صح الحديث من رواية أبي أمامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله رجل
فقال : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « اذا سرتك حسنتك ، وساءتلك سيئتك
فأنت مؤمن » ، قال : يا رسول الله ما الاثم ؟ قال : « إذا حاك في صدرك شيء
فدعه » ، رواه الحاكم (١٤/١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وإنما
هو على شرط مسلم وحده ، فإن ممطوراً لم يخرج له البخاري في صحيحه .

(٢) مسلم .

فإنه فسر الإيمان بالأعمال ولم يذكر التصديق ، للعلم بأن هذه الأعمال لانفيد /مغ/
 الجحود . وفي « المسند » عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :
 « الاسلام علانية ، والايمان في القلب » (١) . وفي هذا الحديث دليل على المغايرة
 بين الاسلام والايمان . ويؤيده قوله / في حديث سؤالات جبريل ، في معنى الاسلام
 والايمان . / وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا جبرائيل أنا كم يعلمكم
 دينكم » (٢) . فجعل الدين هو الاسلام والايمان والاحسان ، فتبين أن ديننا يجمع
 الثلاثة . لكن هو درجات ثلاثة : مسلم ، ثم مؤمن ، ثم محسن . والمراد بالايمان
 ما ذكر مع الاسلام قطعاً ، كما أنه أريد بالاحسان ما ذكر مع الايمان والاسلام ، لا
 ان الاحسان يكون مجرداً عن الايمان ، هذا محال . وهذا كما قال تعالى : (ثم
 أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . فمنهم ظالم لنفسه . ومنهم مقتصد . ومنهم
 سابق بالخيرات بإذن الله) فاطر : ٣٢ . والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا
 عقوبة ، بخلاف الظالم لنفسه ، فإنه معرض للوعيد . وهكذا من أتى بالاسلام الظاهر
 مع التصديق بالقلب ، لكن لم يقيم بها يجب عليه من الايمان الباطن فإنه معرض
 للوعيد . فأما الاحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله ، والايمان أعم
 من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الاسلام . فالاحسان يدخل فيه الايمان ،
 والايمان يدخل فيه الاسلام ، والمحسنون أخص من المؤمنين ، والمؤمنون أخص من
 المسلمين . وهذا كالرسالة والنبوة ، فالنبوة داخلة في الرسالة ، والرسالة أعم من
 جهة نفسها وأخص من جهة أهلها ، فكل رسول نبي ، ولا ينعمكس :

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال : فطائفة جمعات

(١) أسنده ضعيف ، فيه علي بن مسعدة ، قال العقيلي في « الضعفاء » قال البخاري
 « فيه نظر » ، وقال عبدالحق الأزدي في « الأحكام الكبرى » (ق ٢/٣) :
 « حديث غير محفوظ » :

(٢) مسلم :

الإسلام هو الكلمة ، وطائفة أجابوا بما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم حين مُسئِل
عن الإسلام والإيمان ، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، والإيمان / بالإيمان/
بالأصول الخمسة (١) . وطائفة جعلوا الإسلام مرادفاً للإيمان ، وجعلوا معنى قول
الرسول صلى الله عليه وسلم : « الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة » (٢) ،
الحديث - : شعائر الإسلام ، والأصل عدم التقدير ، مع أنهم قالوا : إن الإيمان
هو التصديق بالقلب ، ثم قالوا الإسلام والإيمان شيء واحد ، فيكون الإسلام هو
التصديق ! وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة ، وإنما هو الإنقياد والطاعة ، وقد قال
النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم لك أسلمت وبك آمنت » (٣) . وفسر الإسلام
بالأعمال الظاهرة ، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة . فليس لنا إذا جمعنا بينهما
أن نجيب بغير ما أجاب النبي صلى الله عليه وسلم . وأما إذا مُفرد اسم الإيمان فإنه
يتضمن الإسلام ، وإذا مُفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع ، وهذا
هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن ؟ وقد تقدم الكلام فيه .

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان ؟ فيه النزاع المذكور . وإنما وعد الله
بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان ، كما قال تعالى : (ألا إن أولياء الله
لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) يونس : ٦٢ - ٦٣ ،
وقال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض
أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) الحديد : ٢١ وأما اسم الإسلام مجرداً فما عاق به في
القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبه
بعث النبيين ، (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) آل عمران : ٨٥ .

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر ،

(١) مسلم ، وهو حديث جبريل المتقدم آنفاً :

(٢) متفق عليه :

(٣) متفق عليه :

فمثل الاسلام من الايمان ، كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى ، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم ، كشيء واحد . كذلك الاسلام والايمان ، لا إيمان لمن لا اسلام له ، ولا اسلام لمن لا إيمان / له / إذ لا يخلو المؤمن من اسلام به يتحقق إيمانه ، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه . ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة ، أعني في الأفراد والاقتران ، منها : لفظ الكفر والنفاق ، فالكفر إذا ذكر ، نمرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون ، كقوله تعالى : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) المائدة : ٥ . ونظائره كثيرة . وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره ، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه . وكذلك لفظ البر والتقوى ، ولفظ الإثم والعدوان ، ولفظ التوبة والاستغفار ، ولفظ الفقير والمسكين ، وأمثال ذلك :

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان ، قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الحجرات : ١٤ ، الى آخر السورة . وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية : (قولوا أسلمنا) الحجرات : ١٤ - : انقصدنا بظواهرنا ، فهم منافقون في الحقيقة ، وهذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة . وأجيب بالقول الآخر ، ومرجح وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان ، لأنهم منافقون ، كما نفي الإيمان عن القاتل ، والزاني ، والسارق ، ومن لا أمانة له . ويؤيد هذا سياق الآية ، فإن السورة من أولها الى هنا في النهي عن المعاصي ، وأحكام بعض العصاة ، ونحو ذلك ، وليس فيها ذكر المنافقين . ثم قال بعد ذلك : (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من أفعالكم شيئاً) الحجرات : ١٤ ، ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة ، ثم قال : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الحجرات : ١٥ ، الآية ، يعني - والله أعلم - أن المؤمنين الكاملي الإيمان ، هم هؤلاء ، لا أنتم ، بل أنتم منتف عنكم الإيمان الكامل . يؤيد هذا : أنه أمرهم ، أو اذن لهم ، ان يقولوا :

اسلمنا ، والمنافق لا يقال له ذلك ، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الاسلام ، كما نفى عنهم الايمان ، ونهاهم ان يمتدوا بإسلامهم ، فأثبت لهم اسلاماً ، ونهاهم ان يمتدوا به على رسوله ، ولو لم يكن اسلاماً صحيحاً لقال لم تسلموا ، بل انتم كاذبون ، كما كذبهم في قولهم : (نشهد انك لرسول الله) المنافقون : ١ . والله اعلم بالصواب : وينتفي بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف ، وتشنيع من الزم بأن

الاسلام لو كان / هو / الأمور الظاهرة لكان ينبغي ان لا يقابل بذلك ، ولا يقبل ايمان المخلص ! وهذا ظاهر الفساد ، فإنه قد تقدم تنظير الايمان والاسلام بالشهادتين وغيرهما ، وأن حالة الاقتران غير حالة الانفراد . فانظر الى كلمة الشهادة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله » (١) ، الحديث ، فلو قالوا : لا إله الا الله وأنكروا الرسالة - : / ما / كانوا يستحقون العصمة ، بل لابد أن يقولوا : لا إله الا الله قائمين بحقها ، ولا يكون قائماً بـ « لا إله الا الله » حق القيام ، إلا من صدق بالرسالة ، وكذا من شهد أن محمداً رسول الله ، / لا يكون قائماً بهذه الشهادة حق القيام ، إلا من صدق هذا الرسول في كل ما جاء به . فتضمنت التوحيد وإذا ضمنت شهادة أن لا إله الا الله الى شهادة أن محمداً رسول الله - كان المراد من شهادة أن لا إله الا الله إثبات التوحيد ومن شهادة أن محمداً رسول الله إثبات الرسالة . كذلك الاسلام والايمان : إذا قرن أحدهما بالآخر ، كما في قوله تعالى : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الاحزاب : ٣٥ . وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لك أسلمت وبك آمنت » (٢) كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر . وكما قال صلى الله عليه وسلم : « الاسلام علانية ، والايمان في القلب » (٣) . وإذا أنفرد أحدهما شمل معنى الآخر

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه :

(٣) ضعيف كما سبق آنفاً .

وحكمه ، وكما في الفقير والمسكين ونظائره ، فإن لفظي الفقير والمسكين إذا اجتماعا افترقا ، وإذا افترقا اجتماعا ، فهل يقال في قوله تعالى : (فإطعموا عشرة مساكين) المائدة : ٨٩ - أنه يعطى المقل دون المعدم ، أو بالعكس ؟ وكذا في قوله تعالى : (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) البقرة : ٢٧١ .

ويندفع أيضاً تشنيع من قال : ما حكم من آمن ولم يسلم ؟ أو أسلم ولم يؤمن ؟ في الدنيا والآخرة ؟ فن أثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله ويقال له في مقابلة تشنيعه : أنت تقول : المسلم هو المؤمن ، والله تعالى يقول : (إن المساكين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الأحزاب : ٣٥ ، فجعلهما غيرين ، وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك عن فلان والله أني لأراه مؤمناً ؟ قال : « أو مسلماً » (١) ، قالها ثلاثاً ، فأثبت له الإسلام وتوقف في اسم الايمان ، فن قال : هما سواء - كان مخالفاً ، والواجب رد موارد النزاع الى الله ورسوله . وقد يترأى في بعض النصوص معارضة ، ولامعارضة بحمد الله تعالى ، ولكن الشأن في التوفيق ، وبالله التوفيق .

وأما الاحتجاج بقوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) الذاريات : ٣٥-٣٦ - على ترادف الإسلام والإيمان ، فلا حجة فيه ، لأن البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان ، ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما .

والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رضي الله عنه ، وإنها هي من الأصحاب ، فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة ! وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن زيد / وأن حماد بن زيد لما روي له حديث : أي الإسلام أفضل (٢) الى آخره ، قال له : ألا تراه يقول : أي الإسلام أفضل ، قال : الايمان ،

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

ثم جعل الهجرة والجهاد من الايمان ؟ فسكت أبو حنيفة ، فقال بعض أصحابه :
ألا تجيبه يا أبا حنيفة ؟ قال : بما أجيبه ؟ وهو يحدثني بهذا عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

ومن ثمرات هذا الاختلاف : مسألة الاستثناء في الايمان ، وهو أن يقول
/أي/ الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله . والناس فيه على ثلاثة أقوال : طرفان ووسط ،
منهم من يوجب ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار ،
وهذا أصح الأقوال .

أما من يوجب فلهم مأخذان : أحدهما : أن الإيمان هو ما مات الانسان
عليه ، والانسان إنما يكون عند الله مؤمناً أو كافراً باعتبار الموافقة وما سبق في علم
الله انه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به ، قالوا : والإيمان الذي يعقبه الكفر
فيموت صاحبه كافراً :- ليس بإيمان ، كالصلاة التي افسدها صاحبها قبل الكمال ،
والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب ، وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم ،
وعند هؤلاء ان الله يحب في الأزل من كان كافراً إذا علم منه انه يموت مؤمناً ،
فالصحابة ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم ، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله
يغضبه وإن كان لم يكفر بعد ! وليس هذا قول السلف ، ولا كان يقول بهذا من
يستثنى من السلف في إيمانه ، وهو فاسد ، فإن الله تعالى قال : (قل إن كنتم تحبون
الله فاتبعوني يحببكم الله) آل عمران : ٣١ ، فأخبر انهم يحبهم إن اتبعوا الرسول ،
فاتباع الرسول شرط المحبة ، والمشروط يتأخر عن الشرط ، وغير ذلك من الأدلة .
ثم صار الى هذا القول طائفة غلوا فيه ، حتى صار الرجل منهم يستثنى في الأعمال
الصالحة ، يقول : صابت إن شاء الله ! ونحو ذلك ، يعني القبول . ثم صار كثير
منهم يستثنون في كل شيء ، فيقول احدهم : هذا ثوب إن شاء الله ! هذا حبل إن
شاء الله ! فإذا قيل لهم : هذا لاشك فيه ؟ يقولون : نعم ، لكن إذا شاء الله ان
يغيره غيره !! المأخذ الثاني : ان الإيمان المطلق يتضمن فعل ما امر الله به وعنه

نكاهه ، وترك ما نهاه عنه ككله ، فإذا قال الرجل : أنا مؤمن ، بهذا الاعتبار :- فقد شهد لنفسه انه من الأبرار المتقين ، القائمين بجميع ما امروا به ، وترك كل ما نهوا عنه ، فيكون من أولياء الله المقربين ! وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغي ان يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال . وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون ، وإن جوزوا ترك الاستثناء ، بمعنى آخر ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى . ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه ، كما قال تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) الفتح : ٢٧ . وقال صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر : « ولما إن شاء الله بكم لاحقون » (١) . وقال أيضا : « إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله » (٢) ونظائر هذا .

وأما من يجرمه ، فكل من جعل الإيمان شيئاً واحداً ، فيقول : أنا أعلم أني مؤمن ، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين ، فقولي : أنا مؤمن . كقولي : أنا مسلم . فمن استثنى في إيمانه فهو شك فيه ، وسموا الذين يستثنون في إيمانهم الشككاكة . وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) الفتح : ٢٧ - بأنه يعود الى الأمن والخوف ، فأما الدخول فلا شك فيه ! وقيل : لتدخلن جميعكم أو بعضكم ، لأنه علم أن بعضهم يموت ! وفي كلا الجوابين نظر : فإنهم وقعوا فيما فروا منه ، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين ، مع عامه بذلك ، فلا شك في الدخول ، ولا في الأمن ، ولا في دخول الجميع أو البعض ، فإن الله قد علم من يدخل فلا شك فيه أيضا ، فكان قول : إن شاء الله هنا تحقيقاً للدخول ، كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لاحالة : والله لأفعلن كذا إن شاء الله ، لايقولها لشك في إرادته وعزمه ، ولكن لأنها لا يحنث

(١) مسلم :

(٢) مسلم ، والبخاري نحوه :

الحالف في مثل هذه اليمين لأنه لا يجزم بحصول مراده . وأجيب بجواب آخر لا بأس به ، وهو : أنه قال /ذلك/ تعليماً لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل . وفي كون هذا المعنى مراداً من النص - نظر فإنه ما سيق الكلام الا أن يكون مراداً من اشارة النص . وأجاب الزمخشري بجوابين آخرين باطلين ، وهما : أن يكون الملك قد قاله ، فأثبت قرآناً ! أو أن الرسول قاله !! فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله ! فيدخل في وعيد من قال : (ان هذا الا قول البشر) المدثر : ٢٥ . نسأل الله العافية .

وأما من يجوز الاستثناء وتركه ، فهم أسعد بالدليل من الفريقين ، وخير الأمور أوسطها : فإن أراد المستثني الشك في أصل ايمانه منع من الاستثناء ، وهذا مما /لا/ خلاف فيه . وان أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) الانفال : ٢-٤ ، وفي قوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) الحجرات : ١٥ . فالاستثناء حينئذ جائز . وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة ، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بحشيشة الله ، لاشكاً في ايمانه . وهذا القول في القوة كما ترى .

قوله : وجميع ما صعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرح والبيان كله حق . يشير الشيخ رحمه الله بذلك الى الرد على الجهمية ومن وافقتهم القائلين بأن الأخبار قسمان : متواتر وآحاد ، فالمتواترة - وان كان قطعي السند - لكنه غير قطعي الدلالة ، فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين !! ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات ! قالوا : والآحاد لا تفيد العلم ، ولا يحتج بها من جهة طريقها ، ولا من جهة متنها ! فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة

الرسول ، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ، ومقدمات خيالية (١) ، سموها قواطع عقلية ، وبراهين يقينية !! وهي في التحقيق (كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه ، موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكده يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) النور : ٣٥ - ٤٠ . ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي ، وعزلوا لأجلها النصوص ، فأقمرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ، ولم يظفروا (١) بالعقول الصحيحة المؤيدة بالقطرة السليمة والنصوص النبوية . ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح ، الموافق للنظرة السليمة .

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته ، وما ظننه معقولاً . : فما وافقه قال : انه محكم ، وقبله واحتج به !! وما خالفه قال : انه متشابه ، ثم رده ، وسمى رده تفويضاً ! أو حرفه ، وسمى تحريفه تأويلاً !! فلذلك اشتد انكار أهل السنة عليهم :

وطريق أهل السنة : أن لا يبعدوا عن النص الصحيح ، ولا يعارضوه بمعقول ، ولا قول فلان ، كما أشار اليه الشيخ رحمه الله . وكما قال البخاري رحمه الله سمعت الحميدي يقول ، كنا عند الشافعي رحمه الله ، فأتاه رجل فسأله عن مسألة ، فقال قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ، فقال رجل للشافعي : ما تقول أنت ؟ فقال : مباحن الله ! تراني في كنيسة ! تراني في بيعة ! تراني على وسطى زنار ؟! أقول لك : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانت تقول : ما تقول أنت ؟! ونظائر ذلك في كلام الساف كثير . وقال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الاحزاب : ٣٦ .

(١) في الاصل : ولم يظفروا بقضايا .

وخبر الواحد اذا تلقته الأمة بالقبول ، عملاً به وتصديقاً له - : يفيد العلم / اليقيني / عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمي المتواتر . ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انما الأعمال بالنيات (١) ، وخبر ابن عمر رضي الله عنهما : « نهى عن بيع الولاء وهبته » (٢) ، وخبر أبي هريرة : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » (٣) ، وكقوله : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (٤) ، وأمثال ذلك . وهو نظير خبر الذي أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت الى الكعبة ، فاستنداروا اليها (٥) :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسله آحاداً ، ويرسل كتبه مع الآحاد ، ولم يكن المرسل اليهم يقولون لانقبله لأنه خبر واحد ! وقد قال تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) التوبة : ٣٣ . فلا بد أن يحفظ الله حججه وبياناته على خلقه ، لئلا تبطل حججه وبياناته :

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته ، وبين حاله للناس : قال سفيان بن عيينة : ما ستر الله أحداً يكذب في الحديث . وقال عبد الله بن المبارك : لو هم رجل في البحر (٦) ان يكذب في الحديث ، لأصبح والناس يقولون : فلان كذاب . وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصدق والكذب - ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد ان يكون معظم اوقاته

(١) متفق عليه :

(٢) متفق عليه :

(٣) متفق عليه :

(٤) متفق عليه :

(٥) متفق عليه :

(٦) في الاصل : السجن :

مشتغلاً بالحديث، والبحث عن سير الرواة، ليقف على أحوالهم وأقوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وكانوا بحيث لو قتلوا لم يساحوا أحداً في كلمة يتقوها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك. وقد نقوا هذا الدين إلينا كما نقل إليهم، فهم ترمك الإسلام (١) وعصابة الإيمان، وهم نقاد الأخبار، وصيارفة الأحاديث. فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم، وعرف حالهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم -: ظهر له العلم فيما نقاه ورووه. ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم / من / العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره، ما ليس لخبرهم به شعور، فضلاً أن يكون مجاوماً لهم أو مظلوماً. كما أن النحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عندهم غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عندهم غيرهم، وكل ذي صنعة هو أخبر بها من غيره، فلو سألت البقال عن امر العطر، أو العطار عن البز، ونحو ذلك !! لقد ذلك جهلاً كبيراً.

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ - مستنداً لهم في رد الأحاديث الصحيحة، فكلماء جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم، وما وضعته (٢) خواطرهم وأفكارهم - ردوه به (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١، تلبساً منهم وتدليساً على من هو أعمى قلباً منهم، وتحريفاً لمعنى الآي عن مواضعه. ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله، ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام، أنه (٣) يقتضي أثباتها التمثيل بها (٤) للمخاوقين !

(١) « ترك » بضم التاء المثناة والراء : جمع « تريكة » بفتح التاء وكسر الراء، وهي بيضة الحديد للرأس، يريد أنهم دروع الإسلام وحفظته :

(٢) في الأصل : وصفته .

(٣) في الأصل : أنها .

(٤) في الأصل : بها .

ثم استدلووا على بطلان ذلك بـ (ليس تمثله شيء) الشورى : ١١ تحريفاً للنصين !!
ويصنفون الكتب ، ويقولون : هذا اصول دين الاسلام الذي امر الله به وجاء من
عنده ، ويقرأون كثيراً من القرآن ويفوضون معناه الى الله تعالى ، من غير تدبر
لمعناه الذي بيّنه الرسول ، وأخبر انه معناه الذي أراده الله . وقد ذم الله تعالى أهل
الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث ، وقص ذلك علينا من خبرهم لنعبر
ونزجر عن مثل طريقتههم . فقال تعالى : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان
فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون) البقرة :
٧٥ ، الى أن قال : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، وإن هم إلا
يظنون) البقرة : ٧٨ . والأماضي : التلاوة المجردة ، ثم قال تعالى : (فويل للذين
يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل
لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون) البقرة : ٧٩ . فذمهم على نسبة ما
كتبوه الى الله ، وعلى اكتسابهم بذلك ، فكلا الوصفين ذمهم : أن ينسب الى الله ما
ليس من عنده ، وأن يأخذ بذلك عوضاً من الدنيا مالا أو رياسة . نسأل الله تعالى
أن يعصمنا من الزلل ، في القول والعمل ، بهمه وكرمه .

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله : من الشرع والبيان . الى أن ما صبح عن النبي
صلى الله عليه وسلم نوعان : شرع ابتدائي ، وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز ،
وجميع ذلك حق واجب الاتباع . وقوله : وأهله في أصاه سواء ، والتفاضل بينهم
بالحقيقة ومخالفة الهوى ، وملازمة الأولى . وفي بعض النسخ : بالخشية والتقوى
بدل قوله : بالحقيقة . ففي العبارة الأولى يشير الى أن الكل مشتركون في أصل
التصديق ، ولكن التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت ، كما تقدم نظيره
بقوة البصر وضعفه . وفي العبارة الأخرى يشير الى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال
القلوب ، وأما التصديق فلا تفاوت فيه . والمعنى الأول أظهر قوة ، والله أعلم
بالصواب :

قوله : (والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن) :

ش : قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) يونس : ٦٢ - ٦٣ الآية . الولي : من الولاية بفتح الواو ، التي هي ضد العداوة . وقد قرأ حمزة : (مالكم من ولايتهم من شيء) الانفال : ٧٢ ، بكسر الواو ، والباءقون بفتحها . وقيل : هما لغتان . وقيل : بالفتح النصره ، وبالكسر الإمارة . قال الزجاج : وجاز الكسر ، لأن في تولي / بعض / القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل ، وكل ما كان كذلك مكسور ، مثل : الخياطة ونحوها . فالمؤمنون أولياء الله ، والله تعالى وليهم ، قال الله تعالى : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور . / والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات /) البقرة : ٢٥٧ ، الآية . وقال تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) محمد : ١١ . (والمؤمنون / والمؤمنات / بعضهم أولياء بعض) التوبة : ١٧ ، الآية . وقال : تعالى (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) الانفال : ٧٢ ، الى آخر السورة . وقال تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) المائدة : ٥٥ - ٥٦ : فهذه النصوص / كلها / ثبت فيها موالات المؤمنين بعضهم لبعض ، وأنهم أولياء الله ، وأن الله وليهم ومولاهم . فالتولى عبادة المؤمنين ، فيحبهم ويحبونه ، ويرضى عنهم ويرضون عنه ، ومن عادى له ولياً فقد بارزه بالمحاربة . وهذه الولاية من رحمته وإحسانه ، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة اليه ، قال تعالى : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن ولا من الدن) (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن ولا من الدن) (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن ولا من الدن) العزة جميعاً ، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه (١) اذله وحاجته الى ولي ينصره :

(١) في الاصل : يتوالى :

والولاية أيضاً نظير الإيمان ، فيكون مراد الشيخ : أن أهلها في أصلها سواء ، وتكون كاملة وناقصة : فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ، فـ « الذين آمنوا وكانوا يتقون » - منصوب على أنه صفة أولياء الله ، أو بدل منه ، أو بإضمار أمدح ، أو مرفوع بإضمار « هم » ، أو خبر ثان لـ « إن » ، وأجيز فيه الجر ، بدلا من ضمير « عليهم » . وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم أهل الوعد المذكور في الآيات الثلاث . وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ، ولا تملق ولا رياضة . وقيل : الذين آمنوا مبتدأ ، والخبر : لهم البشرى ، وهو بعيد ، لقطع الجملة عما قبلها ، وانتثار نظم الآية .

ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه ، وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان . وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة ، ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع ، كما تقدم في الإيمان . ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى - أولى من موافقته في المعنى وحده ، قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) يوسف : ١٠٦ وقال تعالى : (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الحجرات : ١٤ ، الآية . وقد تقدم الكلام على هذه الآية ، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين . وقال صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » (١) . وفي رواية « وإذا ائتمن خان » بدل : « وإذا وعد أخلف » . أخرجاه في « الصحيحين » . وحديث : « شعب الإيمان » تقدم . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من

(١) متفق عليه وسبق :

إِيمَانٌ» (١) . فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يَخُد في النار ، وإن كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذب في النار على قدر / مامعه / من ذلك ، ثم يُخرج من النار . فالطاعات من شعب الإيمان ، والمعاصي من شعب الكفر ، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود ، ورأس شعب الإيمان التصديق . وأما ما يروى مرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله ، لا هم يدرون به ، ولا هو يدري بنفسه » (٢) - : فلا أصل له ، وهو كلام باطل ، فإن الجماعة قد يكونون كفاراً ، وقد يكونون فساقاً يوتنون على الفسق . وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة) يونس : ٦٢ - ٦٤ ، الآية . والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى : (ولكن الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) ، الى قوله : (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) البقرة : ١٧٧ . وهم قسمان : مقتصدون ، ومقربون . فالمقتصدون : الذين يتقربون الى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح . والسابقون : الذين يتقربون الى الله بالتوافل بعسد الفرائض . كما في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ، حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت

(١) متفق عليه :

(٢) باطل لا أصل له كما قال المؤلف :

وأكرهه مسأته» (١) . والولي : خلاف (٢) العدو ، وهو مشتق من الولاء ، وهو الدنو والتقرب ، فولي الله : هو من وإلى الله بموافقته محبوباته ، والتقرب إليه بمريضاته وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق : ٢ - ٣ . قال أبو ذر رضي الله عنه : لما نزلت الآية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أباذر ، لو عمل الناس بهذه الآية لكفنتهم » (٣) . فالمتقون يجعل الله لهم مخرجاً مما ضايق على الناس ، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ، فيدفع الله عنهم المضار ، ويجلب لهم المنافع ، ويعطيهم الله أشياء بطول شرحها ، من المكاشفات والتأثيرات .

قوله : (وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن) :

ش : أراد أكرم المؤمنين هو الاطوع لله والأتبع للقرآن ، وهو الأتقى ، والأتقى هو الأكرم ، قال تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات : ١٣ : وفي « السنن » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض » : إلا بالتقوى ، الناس من آدم ، وآدم من تراب » (٤) . وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر ، وترجيح أحدهما على الآخر ، وأن التحقيق أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى ، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال

(١) رواه البخاري دون مسلم . لفظ المبارزة لم يروه البخاري وإنما هو من رواية غيره عن أبي امامة بسند فيه ضعيفان كما ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ص (٢٦١) .

(٢) في الأصل : من القرب :

(٣) ضعيف ، رواه أحمد وأحمد بالحكم بسند فيه انقطاع :

(٤) صحيح ، لكن عزوه للسنن وهم ، فإنه لم يروه أحد منهم وإنما هو في مستند الإمام أحمد :

والحقائق ، فالمسألة فاسدة في نفسها . فإن التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان ، لا بفقر ولا غنى . ولهذا - والله اعلم - قال عمر رضي الله عنه : الغنى والفقر معطيتان ، لا أبالي أيهما ركبت . والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده ، كما قال تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربني أكرمن) الفجر : ١٥ ، الآية . فإن استويا ، الفقير الصابر والغني الشاكر - في التقوى ، استويا في الدرجة ، وإن فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله ، فإن الفقر والغنى لا يوزنان ، وإنما يوزن الصبر والشكر : ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر : وهو أن الإيمان / نصف / صبر ونصف شكر ، فكل منهما لابد له من صبر وشكر وإنما أخذ الناس فرعاً من الصبر وفرعاً من الشكر ، واخذوا في الترجيح ، فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله في وجوب القرب شاكر الله عليه ، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله ولأداء العبادات صابراً على فقره . وحينئذ يقال : إن اكملهما اطوعهما واتبعهما ، فإن تساويا تساوت درجتها . والله اعلم . ولو صح التجريد ، لصح أن يقال : ايها افضل معافى شاكر ، او مريض صابر ، او مطاع شاكر ، او مهان صابر ، او آمن شاكر ، او خائف صابر ؟ ونحو ذلك :

قوله : (والإيمان : هو الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، من الله تعالى) :

ش : تقدم أن هذه الخصال هي أصول الدين ، وبها أجاب النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبرائيل المشهور المتفق على صحته ، حين جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة رجل أعرجي ، وسأله عن الإسلام ؟ فقال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلاً » (١) : وسأله عن الإيمان ؟ فقال :

(١) متفق عليه ، وقد تقدم :

« أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره » . وسأله عن الإحسان ؟ فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وقد ثبت كذلك في « الصحيح » عنه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص : (قل يا أيها الكافرون) الكافرون : ١ ، و (قل هو الله أحد) الإخلاص : ١ . وتارة بآيتي الإيمان والاسلام : التي في سورة البقرة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) البقرة : ١٣٦ ، الآية ، والتي في آل عمران : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) (١) آل عمران : ٦٤ ، الآية . /و/ فسر صلى الله عليه وسلم الإيمان في حديث وقد عبد القيس ، المتفق على صحته ، حيث قال لهم : « أمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم » (٢) . ومعلوم أنه لم يرد /أن/ هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب . فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان ، وقد تقدم الكلام على هذا .

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق ، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة ، فإن تلك إنما فسرتها السنة ، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة . فمن الكتاب قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الانفال : ٢ ، الآية . وقوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الحجرات : ١٥ ، الآية . وقوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) النساء : ٦٥ ، ففني الإيمان حتى توجد هذه

(١) مسلم .

(٢) متفق عليه .

الغاية - : دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان من اهل الوعيد / و / لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب ، الذي وُعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب : ولا يقال ان بين تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان في حديث جبرائيل وتفسيره آياه في حديث وفد عبد القيس معارضة ، لأنه فسر الإيمان في حديث جبرائيل بعد تفسير الإسلام ، فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام ، كما ان الاحسان متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره . بخلاف حديث وفد عبد القيس ، لأنه فسر ابتداء ، لم يتقدم قبله تفسير الإسلام . ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الإيمان ، فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه :

ومما يسأل عنه : أنه اذا كان ما اوجبه الله من الأعمال الظاهرة اكثر من الخصال الخمس التي أجاب / بها / النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبرائيل المذكور ، فلم قال ان الاسلام هذه الخصال الخمس ؟ وقد أجاب بعض الناس بأن هذه اظهر شعائر الاسلام وأعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لما يشعر بالخلال قيد انقياده . والتحقيق : ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطاقاً ، الذي يجب لله / على / عباده محضه على الأعيان ، فيجب على كل من كان قادراً عليه ، ليعبد الله مخلصاً له الدين ، وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فإنها يجب بأسباب مصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل اما ان يكون فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يتبع ذلك من اماره ، وحكم ، وفتيا ، واقراء ، وتحديث ، وغير ذلك . وأما ما يجب (١) بسبب حق الآدميين ، فيختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط بإسقاطه ، من قضاء الديون ، ورد الأمانات والغصوب ، والإنصاف من المظالم ، من الدماء والأموال والأعراض ، وحقوق الزوجة والاولاد ، وصلة الارحام ،

(١) في الاصل : أن يجب .

ونحو ذلك ، لأن الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو . بخلاف الصوم
 رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة ، فإن الزكاة وإن كانت حقاً ، إلا
 فإنها واجبة لله ، والأصناف الثمانية مصارفها ، ولهذا وجبت فيها النية ، ولم يجز أن
 يفعلها الغير بلا إذنه . ولم تطلب من الكفار . وحقوق العباد لا يشترط لها النية ، ولو
 أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ، ويطالب بها الكفار . وما يجب حقاً لله تعالى ،
 كالكفارات ، هو بسبب من العبد ، وفيها معنى العقوبة ، ولهذا كان التكليف شرطاً
 في الزكاة . فلا تجب على الصغير والمجنون عند أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى ،
 على ما عرف في موضعه .

وقوله : والقدر خيره وشره . وحاوه ومره ، من الله تعالى . تقدم قوله
 صلى الله عليه وسلم في حديث جبرائيل : « وتؤمن بالقدر خيره وشره » (١)
 وقال تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) التوبة : ٥٢ . وقال تعالى :
 (إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من
 عندك ، قل كل من عند الله . فإلؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) النساء :
 ٧٨ ، (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) النساء :
 ٧٩ ، الآية .

فإن قيل : فكيف الجمع بين قوله : « كل من عند الله » النساء : ٧٨ ، وبين
 قوله : « فمن نفسك » ؟ النساء : ٧٩ ، قيل : قوله : « كل من عند الله » : الخصب
 والجذب ، والنصر والخزيمة ، / كلها من عند الله / ، وقوله : « فمن نفسك » : أي
 ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك ، كما قال تعالى : (وما أصابكم
 من مصيبة فبا كسبت أيديكم) الشورى : ٣٠ . يدل على ذلك ما روي عن ابن
 عباس رضي الله عنه : أنه قرأ : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) النساء : ٧٩ ،

(١) متفق عليه على التفصيل المشار اليه قبل قليل .

(وأنا كتبتها عليك) . والمراد بالجنة هنا النعمة ، وبالسيئة البلية ، في الأصح الأقوال . وقد قيل : الحسنة الطاعة ، والسيئة المعصية . /و/ قيل : الحسنة ما أصابه يوم بامر ، والسيئة ما أصابه يوم أحد . والقول الأول شامل للمعنى القول الثالث : والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً ، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن الجميع مقدر ، فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل ، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة . وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى : « فنفسك » ، فإنهم يقولون : إن فعل العبد - حسنة كان أو سيئة - فهو منه لا من الله ! والقرآن قد فرق بينهما ، وهم لا يفرقون ، ولأنه قال تعالى : (كل من عند الله) ، فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله ، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال ، بل في الجزاء . وقوله بعد هذا : « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » ، /مثل قوله : « وإن تصبهم حسنة » و « إن تصبهم سيئة » / . وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم ، وبين السيئات التي هي المصائب ، فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ، لأن الحسنة مضافة إلى الله ، إذ هو أحسن بها من كل وجه ، فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه ، وأما السيئة ، فهو إنما يخلقها لحكمة ، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحصائه ، فإن الرب لا يفعل سيئة قط ، بل فعله كله حسن وخير :

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الاستفتاح : « والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك » . أي : فإنك لا تخلق شرّاً محضاً ، بل كل ما يخلقه ففيمه حكمة ، هو باعتبارها خيره ، ولكن قد يكون فيه شرٌ لبعض الناس ، فهذا شرٌ جزئي إضافي ، فأما شرٌ كلي ، أو شرٌ مطلق - : فالرب سبحانه وتعالى منزّه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس إليه ، ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط ، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله تعالى : (الله خالق كل شيء) الرعد : ١٨ ،

(كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ) النساء : ٧٨ ، وإما أن يضاف إلى السبب ، فقولُه : (مَنْ شَرَّ مَا خَلَقَ) الفلق : ٢ ، وإما أن يحذف فاعله ، كقول الجن : (وَإِنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) الجن : ١٠ ، وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة ، بل لله من الرحمة والحكمة لا يقدر قدره إلا الله تعالى ، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة . يكون شراً كلياً / عاماً / ، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً أو مصلحة للعباد ، كالمطر العام ، وكإرسال رسول عام . وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذباً عليه بالمعجزات التي أيد بها الصادقين ، فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ، فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرهم . وليس هذا كالمملك الظالم / والعدو ، فإن المملك الظالم / لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه ، وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام ، وإذا قُدر كثرة ظلمه ، فذلك خير في الدين ، كالمصائب ، تكون كفارة لذنوبهم ، ويثابون على الصبر عليه ، ويرجعون فيه إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو . ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة ، وأما المتنبتون الكذابون فلا يطيل تمكينهم ، بل لا بد أن يهلكهم ، لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة ، قال تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) الحاقة : ٤٤-٤٦ .

وفي قوله : « فَنَفْسُكَ » - من الفوائد : أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها ، فإن الشر كامن فيها ، لا يجيء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه ، فإن ذلك من السيئات التي أصابته ، وهي إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع إلى الذنوب ، ويستعيز بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته . فهذا : يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة : (اهدنا الصراط المستقيم :

فصراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الفاتحة : ٥ - ٧ .
 فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . لكن الذنوب هي لوازم نفس الإيمان ، وهو محتاج الى الهدى كل لحظة ، وهو الى الهدى أحوج منه الى الطعام والشراب . ليس كما يقوله بعض المفسرين : انه قد هداه ! فلماذا يسأل الهدى ؟ ! وان المراد التثبيت ، أو مزيد الهداية ! بل العبد محتاج الى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور ، في كل يوم ، وإلى أن يلهمه أن يعمل ذلك . فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً . ومحتاج الى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة ، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، وما لا نقدر عاياه مما نريده كذلك ، وما نعرف جماله ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر . ونحن محتاجون الى الهداية التامة ، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت ، وهي آخر الرتب . وبعد ذلك كله هداية أخرى ، وهي الهداية الى طريق الجنة في الآخرة . ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم اليه ، فليسوا الى شيء أحوج منهم الى هذا الدعاء . فيجب أن يعلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر ، فقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدره الله ، وإن الحسنات كلها من الله تعالى . وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يشكر سبحانه ، وإن يستغفره العبد من ذنوبه ، وألا يتوكل الا عليه وحده ، فلا يأتي بالحسنات الا هو فأوجب ذلك توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب :

وهذه الأمور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة ، كما ثبت عنه في « الصحيح » : انه كان اذا رفع رأسه من الركوع يقول : « ربنا لك الحمد ،

حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه» (١) . «ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اهل الثناء والمجد ، احق ما قاله العبد ، وكلنا لك عبد» (٢) . فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان ان حمده احق ما قاله العبد ، ثم يقول بعد ذلك : «لا مانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» . وهذا تحقيق لوحدهانيته ، لتوحيد الربوبية ، خلقاً وقدرأ ، وبداية ونهاية (٣) ، هو المعطي المانع ، لا مانع لما اعطى ، ولا معطي لما منع ، ولتوحيد الإلهية ، شرعاً وامراً ونهياً ، وان العباد وان كانوا يعطون جداً : ملكاً وعظمة وبخناً ورياسة ، في الظاهر ، او في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة ، فلا ينفع ذا الجد منك الجد ، اي لا ينجيه ولا يخلصه ، ولهذا قال : لا ينفعه منك ، ولم يقل ولا ينفعه عندك لأنه لو قيل ذلك اوهم انه لا يتقرب به اليك ، لكن قد لا يضره . فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، او تحقيق قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) الفاتحة : ٤ ، فإنه لو قدر ان شيئاً من الأسباب يكون مستقلاً بالمطلوب ، وانما يكون بمشيئة الله وتيسيره - : لكان الواجب ان لا يرجى الا الله ، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يسأل الا هو ، ولا يستغاث الا به ، ولا يستعان الا هو ، فله الحمد واليه المشتكى ، وهو المستعان ، وبه المستغاث ، ولا حول ولا قوة الا به . فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب ، بل لا بد من انضمام اسباب اخر اليه ، ولا بد ايضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه ، حتى يحصل المقصود ، فكل سبب فله شريك ، وله ضد ، فإن لم

(١) البخاري ، لكن ليس من فعله صلى الله عليه وسلم ، بل انه سمع رجلاً يقول ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد رايت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها ايهم يكتبها اولاً » .

(٢) صحيح متفق عليه ، وهو حديث آخر ، والمصنف دججه بالأول ، فأوهم انها حديث واحد !

(٣) في الاصل : وهداية .

يعاونه شريكه ، ولم ينصرف عنه ضده - : لم تحصل شئته . والمطر وحده لا ينبت النبات الا بما ينضم اليه من الهواء والتراب وغير ذلك ، ثم الزرع لا يتم حتى تنصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لا يغذي الا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى ، ومجموع ذلك لا يفيد ان لم تنصرف عنه المفسدات .

والمخلوق الذي يعطيك او ينصرك ، فهو - مع ان الله يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل - : فلا يتم ما يفعله الا بأسباب كثيرة ، خارجة عن قدرته ، تعاونه على مطلوبه ، ولو كان ملكاً مطاعاً ، ولا بد ان يصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمنعها ، فلا يتم المطلوب الا بوجود المقتضي وعدم المانع :

وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضي ، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتض تام ، وان سمي مقتضياً ، وسمي سائر ما يعينه شروطاً - فهذا نزاع لفظي : واما ان يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل :

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله ، وعلم انه لا يستحق ان يسأل غيره ، فضلاً عن ان يعيد غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يرجي غيره :

قوله : (ونحن مؤمنون بذلك كله ، لا نفرق بين احد من رسله ، ونصدقهم كلهم على ما جاؤوا به) .

ش : الإشارة بذلك الى ما تقدم مما يجب الإيمان به تفصيلاً ، وقوله : لا نفرق بين احد من رسله ، الى آخر كلامه - اي : لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بهم ونصدقهم - كلهم ، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض ، كافر بالكل . قال تعالى : (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً . اولئك هم الكافرون حقاً) النساء : ١٥٠ - ١٥١ . فإن

المعنى الذي لأجله (١) آمن بمن آمن / به / منهم - موجود في الذي لم يؤمن به ، وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق / بقية / المرسلين ، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافراً بمن في زعمه انه مؤمن به ، لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم ، فكان كافراً حقاً ، وهو يظن انه مؤمن ، فكان من الأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا .

قوله : (واهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون ، اذا ماتوا وهم موحدون ، وان لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين . وهم في مشيئته وحكمه ، ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضلهم ، كما ذكر عز وجل في كتابه : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء : ٤٨ و ١١٦ وإن شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم الى جنته . وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته . اللهم يا ولي الاسلام واهله ، ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به) .

ش : فقوله : وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون - رد لقول الخوارج والمعتزلة ، القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار . لكن الخوارج تقول بتكفيرهم ، والمعتزلة بخروجهم عن الإيمان ، لا بدخولهم في الكفر ، بل لهم منزلة بين منزلتين ، كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله : ولأنكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلّه :

وقوله : وأهل الكبائر من أمة محمد - تخصيصه أمة محمد ، يفهم منه أن أهل الكبائر من أمة غير محمد صلى الله عليه وسلم قبل نسخ تلك الشرائع به ، / حكمهم / مخالف لأهل الكبائر من أمة محمد . وفي ذاك نظر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في الأصل : للرجاء :

أخبر أنه : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » (١) . ولم يخص أمته بذلك ، بل ذكر الإيمان مطاقاً ، فتأمله . وليس في بعض النسخ ذكر الأمة . وقوله : في النار - معمول لقوله : لا يخالدون . وإنما قدمه لأجل السجعة ، لا أن يكون / في النار / خبر لقوله : وأهل الكبائر ، كما ظنه بعض الشارحين .

واختلف العلماء في الكبائر على أقوال ، فقليل : سبعة ، وقيل : سبعة عشر : وقيل : ما اتفقت الشرائع على تحريمه . وقيل : ما يسد باب المعرفة بالله . وقيل : ذهاب الأموال والأبدان . وقيل : سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها : وقيل : لا تعلم أصلاً . أو : إنها أخفيت كإيلة القدر . وقيل : إنها إلى السبعين اقرب : وقيل : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة . وقيل : إنها ما يترتب عليها حد أو متوعد عليها بالنار ، أو اللعنة ، أو الغضب . وهذا أمثل الأقوال . واختلفت عبارات الساف (٢) في تعريف الصغائر : منهم من قال : الصغيرة ما دون الحدين : حد الدنيا وحد الآخرة . ومنهم من قال : كل ذنب لم يُجتم بلعنة أو غضب أو نار : ومنهم من قال : الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة ، والمراد بالوعيد : الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب ، فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا ، أعني المقدرة ، فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب . وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره ، فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة ، كالشرك ، والقتل ، والزنا ، والسحر ، وقذف الحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ، كالفرار من الزحف ، واكل مال اليتيم واكل الربا ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وشهادة الزور ، وأمثال ذلك : وترجيح هذا القول من وجوه : أحدها : أنه هو المأثور عن السلف ، كابن عباس ، وابن عيينه ، وابن حنبل رضي الله عنهم ، وغيرهم . الثاني : أن الله تعالى

(١) متفق عليه .

(٢) في الاصل : عبارة قائله :

قَالَ : (إِنْ تُجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا) النساء : ٣١ . فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أُوْعِدَ بغضب الله ولعنته وناره ، وكذلك من استحق ان يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر .

الثالث : ان هذا الضابط مرجعه الى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب ، فهو حد متلقى من خطاب الشارع . الرابع : ان هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر ، بخلاف تلك الأقوال ، فإن من قال : سبعة ، او سبعة عشرة ، او الى السبعين اقرب - : مجرد دعوى . ومن قال : ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه - : يقتضي ان شرب الخمر ، والفرار من الزحف ، والتزوج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ، ونحو ذلك - ليس من الكبائر ! وان الحبة من مال اليتيم ، والسرقه لها ، والكذبة الواحدة الخفيفة ، ونحو ذلك - : من الكبائر ! وهذا فاسد . ومن قال : ماسد باب المعرفة بالله ، او ذهاب الأموال والأبدان - : يقتضي ان شرب الخمر ، واكل الخنزير والميتة والدم ، وقذف المحصنات - ليس من الكبائر ! وهذا فاسد . ومن قال : إنها سميت كبائر بالنسبة الى مادونها ، او كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة - : يقتضي ان الذنوب في نفسها لا تنقسم الى صغائر وكبائر ! وهذا فاسد ، لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب الى صغائر وكبائر . ومن قال : إنها لا تعلم اصلا او إنها مبهمه - : فلنما اخبر عن نفسه انه لا يعلمها ، فلا يمنع ان يكون قد علم غيره . والله اعلم .

وقوله : وإن لم يكونوا تائبين لأن التوبة لا خلاف انها تمحو الذنوب ، وإنما الخلاف في غير التائب . وقوله : لو قال : عدا ان لقوا الله تعالى عارفين - : لو قال : مؤمنين ، بذلك قوله : عارفين ، كان ا ، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر وإنما اكنفى بالمعرفة وحدها الجهم ، قوله مردود باطل ، كما تقدم . فإن لا بايس عارف بربه ، (قال رب فأنظرني الى م يبعثون) الحجر : ٣٦ . (قال فبعزتك لأغوينهم اجمعين : إلا عبادك منهم ا لمصين) ص : ٨٢ ، ٨٣ . وكذلك فرعون

وأكثر الكافرين . قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لقمان : ٢٥ . (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله) المؤمنون : ٨٤ - ٨٥ . الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى . وكأن الشيخ رحمه الله اراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتمام ، التي يشير اليها اهل الطريقة ، وحاشا اولئك ان يكونوا من اهل الكبار ، بل هم سادة الناس وخاصتهم .

وقوله : وهم في مشيئة الله وحكمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، الى آخر كلامه . فصل الله تعالى بين الشرك وغيره لأن الشرك (١) اكبر الكبائر ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، واخبر الله تعالى ان الشرك غير مغفور ، وعلق غفران مادونه بالمشيئة ، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع ، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى . ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة ، وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به ، غير معلق بالمشيئة ، كما قال تعالى : (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) الزمر : ٥٣ . فوجب ان يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله / قبل التوبة / .

وقوله : ذلك ان الله مولى اهل معرفته - فيه مؤاخذه لطيفة ، كما تقدم . وقوله اللهم يا ولي الإسلام واهله مسكناً (٢) بالإسلام ، وفي نسخة : ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به (٣) - / روى شيخ الإسلام ابو اسماعيل الأنصاري في كتابه « الفاروق » بسنده عن انس رضي الله عنه ، قال : كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا ولي الإسلام واهله ، مسكني بالإسلام حتى القاك عليه » (٤) . ومناسبة

(١) في الاصل : الشرك من .

(٢) في الاصل : مسكننا .

(٣) في الاصل : عليه .

(٤) لم اقف على اسناده ، وما اخاله يصح ، و « كتاب الفاروق » لم نقف عليه

مع الاسف .

نختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة . ويمثل هذا الدعاء دعا يوسف الصديق صلوات الله عليه ، حيث قال : (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفي مساماً والحقني بالصالحين) يوسف : ١٠١ . وبه دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه ، حيث قالوا : (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) الاعراف : ١٢٥ . ومن استدلل بهاتين الآيتين على جواز تمنى الموت فلا دليل له فيه ، فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام ، لا بمطلق الموت ، ولا بالموت الآن ، والفرق ظاهر .

قوله : (ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من اهل القبلة ، وعلى من مات منهم) .

ش : قال صلى الله عليه وسلم : « صلوا خلف كل بر وفاجر » (١) . رواه مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه ، واخرجه الدارقطني ، وقال : مكحول لم يلق ابا هريرة . وفي إسناده معاوية بن صالح ، متكلم فيه ، وقد احتج به مسلم في صحيحه . وخرج له الدارقطني ايضاً وابو داود ، عن مكحول ، عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم ، برأ كان او فاجراً ، وإن عمل بالكبائر ، والجهاد واجب عليكم مع كل امير ، برأ كان او فاجراً ، وإن عمل الكبائر » (٢) . وفي « صحيح البخاري » : ان عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج / بن يوسف / الثقفي ، وكذا انس بن مالك ، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً . وفي صحيحه « صحيحه » ايضاً ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « يصلون لكم ، فإن اصابوا فلكم ولهم ، وإن

(١) ضعيف :

(٢) ضعيف ايضاً .

أخطأوا فلنكم وعليهم» (١) . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « صلوا خائف من قال لا إله إلا الله ، وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله » (٢) . أخرجه الدارقطني من طرق ، وضعفها .

اعلم ، رحمك الله وإيانا : أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقاً ، باتفاق الأئمة ، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ، ولا أن يمتحنه ، فيقول : ماذا تعتقد؟! بل يصلي خلف المستور الحال ، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته ، أو فاسق ظاهر الفسق ، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه ، كإمام الجمعة والعيد ، والإمام في صلاة الحج بعرفة ، ونحو ذلك - : فإن المأموم يصلي خلفه ، عند عامة السلف والخلف . ومن ترك الجمعة والجماعة خالف الإمام الفاجر ، فهو مبتدع عند أكثر العلماء . والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها ، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصيرون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون ، كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف ، وكذلك أنس رضي الله عنه ، كما تقدم ، وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصيرون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان يشرب الخمر ، حتى أنه صلى بهم الصبح مرة أربعاً ، ثم قال : أزيدكم؟! فقال له ابن مسعود : ما زلنا نملك اليوم في زيادة!! وفي « الصحيح » : أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص ، فسأل سائل عثمان : إنك إمام عامة ، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنه؟ فقال : يا ابن أخي ، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس ، فإذا أحسنوا فأحسن معهم ، وإذا أسأؤوا فاجتنب اسماءهم (٣) .

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة ، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل

(١) صحيح ، رواه أحمد أيضاً .

(٢) ضعيف .

(٣) صحيح .

صلاته ، لكن انما كره من كره الصلاة خلفه ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب .

ومن ذلك : ان من اظهر بدعة وفجوراً لا يرتب إماماً للمسلمين ، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب ، فإن امكن هجره حتى يتوب كان حسناً ، واذا كان بعض الناس اذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره اثر ذلك في انكار المنكر حتى يتوب او يعزل او ينتهي الناس عن مثل ذنبه - : فمثل هذا اذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصالحة شرعية ، ولم تفت المأموم الجمعة والجماعة . واما اذا كان ترك الصلاة خلفه ينفوت المأموم الجمعة والجماعة ، فهنا لا يترك الصلاة خلفه الا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم . وكذلك اذا كان الإمام قد رتب له ولاية الأمور ، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية ، فهنا لا يترك الصلاة خلفه ، بل الصلاة خلفه افضل ، فاذا امكن الإنسان ان لا يقدم مظهراً للمنكر في الإمامة ، وجب عليه ذلك ، امكن اذا ولاه غيره ، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة ، او كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة الا بشرا اعظم ضرراً من ضرر ما أظهر من المنكر - : فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفع اخف الضررين بحصول اعظمهما ، فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، بحسب الإمكان . فتفويت الجمع والجماعات اعظم فساداً من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر ، لاسيما اذا كان التخلف عنها لا يدفع فجوراً ، فيبقى تعطيل المصالحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة .

واما اذا امكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر ، فهذا اولى من فعلها خلف الفاجر . وحينئذ ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر ، فهو موضع اجتهاد العلماء : / منهم من قال : يعيد / ، ومنهم من قال : لا يعيد . وموضع بسط ذلك في كتب الفروع .

واما الإمام اذا نسي او اخطأ ، ولم يعلم المأموم بحاله ، فلا إعادة علي المأموم

للحديث المتقدم . وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسياً للجنابة ، فأعاد الصلاة ، ولم يأمر المأمومين بالإعادة . ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة ، أعاد عند أبي حنيفة ، خلافاً لمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه . وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم . وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء !! فليس له أن يصلي خلفه ، لأنه لاعب وليس بمصل .

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر ، وإمام الصلاة ، والحاكم ، وأمير الحرب ، وعامل الصدقة - : يُطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه أن يطيع اتباعه في موارد الاجتهاد ، بل عليهم طاعته في ذلك ، وترك رأيهم لرأيه ، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ، ومفسدة الفرقة والاختلاف ، أعظم من أمر المسائل الجزئية . ولهذا لم يجوز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض : والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض . يروى عن أبي يوسف أنه لما حجَّ مع هرون الرشيد ، فاحتجم الخليفة ، واغتاه مالك بأنه لا يتوضأ ، وصلى بالناس ، فقيل لأبي يوسف : أصليت خلفه ؟ قال : سبحان الله ! أمير المؤمنين . يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولادة الأمور من فعل أهل البدع . وحديث أبي هريرة ، الذي رواه البخاري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُصلون لكم ، فإن أصابوا فلكم ولهم ، وإن أخطأوا فلكم وعليهم » (١) - : نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه ، لا على المأموم . والمجتهد غاية أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجباً ، أو فعل محظوراً اعتقد أنه ليس محظوراً . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه ، وهو حجة على من يُطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقده المأموم وجوبه لم يصح اقتدائه به !!

(١) صحيح ، وتقدم .

وقوله : وعلى من مات منهم - أي ونرى الصلاة على من مات من الأبرار
والفجار ، وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق ، وكذا قاتل نفسه ،
خلافاً لأبي يوسف ، لا الشهيد ، خلافاً لمالك والشافعي رحمهما الله ، على ما عرف في
موضعه لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنا لانترك الصلاة على من مات من أهل
البدع والفجور ، لا للعموم الكلي ، ولكن المظهرون للإسلام قسماً : إما مؤمن ،
وإما منافق ، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ، ومن لم يعلم ذلك منه
صلى عليه . فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه ، وصلى عليه من لم يعلم
نفاقه ، وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة ، لأنه كان في
غزوة تبوك قد عرف المنافقين ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه
وسلم عن الصلاة على المنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره ، وعلى ذلك بكفرهم
بالله ورسوله ، فمن كان مؤمناً بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ، ولو كان له من
الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية أو الفجورية ماله ، بل قد أمره الله تعالى
بالاستغفار للمؤمنين ، فقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك
وللمؤمنين والمؤمنات) مجد : ١٩ . فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه
وللمؤمنين والمؤمنات ، فالتوحيد أصل الدين ، والاستغفار له وللمؤمنين كماله .
فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات ، إما واجب وإما مستحب ، وهو على
نوعين : عام وخاص ، أما العام فظاهر ، كما في هذه الآية ، وأما الدعاء الخاص ،
فالصلاة على الميت ، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصاوا عليه
صلاة الجنازة ، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له ، كما روى أبو داود
وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » (١) .

(١) اسناده جيد .

قوله : (ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً) .

ش : يريد : أنا لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار ، إلا من أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة كالعشرة رضي الله عنهم . وإن كنا نقول : إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ، ولكننا نقف في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم ، لأن الحقيقة باطنة ، وما مات عاياً لا يخطئه لكن نرجو للمحسنين ، ونخاف على المسيئين .

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال : أحدها : أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء ، وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية ، والأوزاعي . والثاني : أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص ، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث . والثالث : أنه يشهد بالجنة هؤلاء ولمن شهد له المؤمنون ، كما في « الصحيحين » : أنه مر بجنازة ، فأثنوا عليها بخير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وجبت » ، ومر بأخرى فأثني عليها بشر ، فقال : « وجبت » . وفي رواية كور : « وجبت » ثلاث مرات ، فقال عمر : يا رسول الله ، ما وجبت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » (١) . وقال صلى الله عليه وسلم : « توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار » ، قالوا : بسم يا رسول الله ؟ قال : « بالثناء الحسن والثناء السيء » (٢) . فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار .

(١) صحيح .

(٢) إسناده محتمل للتحسين ، فإنه من رواية ابن أبي زهير الثقفي عن أبيه مرفوعاً أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١) وأحمد (٤١٦ / ٣ ، ٤٦٦ / ٦) ، قال في « الزوائد » : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » ، قالت : أبو بكر هذا ، لم يرو عنه غير اثنين ، ولم يوثقه غير ابن حبان (٢٦٧ / ١) ، وقال في « التبريب » : « مقبول » ، يعني عند المتابعة ، والافلين الحديث .

قوله : (ولأنشهد عليهم بكتفهم ولا يشرك ولا بنفاق ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ، ونذر سرائرهم الى الله تعالى) .

ش : لأننا قد أمرنا بالحكم بالظاهر ، ونهيننا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم . قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم) الحجرات : ١١ ، الآية . وقال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم) الحجرات : ١٢ . وقال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) الاسراء : ٣٦ .

قوله : (ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من

وجب عليه السيف) .

ش : في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (١) .

قوله : (ولا نرى الخروج على ائمتنا وولاة امورنا ، وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمروا بمعصية ، وندعولهم بالصالح والمعافاة) .

ش : قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) النساء : ٥٩ . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني » (٢) . وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قال :

(١) متفق عليه .

(٢) مسلم .

« إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف » (١) .
وعند البخاري : « ولو لحبشي كان رأسه زبيبة » (٢) . وفي « الصحيحين » أيضاً
« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، / فإن أمر
بمعصية / فلا سمع ولا طاعة » (٣) . وعن حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن يدركني
فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد
هذا الخير من شر ؟ قال : « نعم » ، فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال :
« نعم ، وفيه دخن » ، قال : قلت : وما دخنه ؟ قال : « قوم يستنون بغير سنتي ،
ويهدون (٤) بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر » ، فقلت : هل بعد ذلك الخير من
شر ؟ قال : « نعم : دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها »
فقلت : يا رسول الله ، صفهم لنا ؟ قال : « نعم ، قوم من جلدتنا ، يتكاملون
بألسنتنا » ، قلت : يا رسول الله ، فما ترى إذا أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة
المسلمين ، وإمامهم » فقامت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : « فاعتزل
تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على
ذلك » (٥) . وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات
فميتته جاهلية » (٦) . وفي رواية : « فقد خلع ربة الإسلام من

(١) مسلم .

(٢) البخاري

(٣) متفق عليه .

(٤) في الاصل : ويهتدون .

(٥) متفق عليه .

(٦) مسلم من حديث ابن عباس :

عنه» (١). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا بوسع لخائفتين فاقتلوا الآخر منهما» (٢) . وعن عوف بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، ويصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين يبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » ، فقلنا : يا رسول الله ، أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ؟ قال : « لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولي عليه وال ، قرآه يأتي شيئاً من معصية الله ، / فليكره ما يأتي من معصية الله / ، ولا ينزع يداً من طاعته » (٣) .

فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر ، ما لم يأمرُوا بمعصية فتأمل قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) النساء : ٥٩ . كيف قال : « وأطيعوا الرسول » ، ولم يقل : وأطيعوا أولي الأمر منكم ؟ لأن أولي الأمر لا يُفردون بالطاعة ، بل يُطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله . وأعاد الفعل مع الرسول لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله ، بل هو معصوم في ذلك ، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله ، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله . وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا ، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفساد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الاجور ، فإن الله تعالى ما سخطهم علينا إلا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل . قال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) الشورى ٣٠ . وقال تعالى : (أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ، قل هو

(١) صحيح ، وهي من رواية الحارث الأشعري في حديث طويل ، أخرجه أحمد (١٣٠ / ٤) وغيره بسند صحيح ، وليست من رواية ابن عباس كما أوهم الشارح .

(٢) مسلم وأحمد .

(٣) مسلم .

من عند أنفسكم) آل عمران : ١٦٥ وقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) النساء : ٧٩ . وقال تعالى : (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) الانعام : ١٢٩ . فإذا أراد الرعية أن يتخلفوا من ظلم الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم . وعن مالك بن دينار : أنه جاء في بعض كتب الله : « أنا الله مالك الملك ، قلوب الملوكة بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوكة ، لكن توبوا أعطفهم عليكم » (١) .

قوله : (ونتبع السنة والجماعة ، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة) .

ش : السنة : طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والجماعة : جماعة المسلمين وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان الى يوم الدين . فاتباعهم هدى ، وخلافهم ضلال . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ . وقال : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصاه جهنم وساءت مصيراً) النساء : ١١٥ . وقال تعالى : (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ماحمل وعليكم ماحتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين) النور : ٥٤ وقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) الانعام : ١٥٣ . وقال تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم) آل عمران : ١٠٥ . وقال تعالى :

(١) هذا من الاسرائيليات ، وقد رفعه بعض الضعفاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه الطبراني في « الاوسط » عن أبي الدرداء ، قال الهيثمي (٢٤٩ / ٥) : « وفيه ابراهيم بن راشد وهو متروك » .

(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) الانعام : ١٥٩ .

وثبت في « السنن » الحديث الذي صححه الترمذي ، عن العرباض بن سارية ، قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ، ذكرت منها العيون ، ووَجِرت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع ؟ فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، / وعضوا عليها / بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (١) . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الكتابين افرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، يعني الأهواء ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة » (٢) . وفي رواية : قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » . فبين صلى الله عليه وسلم أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين ، إلا أهل السنة والجماعة .

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، حيث قال : من كان منكم مستنأ فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً وأقلمها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى ، عند قول الشيخ : ونرى الجماعة حقاً وصواباً . والفرقة زيغاً وعذاباً .

(١) صحيح .

(٢) صحيح ، والرواية الأخرى فيها ضعف ،

قوله : (ونحب أهل العدل والامانة ، ونبغض أهل الجور والخيانة) .

ش : وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية ، فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، وكمال الذل ونهايته . فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره ، فغير الله يُحِبُّ في الله ، لا مع الله ، فإن الحب يحب ما يحب محبوبه ، ويبغض ما يبغض ، ويوالي من يواليه ، ويعادي من يعاديه ، ويرضى لرضائه ، ويبغض لبغضه ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق لمحبه في كل حال . والله تعالى يحب المحسنين ، ويحب المتقين . ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ونحن نحب من أحبه الله . والله لا يحب الخائنين ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب المستكبرين ، ونحن لا نحبهم أيضاً ، ونبغضهم ، موافقة له سبحانه وتعالى : وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن ياتي في النار » (١) . فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه ، وولايته وعداوته . ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم ، كما قال تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) الصف : ٤ . والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر ، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة ، والحب والبغض ، فيكون محبوباً من وجه ومبغوضاً من وجه ، والحكم للغالب ، وكذلك حكم العبد عند الله ، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، فيما يروي عن ربه عز وجل : « وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته ، ولا بد له منه » (٢) . فبين أنه

(٢) البخاري .

(١) صحيح :

يتردد ، لأن التردد تعارض لإرادتين ، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المؤمن ، ويكره ما يكرهه . وهو يكره الموت فهو يكرهه ، كما قال : « وأنا أكره مساعته » ، وهو سبحانه قضى بالموت فهو يريد كونه ، فسمى ذلك تردداً ، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك ، إذ هو يفضي الى ما هو أحب (١) منه .

قوله : (ونقول : الله أعلم ، فيما اشتبه علينا علمه) .

ش : تقدم في كلام الشيخ رحمه الله أنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه . ومن تكلم بغير علم فلأنما يتبع هواه ، وقد قال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) القصص : ٥٠ . وقال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه بضله ويهديه الى عذاب السعير) الحج : ٣٤ . وقال تعالى : (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثاهم ، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، وكذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) غافر : ٣٥ . وقال تعالى : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) الاعراف : ٣٣ . وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد علم ما لم يعلم اليه ، فقال تعالى : (قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض) الكهف : ٢٦ . (قل ربي أعلم بعدتهم) الكهف : ٢٢ . وقد قال صلى الله عليه وسلم ، لما سئل عن أطفال المشركين : « الله أعلم بما كانوا عاملين » (٢) ، وقال عمر رضي الله عنه : انهموا الرأي في الدين ، فإني رأيتني يوم أبي جندل ، فاقد رأيتني وإني لأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيي ، فأجتهد ولا آلو ، وذلك يوم أبي جندل ، والكتاب

(١) في الاصل : واجب .

(٢) متفق عليه .

يكتب ، وقال : اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) ، قال : اكتب باسمك اللهم ، فرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب وأبیت ، فقال : « يا عمر تراني قد رضيت وتأبى ؟ » (١) وقال أيضا رضي الله عنه : السنة ما سنه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لاتجعاوا خطأ الرأي سنة للأمة . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أي أرض تقماني ، وأي سماء تظلني ، إن قات في آية من كتاب الله برأيي ، أو بما لأعلم . وذكر الحسن بن علي الخوافي ، حدثنا عارم ، حدثنا حماد بن زيد ، عن سعيد بن أبي صدقة ، عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبي بكر ، ولم يكن بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر رضي الله عنه ، وإن أبا بكر نزلت به قضية ، فلم يجد في كتاب الله منها أصلا ، ولا في السنة أثرا ، فاجتهد برأيه ، ثم قال : هذا رأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فني ، وأستغفر الله :

قوله : (ورمى المسح على الخفين ، في السفر والحضر ، كما جاء في الاثر) :

ش : تواترت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين ، والذين نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء قولا وفعلا ، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضؤوا على عهده وهو يراهم ويقرهم ، ونقلوه الى من بعدهم - : أكثر عدداً من الذين نقلوا لفظ آية الوضوء . فإن جميع المسلمين كانوا يتوضؤون على عهده ، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه ، فإن هذا العمل لم يكن

(١) الطبراني في « الكبير » (١/٥/١) وأبن حزم في « الاحكام » (٤٦/٦) ورجاله ثقات غير ان فضالة بن مبارك مدلس كما في « التقريب » وقد عنعنه ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١٧٩/١) : « رواه أبو يعلى ورجاله موثقون وان كان فيهم مبارك بن فضالة » . وقال في موضع آخر (١٤٥/٦-١٤٦) وقد ساقه بأطول من هذا ، لكنه لم يذكره بتمامه : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » ، وطرفه الاول في « الصحيحين » من قول سهل بن حنيف .

معهوداً عندهم في الجاهلية ، وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى ، ونقلوا عنه ذكر غسل الرجلين في ماشاء الله من الحديث ، حتى نقلوا عنه من غير وجه ، في كتب الصحيح وغيرها ، أنه قال : « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار » (١) .

مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم ، كان غسل الجميع كلفة لا تدعو إليها الطباع ، كما تدعو الطباع إلى طلب الرياسة والمال ، فأوجاز الطعن في تواتر صفة الوضوء ، لكان في نقل لفظ آية/الوضوء/ أقرب إلى الجواز ، وإذا قالوا : لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ ، فثبت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل ، ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة ، فإن المسح كما يطلق ويراد به الإصابة - كذلك يطلق ويراد به الإسهالة ، كما تقول /العرب/ : تمسحت للصلاة ، وفي الآية ما يدل على أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسم الغسل ، بل المسح الذي الغسل قسم منه ، فإنه قال : (إلى الكعبين) المائدة : ٦ ، ولم يقل : إلى الكعب ، كما قال : (إلى المرافق) المائدة : ٦ ، فدل على أنه ليس في كل رجل كعب واحد ، كما في كل يد مرفق واحد ، بل في كل رجل كعبان ، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين الناتئين ، وهذا هو الغسل ، فإن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين ، وجعل الكعبين في الآية غاية يرد قولهم . فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين إلى الكعبين ، اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك - مردود بالكتاب والسنة .

وفي الآية قراءتان مشهورتان : النصب والخفض ، وتوجيه إعرابها مبسوط في موضعه . وقراءة النصب نص في وجوب الغسل ، لأن العطف على المحل إنما

(١) متفق عليه دون قوله : « وبطون الأقدام » وهو عند أحمد (٤/١٩١) بسند

صحيح من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي .

يكون اذا كان المعنى واحداً ، كقوله :

« فلسنا بالجبال ولا الحديد »

وليس معنى : مسحت برأسي ورجلي - هو معنى : مسحت رأسي ورجلي ، بل ذكر الباء يفيد معنى زائداً على مجرد المسح ، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس ، فتعين العطف على قوله : (وأيديكم) . فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن ، فإن الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه . كما قال أبو عبد الرحمن السامي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن : عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا معناها . وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين ، فإن السرف يُعتاد فيها كثيراً . والمسألة معروفة ، والكلام عليها في كتب الفروع .

قوله : (والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين ، برّهم وفاجرهم ، إلى قيام الساعة ، لا يبطأها شيء ولا ينتقصها) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على من يخالف في هذا أو يشترط لها شروطاً لم يأت بها الشرع .

وقوله : مع أولي الأمر برّهم وفاجرهم - لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلا بد من سائس يسوس الناس فيهما ، ويقاوم العدو ، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البرّ يحصل بالإمام الفاجر .

قوله : (ونؤمن بالكرام الكاتبين ، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين) .

ش : قال تعالى : (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما

تُفْعَلُونَ) الأنفطار ١٠-١٢ وقال تعالى : (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَآمِنُونَ ، عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) ق : ١٧-١٨ . وقال تعالى : (لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، يُحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) الرعد : ١١ . وقال تعالى : (أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، بَلَى ، وَرَسُولُنَا إِلَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) الزخرف : ٨٠ . وقال تعالى : (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الجاثية : ٢٨ . وقال تعالى : (إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) يونس : ٢١ . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعدون إليهم الذين كانوا فيكم ، فيسألهم ، والله أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصابون ، وفارقناهم وهم يصلون » (١) ، وفي الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم ، وأكرمواهم » (٢) . جاء في التفسير : اثنان عن اليمين وعن الشمال ، يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وكلما كان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه ، وواحد أمامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، بدلا ، حافظان وكاتبان ، وقال عكرمة عن ابن عباس : (يحفظونه من أمر الله) الرعد : ١١ ، قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه .

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي ، لكن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا

(١) متفق عليه .

(٢) ضعيف :

يأمرني إلا بخير» (١) . الرواية بفتح الميم من « فأسلم » / ومن رواه « فأسلم » برفع الميم - فقد حرف لفظه . ومعنى « فأسلم » / ، أي : فاستسلم وأنقاد لي ، في أصح القولين ، ولهذا قال : « فلا يأمرني إلا بخير » ، ومن قال : إن الشيطان صار مؤمناً - فقد حرف معناه ، فإن الشيطان لا يكون مؤمناً (٢) . ومعنى : (يحفظونه من أمر الله) الرعد : ١١ - قيل : حفظهم له من أمر الله ، أي الله أمرهم بذلك ، يشهد لذلك قراءة من قرأ : يحفظونه بأمر الله .

(١) صحيح .

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر : والخلاف في ضبط الميم من « فأسلم » - خلاف قديم . والراجح فيها الفتح : كما قال الشارح ، ولكن المعنى الذي رجحه غير راجح فقال القاضي عياض ، في مشارق الأنوار (٢ / ٢١٨) : « رويناه بالضم والفتح . فن ضم رد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أي : فأنا أسلم منه . ومن فتح رده إلى القرين ، أي : أسلم من الإسلام . وقد روي في غير هذه الأمهات : فاستسلم : يريد بالأمهات : « الموطأ » و « الصحيحين » ، التي بنى عليها كتابه ، وإن كان هذا الحديث لم يروه مالك ولا البخاري .

وقال النووي في شرح مسلم : « هما روايتان مشهورتان . واختلفوا في الارجح منهما ، فقال الخطابي : الصحيح المختار الرفع ، ورجح القاضي عياض الفتح وأما الحافظ ابن حبان ، فإنه روى الحديث في صحيحه (٢ / ٢٨٣) ، من المخطوطة المصورة) ، وجزم برواية فتح الميم ، وقال : « في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى صلى الله عليه وسلم أسلم حتى لم يكن يأمره إلا بخير ، لا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً » . وهذا هو الصحيح الذي ترجحه الدلائل . وادعاء الشارح أن هذا تحريف للمعنى . « فإن الشيطان لا يكون مؤمناً » انتقال نظر . فأولا أن اللفظ في الحديث « قرينه من الجن » ، لم يقل : « شيطانه » . وثانياً : أن الجن فيهم المؤمن والكافر . والشياطين هم كفارهم ، فن آمن منهم لم يسم شيطانياً .

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل . وكذلك النية ، لأنها فعل القلب ، فدخلت في عموم (يعلمون . اتفعلون) الانفطار : ١٢ . ويشهد بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة ، وإذا همّ عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً » (١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة ، وهو أبصر به ، فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائي » (٢) ، خرجاهما في « الصحيحين » واللفظ لمسلم :

قوله : (ونؤمن بملك الموت ، الموكل بقبض أرواح العالمين) .

ش : قال تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت) الذي وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون) ألم . السجدة : ١١ . ولاتعارض هذه الآية قوله : (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) الانعام : ٦١ ، وقوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) الزمر : ٤٢ - : لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ، ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، ويتولونها بعده ، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره ، وحكمه وأمره ، فصحت إضافة التوفي إلى كل بحسبه .

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

قوله : (وبُعْثَ ابْنُ الْقَبْرِ مَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا ، وَسُؤَالَ مَنْكِرٍ وَنَكِيرٍ فِي قَبْرِهِ
عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، وَعَنْ الصَّحَابَةِ رَضِوانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . وَالْقَبْرِ رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ،
أَوْ حَفْرَةٍ مِنْ حَفْرِ النَّيرانِ) .

ش : قال تعالى : (وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) غافر : ٤٥-٤٦ .
وقال تعالى : (فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ . يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ . وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ) الذاريات : ٤٥-٤٧ . وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره
في الدنيا ، وأن يراد به عذابهم في البرزخ ، وهو أظهر ، لأن كثيراً منهم مات ولم
يعذب في الدنيا ، أو المراد أعم من ذلك . وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ،
قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأثانا النبي صلى الله عليه وسلم ، فتعبد وقعدنا
حولهُ ، كأنَّ على رؤوسنا الطير ، وهو ياحد له ، فقال : « أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ
الْقَبْرِ » ، ثلاث مرات ، ثم قال : « إِنْ الْعَبْدَ / الْمُؤْمِنَ / إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ
وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، كَأَنَّ عَلَى أَوْجُوهِهِمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ
مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، فَجَاسُوا مِنْهُ تَسْلَةً الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ
مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ، أَخْرِجِي إِلَى
مَغْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَضْوَانٍ » ، قال : « فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّمَاءِ ،
فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي
ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحَنُوطِ ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مَسَاكٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ
الْأَرْضِ ، قَالَ : فَيُصْعَقُونَ بِهَا ، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا ، يَعْنِي عَلَى مَا لَمْ يَمْلِكُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، إِلَّا
قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي
كَانُوا يَسْمُونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ ، فَيَفْتَحُ لَهُ ،

فُيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا ، إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَالِيهَا ، حَتَّى يَنْتَهِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَالَمِينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَلَنِي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتَهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قَالَ : فَتَعَادَ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ . فَيَأْتِيهِ مَا كَانَ ، فَيَجَاسَانُهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ رَبِّي اللَّهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا عَامَلُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَافْرَشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ ، قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطَيْبِهَا ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ كَمَا بَصَرُهُ ، قَالَ : وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ ، حَسَنُ الثِّيَابِ ، طَيِّبُ الرَّيْحِ ، فَيَقُولُ : ابْشُرْ بِالَّذِي يَسْرُكُ هَذَا يَوْمَكَ الَّذِي كُنْتَ تَوَعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ / الَّذِي / يُجِيءُ بِالْخَيْرِ ، فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي ، قَالَ : وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ ، مَعَهُمُ الْمَسْوُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ ، قَالَ فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصَّفُوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمَسْوُوحِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ خَبِيثَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ ؟ فَيَقُولُونَ فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يَسْمُونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ ، فَلَا يَفْتَحُ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ ، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلْجِ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخَبَاطِ) الْأَعْرَافُ : ٤٠ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتَطْرَحَ رُوحُهُ طَرَحاً ، ثُمَّ قَرَأَ : (وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ

فَتُخَطَفُهُ الطير أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيقٍ (الحج : ٣١ ، فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، فينادي مناد من السماء : أن كذب ، فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً الى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : ابشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه / الذي / يجي بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول رب لا تقم الساعة » (١) . رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وروى النسائي وابن ماجه أوله ، ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرائيني في « صحيحيهما » وابن حبان .

وذهب الى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث ، وله شواهد من الصحيح . فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، فيأتيه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقول له : انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً » (٢) . قال قتادة : وروي لنا انه يفسح له في قبره ، وذكر الحديث . وفي « الصحيحين » عن ابن عباس رضي الله عنهما : ان النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين ، فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، اما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، واما الآخر فكان يمشي بالنميمة ، فدعا بجريدة رطبة ، فشققها نصفين ،

(١) صحيح :

(٢) صحيح :

وقال : لعله يُخفف عنها ما لم يببسا « (١) . وفي « صحيح » أبي حاتم عن أبي هريرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قبر أحدكم ، أو الإنسان أناه ملكان اسودان ازرقان ، يقال لأحدهما المنكر ، وللآخر : النكير » (٢) ، وذكر الحديث الخ .

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا تتكلم في كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذا الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول . فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح إليه لإعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا . فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعاق ، متغايرة الأحكام : أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنيناً . الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض . الثالث : تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه . الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة ، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم ، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه . وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة . الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولانسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ، فالنوم أخو الموت : فتأمل هذا ميزر ح عنك إشكالات كثيرة .

(١) متفق عليه .

(٢) حسن ، أخرجه الترمذي أيضاً (١١٩/١) وقال « حديث حسن غريب » ، قلت : واسناده محسن ، وفيه رد على من أنكروا من المعاصرين تسمية الملكين « المنكر » و « النكير » .

وليس السؤال في القبر لروح وحدها ، كما قال ابن حزم وغيره ، وأفسد منه قول من قال : إنه للبدن بلا روح ! والأحاديث الصحيحة ترد القولين . وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً ، بانفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به .

واعلم ان عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، / قبر أو لم يقبر / ، اكايه السباع او احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء ، او صلب او غرق في البحر - وصل الى روحه وبدنه من العذاب ما يصل الى المقبور . وما ورد من إجلالته واختلاف اضلاعه ونحو ذلك - فيجب ان يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده من / غير / غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحمته ، ولا يتقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله . بل سوء الفهم عن الله ورسوله اصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، وهو اصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولا سيما إن اضيف إليه سوء القصد . والله المستعان .

فالخلاصة ان الدور ثلاث : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وقد جعل الله لكل دار احكاماً تخصها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل احكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبع لها ، وجعل احكام البرزخ على الأرواح والابدان تبع لها ، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم - صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً . فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ، ظهر لك ان كون القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار مطابق للعقل ، وأنه حق (١) لا مريية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب عن غيرهم ويجب ان يعلم ان النار التي في القبر والنعيم ، ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها

(١) في الاصل : لاحق .

وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحتّه حتى يكون اعظم حرّاً من جمر الدنيا ، ولو مسحها اهل الدنيا لم يحسوا بها . بل اعجب من هذا ان الرجلين يدفن أحدهما الى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من النار ، وهذا في روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا الى جاره شيء من حر ناره ، ولا من هذا الى جاره شيء من نعيمه . وقدرة الله اوسع من ذلك واعجب ، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به عاملاً . وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلى من هذا بكثير . وإذا شاء الله ان يُطلع على ذلك بعض عباد أطاعه وغيبه عن غيره ، ولو اطاع الله على ذلك العباد كلهم لزالّت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن (١) الناس ، كما في « الصحيح » عنه صلى الله عليه وسلم : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله ان يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع » (٢) . ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعته وأدركته .

قوله : (ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة ، والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والنواب والعقاب ، والصراط والميزان) .

ش : الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة ، والعقل والفطرة السليمة . فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز ، وأقام الدليل عليه ، وردّ على منكريه في غالب سور القرآن . وذلك : أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالله (٣) ، فإن الاقرار بالرب عام في بني آدم ، وهو فطري ، كلهم يقر بالرب ، إلا من عاند ، كفرعون ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الأنبياء ، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين ،

(١) في الاصل : تذاكر .

(٢) مسلم .

(٣) في الاصل : بالآخرة .

وكان هو الحاشر المقتضي - بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء . ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم ، أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخيل والخطاب الجمهوري .

والقرآن بين معاد النفس عند الموت ، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع . وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى ، وينكرون معاد الأبدان ، ويقولون من يقول منهم : إنه لم يخبر به إلا محمد صلى الله عليه وسلم على طريق التخيل ! وهذا كذب ، فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء ، من آدم إلى نوح ، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام ، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم ، فقال تعالى : (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) الأعراف : ٢٤ (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) الأعراف : ٢٥ . ولما قال إبليس للعين : رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال : (فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ص : ٨٠-٨١ . وأما نوح عليه السلام فقال : (والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) نوح : ١٧-١٨ . وقال إبراهيم عليه السلام : (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) الشعراء : ٨٢ . إلى آخر القصص . وقال : (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) إبراهيم : ٤١ . وقال : (رب أرني كيف تحيي الموتى) الآية ، البقرة : ٢٦٠ ، وأما موسى عليه السلام ، فقال الله تعالى لما ناجاه : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها . لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) طه : ١٥-١٦ . بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد ، وإنما آمن بموسى ، قال تعالى حكاية عنه : (ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم . ومن يضلل الله فما له من هاد) غافر : ٣٢-٣٣ ، إلى قوله تعالى : (يا قوم إن هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار

القرار (غافر : ٣٩ ، الى قوله : (ادخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٦ .
 وقال موسى : (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة . إنا همدنا إليك)
 الاعراف : ١٥٦ . وقد أخبر الله في قصة البقرة : (فقلنا أضربوه ببعضها . كذلك
 يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلكم تعقلون) : البقرة : ٧٣ . وقد أخبر الله أنه أرسل
 الرسل مبشرين ومنذرين ، في آيات / من / القرآن ، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا
 قال لهم خزنتها : (ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء
 يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) الزمر : ٧١
 وهذا اعتراف من اصناف الكفار الداخلين جهنم ان الرسل انذرتهم لقاء يومهم
 هذا . فجميع الرسل انذروا بما انذر به خاتمهم ، من عقوبات المذنبين في الدنيا
 والآخرة . فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد ، يذكر ذلك فيها : في
 الدنيا والآخرة . وامر نبيه ان يقسم به على المعاد ، فقال : (وقال الذين كفروا
 لا تأتينا الساعة ، قل : بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب) سبأ : ٣ ، الآيات . وقال
 تعالى : (ويستنبئونك احق هو ؟ قل : إني وربى إنه لحق وما انتم بمعجزين)
 يونس : ٥٣ . وقال تعالى : (زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا . قل : بلى وربى
 لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عمتن وذلك على الله يسير) التغابن : ٧ . وأخبر عن اقترابها ،
 فقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر) القمر : ١ . (اقترب للناس حسابهم
 وهم في غفلة معرضون) الأنبياء : ١ . (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين)
 المعارج : ٢-١ ، الى ان قال : (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) : المعارج : ٦-٧ .
 وذم المكذبين بالمعاد ، فقال : (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين)
 يونس : ٤٥ / (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) /
 الانعام : ٣١ . (الا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) الشورى : ١٨ :
 (بل ادرك علمهم في الآخرة بل هل في شك منها بل هم منها عمون) النمل : ٦٦ :
 (واقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً) النحل :
 ٣٨ ، الى ان قال : (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) النحل : ٣٩ . (إن

الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (غافر : ٥٩) . (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم غمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً)
الاسراء : ٩٧ . (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً) الاسراء : ٩٨ . (او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجالاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً) الاسراء : ٩٩ . (وقالوا : أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة او حديداً او خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم اول مرة ، فسينخضون إليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ؟ قل عسى ان يكون قريباً . يوم يدعوك فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم إلا قليلاً) الاسراء : ٤٩-٥٢ .

فتأمل ما اجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل : فإنهم قالوا اولاً : (انذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً) ؟ ١ الاسراء : ٤٩ ، فقيل لهم في جواب هذا السؤال : ان كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم ، فهلا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت ، كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك ؟ ! فإن قلتم : كنا خلقاً على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء - فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادةكم خلقاً جديداً ؟ ! وللحجة تقدير آخر ، وهو : لو كنتم من حجارة او حديد او خاق أكبر منهما ، / فإنه / قادر على ان يفنيكم ويحيل ذواتكم ، وينقلها من حال الى حال ، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام ، مع شدتها وصلابتها بالإفناء والاحالة - فما الذي يعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر انهم يسألون آخراً بقولهم : من يعيدنا اذا استعالت جسامنا وفنيت ؟ فأجابهم بقوله : (قل الذي فطركم اول مرة) الاسراء : ٥١ . فلما أخذتهم الحجة ، وازمهم حكمها - انتقلوا الى سؤال آخر يتعللون به بعال المنقطع ، وهو قولهم : متى هو ؟ فأجيبوا بقوله : (عسى ان يكون قريباً) .

ومن هذا قوله : (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم) يس : ٧٨ ؟ الى آخر السورة . فلو رام اعلم البشر وافصحهم واقدرهم على البيان ، ان يأتي بأحسن من هذه الحجة ، او بمثالها ، بألفاظ تشابه هذه الالفاظ في الإيجاز ووضوح الأدلة وصحة البرهان لما قدر . فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال اورده ملحد ، اقتضى جواباً ، فكان في قوله : (ونسي خلقه) يس : ٧٨ ماوفي بالجواب . وأقام الحجة وازال الشبهة لما اراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال : (قل يحييها الذي انشأها اول مرة) يس : ٧٩ ، فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالنشأة الاولى على النشأة الاخرى . إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه ، وانه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز . ولما كان الخالق يستلزم قدرة الخالق على المخاوق ، وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله : (وهو بكل خلق عليم) يس : ٧٩ فهو عليم بتفاصيل الخلق الاول وجزئياته ، ومواده وصورته ، فكذلك الثاني . فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه ان يحيي العظام وهي رميم ؟ ثم أكد الأمر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر ، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام اذا صارت رميمات عادت طبيعتها باردة يابسة ، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ، ففيه الدليل والجواب معاً ، فقال : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا انتم منه توقدون) يس : ٨٠ . فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة ، فالذي يخرج الشيء من ضده ، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها / و / لا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه ، من إحياء العظام وهي رميم . ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم ، / على / الايسر الاصغر ، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على مادونه بكثير اقدر واقدر ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً ، فقال : (او ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان

يخلق مثلهم)؟ يس : ٨١ فأخبر ان الذي أبدع السموات والأرض ، على جلالتهما وعظم شأنهما ، وكبر أجسامهما ، وسعتهما ، وعجيب خالقهما ، أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً ، فيردّها الى حالتها الاولى . كما قال في موضع آخر : (لخلق السموات والأرض اكبر من خالق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون) غافر : ٥٧ . وقال : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم) يس : ٨١ . ثم اكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر ، وهو انه ليس فعله بمنزلة غيره ، الذي يفعل بالآلات والكافة ، والنصب والمشقة ، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لابد معه من آلة ومعين ، بل يكفي في خلقه لما يريد ان يخلقه ويكونه نفس إرادته ، وقوله للمكون : « كن » فإذا هو كائن كما شاءه واراده . ثم ختم هذه الحجة بإخباره ان ملكوت كل شيء بيده ، فيتصرف فيه بفعله وقوله ، (واليه ترجعون) يس : ٨٣ . ومن هذا قوله سبحانه : (ابحسب الانسان ان يترك سدى . ألم يك نطفة من مني بمنى . ثم كان عاقبة فخلق فسوياً . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى) القيامة : ٣٦ - ٤٠ . فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملاً عن الأمر والنهي والثواب والعقاب ، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء ، كما قال تعالى : (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم ألينا لا ترجعون) المؤمنون : ١١٥ ، الى آخر السورة . فإن من نقله من النطفة الى العاقبة ، ثم الى المضغة ، ثم شق سمعه وبصره ، وركب فيه الحواس والقوى ، والعظام والمنافع ، والأعصاب والرباطات التي هي أشده ، وأحكم خلقه غاية الإحكام ، وأخرجه على هذا الشكل والصورة ، التي هي أتم الصور واحسن الاشكال كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية ؟ ام كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدى ؟ فلا يليق ذلك بحكمته ، ولا تعجز عنه قدرته فانظر الى هذا الاحتجاج العجيب ، بالقول الوجيز ، الذي لا يكون اوجز منه ، والبيان الجليل ، الذي لا يتوهم اوضح منه ، ومأخذه القريب ، الذي لا تتمع الظنون على اقرب منه .

وكم في القرآن / من / مثل هذا الاحتجاج ، كما في قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خالقنا كم من تراب ثم من نطفة) الحج : ٥ الى ان قال : (وان الله يبعث من في القبور) الحج : ٧ . وقوله تعالى : (ولقد خالقنا الإنسان من سلالة من طين) المؤمنون : ١٢ ، الى ان قال : (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) المؤمنون : ١٦ . وذكر قصة أصحاب الكهف ، وكيف ابقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية ، وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، وقال فيها : (وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها) الكهف : ٢١ .

وقوله : وجزاء الأعمال - قال تعالى : (مالك يوم الدين) الفاتحة : ٣ : (يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين) النور : ٢٥ . / والدين : الجزاء ، يقال : كما تدين تدان ، أي كما تجازي تجازى / ، وقال تعالى : (جزاء بما كانوا يعملون) السجدة : ١٧ والاحقاف : ١٤ والواقعة : ٢٤ (جزاء وفاقا) النبأ : ٢٦ . (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثله ، وهم لا يظلمون) الانعام : ١٦٠ . (من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) النمل : ٨٩ - ٩٠ . (من جاء بالحسنة فله خير منه منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) القصص : ٨٤ . وامثال ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم ، فيما يروي عن ربه عز وجل ، من حديث ابي ذر الغفاري رضي الله عنه : « يا عبادي ، إنما هي اعمالكم احصوها لكم ، ثم اوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه » (١) وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب . قال تعالى : (فيؤمئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والمملك على

(١) مسلم واحمد .

ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية. يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) الحاقة : ١٥ - ١٨ ، الى آخر السورة . (يا ايها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فلاقه . فأما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينتاب الى اهله مسروراً . وأما من اوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً ويصلي سعيراً . إنه كان في اهله مسروراً . إنه ظن ان لن يحور . بلى ان ربه كان به بصيراً) الانشقاق ٦ - ١٥ . (وعرضوا على ربك صفاء ، لقد جئتمونا كفا خائفنا كم اول مرة) الكهف ٤٨ . (ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك احداً) الكهف : ٤٩ . (يوم تبدل الأرض غير الأرض / والسموات / ، وبرزوا لله الواحد القهار) ابراهيم : ٤٨ ، الى آخر السورة . (رفيع الدرجات / ذو العرش ، يأتي الروح من امره على من يشاء من عباده /) غافر : ١٥ ، الى قوله (ان الله سريع الحساب) غافر : ١٧ . (واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) البقرة : ٢٨١ . وروى البخاري رحمه الله في « صحيحه » ، عن عائشة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس احد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : (فأما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً) الانشقاق : ٧ - ٨ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك العرض (١) ، وليس احد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب » (٢). يعني انه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالى يغفو ويصفح . وسيأتي لذلك زيادة / بيان / ، ان شاء الله تعالى . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون اول من يفتق ، فإذا موسى أخذ بقائمة العرش فلا أدري افاق

(١) في الاصل : للعرض .

(٢) صحيح .

قُبلي، أم جرزي بصعقة يوم الطور ؟» (١) وهذا صعد في موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء ، وأشرق الأرض بنوره ، فحينئذ يصعد الخلائق كلهم : فإن قيل : كيف تصنعون بقوله في الحديث : « إن الناس يصعدون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش » (٢) ؟ قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ، ومنه نشأ الإشكال . ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث ، فركب بين اللفظين ، فجاء هذان الحديثان هكذا : أحدهما :

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح ، أخرجه البخاري في أول كتاب « الخصومات » من حديث وهيب ، حدثنا عمرو بن عبي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً في قصة ضرب الصحابي لليهودي بلفظ : « لا تخبروا بين الأنبياء فإن الناس يصعدون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعد أم حوسب بصعقته الأولى » .

وأخرجه مسلم رقم (٢٣٧٤) من طريق سفيان عن عمرو بن يحيى به . لكنه لم يستعمل لفظه بتمامه ، وقد ساقه أحمد (٣٣/٣) من هذه الطريق بلفظ : « وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة فأفيق ، فأجد موسى » الحديث .

ويشهد لهذه الرواية حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٣٧٣) بلفظ : « لا تفضوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ في الصور فيصعد من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، قال : ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث ، أو في أول من بعث ، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور ، أو بعث قبلي » .

ومن هذين الحديثين يتبين أن هذه الصعقة الثانية إنما هي صعقة البعث ، المذكورة في الآية ، وليست صعقة تقع لفصل القضاء كما ذكر الشارح تبعاً لابن القيم . وعلى ذلك فلا أشكال في الحديث . والله أعلم .

« أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق » ، كما تقدم ، والثاني : « أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة » (١) ، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر . ومن نبه على هذا أبو الحجاج المزني ، وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم ، وشيخنا الشيخ عماد بن كثير ، رحمهم الله . وكذلك اشتبه على بعض الرواة ، فقال : « فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل » (٢) ؟ والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول ، وعليه المعنى الصحيح ، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء ، فوسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم ، فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلي ربه للجبل فجعله دكاً ، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي ربه يوم القيامة . فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله . وروى الإمام أحمد ، والترمذي ، وأبو بكر بن أبي الدنيا ، عن الحسن ، قال : سمعت أبا موسى الأشعري يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فعرضتان جدال ومعاذير ، وعرضة تطاير الصحف ، فمن أوتي كتابه يمينه ، وحوسب حساباً يسيراً ، دخل الجنة ، ومن أوتي كتابه بشماله ، دخل النار » (٣) . وقد روى ابن أبي

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٧٨) باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم بلفظ : « وأول من ينشق عنه القبر » . وأبو داود والترمذي وأحمد .

(٢) صحيح وهو آخر حديث أبي هريرة المذكور قبلاه في رواية عنه عند البخاري والمراد بقوله : « ممن استثنى الله » أي لاتصيه النفخة ، كما صرح به رواية ابن أبي الدنيا في « كتاب البعث » عن الحسن مرسلاً . كما في « الفتح » .

(٣) ضعيف ، لأن الحسن البصري مدلس وقد عنعنه ، وهذه عاة ، وإن ثبت سماعه من أبي هريرة وأبي موسى ، فإن ثبوت مطلق السماع لا يغني في رواية المدلس حتى يصرح بالتحديث كما هو مقرر في « المصطلح » ، إلا إذا ثبتت رواية الكتاب التي فيها التصريح بسماع الحسن من أبي موسى .

الدنيا / عن ابن المبارك / : انه انشد في ذلك شعرا ؛

وطارت الصحف في الأبدى منشرة	فيها السرائر والأخبار تطلع
فكيف سهوكم والأنبياء واقعة	عما قليل ، ولا تدري بما تقع
أفي الجنان وفوز لا انقطاع له	أم الجحيم فلا تبقى ولا تدع
تهوي بساكنها طورا وترفعهم	إذا رجوا مخرجاً من غمها قعوا
طال البكاء (١) فلم يرحم تضرعهم	فيها ، ولارقة (٢) تغني ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالجه	قد سال قوم بها الرجعى فارجعوا

قوله : والصراط ، اي : ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر » (٣). وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخافون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحمال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم . وروى البيهقي بسنده ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة » ، إلى أن قال / : « فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ، وقال : فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذا اضاء قدمه ، وإذا طفيء قام ، قال : فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، كحوض ، منزلة ، فيقال لهم :

(١) في الاصل : الكلام .

(٢) في الاصل : رقة .

(٣) رواه مسلم (١/ ١٧٣) .

أهضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كناقض الكوكب ، ومنهم من يمر كالرياح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدة الرجل يردل ، رَمَلا ، فيمرون على قدر أعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على أبهام قدمه ، تحر يداه ، وتعلق يده ، وتحرق (١) رجل ، وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون ، فإذا خلاصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد ان اراناك ، لقد اعطانا الله ما لم يعط احد » (٢) ... الحديث .

(١) في الاصل : تاجر .

(٢) صحيح . واخرجه الحاكم (٣/٣٧٦) ، واظن ان البيهقي من طريقه رواه ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين » . ووافقه الذهبي ! قالت : وفيه يزيد بن عبد الرحمن ابو خالد الدالائي ، ولم يخرج له الشيخان شيئا ، ثم هو وإن كان صدوقا ، فقد كان يخطيء كثيرا ، وكان يدلس ، كما في « التقريب » . وقد صرح في هذا الأثر بالتحديث ، فأدنا بذلك تدليس ، فلما يخشى منه الخطأ فيه ، لكنه قد توبع كما يأتي ، فأدنا بذلك خطأه ايضا ، وقد اخرجه الحاكم ايضا (٤/٥٩٠-٥٩٢) بتمامه مطولا ، وكذلك الطبراني في « المعجم الكبير » (٣/٤٦-٢/٤٧) من طريق ابني خالد هذا عن ابن مسعود مرفوعا وقد تابعه زيد بن ابي انيسة مرفوعا ايضا بتمامه عند الطبراني ، وزيد ثقة ، فصح بذلك الحديث والحمد لله .

- ١- كذا في الرواية الموقوفة عند الحاكم ، وفي المرفوعة عنده : « دون » وعند الطبراني « اصغر » ولعل هذه الرواية اولى لان السياق يدل عليها .
- ٢- كذا في « الموقوفة » وفي المرفوعة عند الحاكم والطبراني : « فيمرون » .
- ٣- وكذا في « المستدرک » و « المعجم » واما الرواية التي علقها هنا الشيخ احمد شاكر رحمه الله بلفظ : « ثم كشدة الرجال ، ثم كشيتهم » فهي رواية اخرى للحاكم (٢/٢٧٥) من طريق غير الدالائي ، وهذه الطريق لم يقع بصر الشيخ عليها ، مع انها في الصفحة التي تلي صفحة الرواية الاخرى . والموفق الله تبارك وتعالى :

والخلفاء المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردة) مريم : ١٧ ، ماهو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط ، قال تعالى : (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) مريم : ٧٢ . وفي « الصحيح » أنه صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده ، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة » ، قالت حفصة : فقلت : يا رسول الله ، اليس الله يقول : (وإن منكم إلا واردة) مريم : ١٧ ، فقال : « ألم تسمعيه قال : (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) مريم : ٧٢ » (١) . أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وإن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه ، يقال : نجاه الله منهم . ولهذا قال تعالى : (ولما جاء أمرنا ننجينا هوداً) هود : ٥٨ . (فلما جاء أمرنا ننجينا صالحاً) هود : ٦٦ . (ولما جاء أمرنا ننجينا شعيباً) هود : ٩٥ . ولم يكن العذاب أصابهم ، ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك . وكذلك حال الوارد في النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً . فقد بين صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور : أن الورود هو الورود على الصراط . وروى الحافظ أبو نصر الوائلي (٢) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال صلى الله عليه وسلم : « علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك ، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة ، فلا تتحدثن في دين الله حديثاً برأيتك » (٣) . أورده القرطبي . وروى أبو بكر ابن أحمد بن سليمان

(١) مسلم وأحمد ونحوه .

(٢) هو الحافظ الوائلي البكري ، أبو نصر السجزي ، المتوفى سنة ٤٤٤ . ترجمه

الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ٢٧٩-٢٩٨ .

(٣) موضوع ، وهو قطعة من حديث رواه أبو نعيم والخطيب عن أبي هريرة

مرفوعاً ، وذكره ابن الجوزي في « الموضوعات » ، ونكلمت عليه في « الأحاديث

الضعيفة » (٢٦٣) .

النجار ، عن يعلى بن ثمنية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « تقول النار للمؤمن يوم القيامة : هُجز يا مؤمن ، فقد اطفأ نورك لهبي » (١) .

وقوله : والميزان ، اي : ونؤمن بالميزان . قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين) الأنبياء : ٤٧ . وقال تعالى : (فن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون) المؤمنون : ١٠٣-١٠٤ . قال القرطبي : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي ان يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها . قال : وقوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الأنبياء : ٤٧ . يحتمل ان يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال ، ويحتمل ان يكون المراد الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، والله اعلم .

والذي دلت عليه السنة : ان ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان . روى الإمام احمد ، من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي ، قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله سيخلص رجلاً من امتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول له : أتذكر من هذا شيئاً ؟ اظلمتاك كتبتي الجافظون ؟ قال : لا ، يارب ، فيقول : ألك عذر او حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم اليوم عليك ، فتخرج له بطاقة فيها : اشهد ان لا إله إلا الله ، وان محمداً عبده ورسوله ، فيقول احضروه ، فيقول : يارب ، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في

(١) ضعيف ، رواه الطبراني وابن عدي وابو نعيم وغيرهم بسنده فيه ضعف وانقطاع .

كفة ، / والبطاقة في كفة / ، قال : فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم « (١) . وهكذا روى الترمذي ، وابن ماجه ، وابن أبي الدنيا ، من حديث الليث ، زاد الترمذي : « ولا يثقل مع اسم الله شيء » . وفي سياق آخر : « توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة » (٢) ، الحديث . وفي هذا السياق فائدة جلية ، وهي ان العامل يوزن مع عمله ، ويشهد له ماروى البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرؤوا إن شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) الكهف : ١٠٦ » (٣) . وروى الإمام احمد ، عن ابن مسعود : « انه كان يجني (٤) سواكاً من الأراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ممّ تضحكون ؟ » قالوا : يا بني الله ، من دقة ساقيه ، فقال : « والذي نفسي بيده ، لها أثقل في الميزان من أحمد » (٥) . وقد وردت الاحاديث ايضاً بوزن الاعمال انفسها ، كما في « صحيح مسلم » ، عن أبي مالك الأشعري ، قال : قال

(١) صحيح ، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وحسنه الترمذي وفي روايتهما : « فلا يثقل مع اسم الله شيء » . واما رواية الكتاب فهي رواية لأحمد (٢ / ٢١٣) وهي شاذة . وقد تكلمت على اسناد الحديث في « سلسلة الاحاديث الصحيحة » .

(٢) هو الحديث المتقدم ، وهذا لفظ آخر له ، ولا يصح من قبل سنده ، لان فيه ابن طيبة وهو سيء الحفظ فلا يحتاج بما تفرد به ، أخرجه احمد (٢ / ٢٢١) .

(٣) صحيح .

(٤) في « المسند » : يجتني .

(٥) حسن ، رواه احمد في « المسند » (١ / ٤٥٠) بسند حسن .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان » (١) وفي « الصحيح » ، وهو خاتمة كتاب البخاري ، قوله صلى الله عليه وسلم : « كالميزان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان الى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » (٢) . وروى الحافظ ابو بكر البيهقي ، عن انس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يؤتى بابن آدم يوم القيامة ، فيوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه ، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها ابداً ، وإن خف ميزانه ، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها ابداً » (٣) . فلا يلتفت الى ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزن الأجسام !! فإن الله يقلب الأعراض أجساماً ، كما تقدم ، وكما روى الإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بالموت كبشاً أغر » (٤) فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال ، يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، ويقال : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، ويرون أن قد جاء الفرج ، فيذبح ، ويقال : خلوداً لموت » (٥) . ورواه البخاري بمعناه . فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال ، وثبت ان الميزان له كفتان . والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات .

فعلينا الإيمان بالغيب ، كما أخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم ، من غير زيادة ولا نقصان ، ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع ،

(١) صحيح .

(٢) متفق عليه ، وتقدم :

(٣) موضوع ، ورواه ابو نعيم ايضاً في « الحلية » (٦ / ١٧٤) وقال « تفرد به

داود ابن الحبر » قلت : وهو متروك متهم بالوضع .

(٤) في الاصل ؟ اغبر .

(٥) صحيح ، أخرجه في « المصنف » (٤٢٣ / ٢) بسند صحيح :

لخفاء الحكمة عليه ، ويقدم في النصوص بقوله : لا يحتاج الى الميزان إلا البقال والقوال !! وما احراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً . ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال الا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده ، / فإنه / لا احد احب اليه العذر من الله ، من اجل ذلك ارسل الرسل مبشرين ومنذرين . فكيف ووراء ذلك من الحكم لا اطلاع لنا عليه . فتأمل قول الملائكة ، لما قال / الله / لهم : (اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : اني اعلم ما لاتعلمون) البقرة : ٣٠ . وقال تعالى : (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) الاسراء : ٨٥ . وقد تقدم عند ذكر الخوض كلام القرطبي رحمه الله ، ان الخوض قبل الميزان ، والصراط بعد الميزان . ففي « الصحيحين » : ان المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص بعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة (١) . وجعل القرطبي في « التذكرة » هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة ، وليس يسقط منه أحد في النار . والله تعالى أعلم .

وقوله : (والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفتيان أبدا ولا تبديدان ، فإن الله تعالى خالق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لها أهلاً ، فمن شاء منهم الى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم الى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما / قد / فرغ له ، وصائر الى ما خلق له ، والخير والشر مقدران على العباد) .

ش : أما قوله : إن الجنة والنار مخلوقتان ، فهذا مما يدل عليه الكتاب والسنة . فمن نصوص الكتاب : قوله تعالى عن الجنة : (أعدت للمتقين) آل عمران : ٣٣ . (أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) الحديد : ٢١ . وعن النار : (أعدت للكافرين) آل عمران : ١٣١ . (إن جهنم كانت مرصداً للطاغين . آباء) النبأ : ٢١ .

(١) صحيح .

٢٢ . وقال تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى : عندها جنة المأوى)
النجم : ١٣-١٥ . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ، ورأى عندها
جنة المأوى . كما في « الصحيحين » ، من حديث أنس رضي الله عنه ، في قصة
الإسراء ، وفي آخره : « ثم انطلق بي جبرائيل ، حتى أتى سدرة المنتهى ، فغشيها
ألوان لا أدري ، ما هي ، قال : ثم دخلت الجنة ، فإذا هي جنازة اللؤلؤ ، وإذا ترابها
المسلك » (١) وفي « الصحيحين » من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحداكم إذا مات عرض عليه مقعده
بالغدادة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن
أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » (٢) وتقدم حديث
البراء بن عازب ، وفيه : « ينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من
الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها » (٣) . وتقدم
حديث أنس بمعنى حديث البراء . وفي « صحيح مسلم » ، عن عائشة رضي الله عنها ،
قالت : خسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت الحديث ،
وفيه : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت في مقامي هذا كل شيء وعلمت
به ، حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدمت (٤) ولقد رأيت
النار يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت » (٥) . وفي « الصحيحين » ، واللفظ
للبخاري ، عن عبد الله بن عباس ، قال : انخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح ، وتقدم بطوله :

(٤) في الاصل : اقدم .

(٥) صحيح .

الله عليه وسلم (١) ، فذكر الحديث ، وفيه : فقالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ، ثم رأيناك تكلمكمت ؟ فقال : « إني رأيت الجنة ، وتناولت عنقوداً ، ولو أصبته لأكأتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار ، فلم أر منظراً كالיום قط أظفع ، ورأيت أكثر أهلها النساء » ، قالوا : بهم ، يا رسول الله ؟ قال : « بكفهرن » ، قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : « يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، ولو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ، ثم رأت منك شيئاً ، قالت : ما رأيت خيراً قط !! » وفي « صحيح مسلم » من حديث أنس : « وايم الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت ، لضحكتم قليلاً وبكيتكم كثيراً » قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : « رأيت الجنة والنار » (٢) وفي « الموطأ والسنن » ، من حديث كعب بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة ، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة » (٣) . وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة . وفي « صحيح مسلم والسنن والمسنند » ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبرائيل إلى الجنة ، فقال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع فقال : وعزتك ، لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بالجنة ، فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، قال : ثم أرسله إلى النار ، قال : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها ، فإذا هي يركب (٤) بعضها بعضاً ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لا يدخلها أحد

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) في الاصل : تركب .

سمع بها ، فأمر بها ، فحفت بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر الى ما أعددت
لأهلها فيها ، فذهب فنظر اليها ، فرجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت ان لا ينجو
منها احد إلا دخلها » (١) . ونظائر ذلك في السنة كثيرة .

وقوله : لا تفنيان ابداً ولا تبیدان :

أما أبدية الجنة ، وأنها لا تنفنى ولا تبید ، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول
صلى الله عليه وسلم أخبر به ، قال تعالى : (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين
فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨
أي غير مقطوع ، ولا ينافي / ذلك / قوله : (إلا ما شاء ربك) . واختلف السلف
في هذا الاستثناء : فقليل : معناه إلا مدة مكثهم في النار ، وهذا يكون لمن دخل
منهم الى النار ثم اخرج منها ، لا لكاهم . وقيل : إلا مدة مقامهم في الموقف .
وقيل : إلا مدة مقامهم في القبور والموقف . وقيل : هو استثناء الرب ولا يفعله ،
كما تقول : والله لأضربنك إلا ان ارى غير ذلك ، وانت لا تراه ، بل تجزم بضربه
وقيل : « إلا » بمعنى الواو ، وهذا على قول بعض النحاة ، وهو ضعيف . وسيبويه
يجعل إلا بمعنى لكن ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، ورجحه ابن جرير وقال : ان الله
تعالى لا خلف لوعده ، وقد وصل الاستثناء بقوله : (عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨
قالوا : ونظيره ان تقول : اسكنتك داري حولا إلا ماشئت ، أي سوى ماشئت ،
ولكن ماشئت من الزيادة عليه . وقيل : الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في
مشيئة الله ، لأنهم يخرجون (٢) عن مشيئته ، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم
بالخلود ، كما في قوله تعالى : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك ثم لا تجد لك
به علينا وكيلاً) الاسراء : ٨٦ ، وقوله تعالى : (فإن يشأ الله يختم على قلبك)

(١) صحيح .

(٢) في الاصل : لا أنهم يخرجون .

الشورى : ٢٤ ، وقوله : (قل لو شاء الله ما تواترتم عايكم ولا أدراكم به) يونس : ١٦ ونظائره كثيرة ، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . وقيل : إن « ما » بمعنى « من » أي : إلا من شاء الله دخوله النار بدنوبه من السعداء (١) . وقيل غير ذلك . وعلى كل تقدير ، فهذا الاستثناء من المتشابه ، وقوله : (عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨ ، محكم . وكذلك قوله تعالى : (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) ص : ٥٤ . وقوله : (اكأها دائم وظلها) الرعد : ٣٧ . وقوله : (وما هم منها بمخرجين) الحجر : ٤٨ . وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن ، وأخبر أنهم : (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) الدخان : ٥٦ ، وهذا الاستثناء منقطع ، وإذا ضحمته إلى الاستثناء في قوله تعالى : (إلا ما شاء ربك) هود : ١٠٨ - تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود ، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت ، فهذه مودة تقدمت على حياتهم الأبدية ، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها .

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة : كقوله صلى الله عليه وسلم « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ويخالد ولا يموت » (٢) . وقوله : « يناد مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وأن تشبوا فلا تهروا أبداً ، وإن تحيوا فلا تموتوا أبداً » (٣) . وتقدم ذكر ذبغ الموت بين الجنة والنار ، ويقال « يا أهل الجنة ، خاود فلا موت ، يا أهل النار ، خاود فلا موت » (٤) . وأما أبدية النار ودوامها ، فهذا مما دل عليه الكتاب ، من ذلك : قوله :

(١) في الاصل : الشعراء .

(٢) مسلم .

(٣) مسلم .

(٤) متفق عليه ، وتقدم نحوه .

(ولهم عذاب مقيم » المائدة : ٤٠) لا يفتر عنهم وهم فيه مباسون (الزخرف : ٤٣ . (فلن نزيدكم إلا عذاباً) النبأ : ٣٠ (خالدين فيها أبداً) البينة : ٨ . (وما هم منها بمخرجين) الحجر : ٤٨ . (وما هم بخارجين من النار) البقرة : ١٦٧ (لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الاعراف : ٤٠ . (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر : ٣٦ . (إن عذابها كان غراماً) الفرقان : ٦٥ ، أي ، قوماً لازماً . وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله : وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار ، وأن هذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلهم ، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان . وبقاء الجنة والنار ليس لذاتها ، بل ببقاء الله لها .

وقوله : وخلق لها أهلاً - قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) الاعراف : ١٧٩ ، الآية . وقال تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أحشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً) الدهر ٢-٣ . والمراد الهداية العامة ، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى : (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه : ٥٠ . فالموجودات نوعان : أحدهما مسخر بطبعه ، والثاني متحرك بإرادته فهدى الأول لما سخره له طبيعة ، وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره . ثم قسم هذا النوع الى ثلاثة أنواع : نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه ، كاللائكة ، ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه ، كالشياطين ، ونوع يتأتى منه إرادة القسمين ، كالإنسان . ثم جمعه ثلاثة أصناف : صنفاً يغلب إيمانه ومعرفته وعقاه هواه وشهوته ، فيلتحق بالملائكة . وصنفاً عكسه ، فيلتحق بالشياطين وصنفاً تغلب شهوته البهيمية عقاه ، فيلتحق بالبهايم . والمقصود : أنه سبحانه أعطى الوجودين : العيني والعامي ، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده ، فلا هداية إلا بتعليمه

وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته ، وثبوت وحدانيته ، وتحقيق ربوبيته ،
سبحانه وتعالى :

وقوله : فمن شاء منهم الى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم الى النار عدلاً
منه ، إلخ - مما يجب ان يعلم : ان الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه ، وهو
العمل الصالح ، فإنه : (من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظاهراً ولا
هضماً) طه : ١١٢ . وكذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب ، فإن
الله تعالى يقول : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير)
الشورى : ٣٠ . وهو سبحانه المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع .
لكن إذا منّ على الإنسان بالإيمان / والعمل / الصالح ، فلا (١) يمنعه موجب ذلك
أصلاً ، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر
على قلب بشر . وحيث منعه ذلك فلا انتفاء سببه ، وهو العمل الصالح . ولا ريب انه
يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، لكن ذلك كله بحكمة منه وعدل ، فمنعه للأسباب
التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله . واما المسببات بعد وجود أسبابها ، فلا
يمنعها بحال ، إذا لم تكن أسباباً غير صالحة ، إما لفساد في العمل ، وإما لسبب
يعارض موجبه ومقتضاه ، فيكون ذلك لعدم المقتضي ، او لوجود المانع . وإذا كان
منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح ، وهو لم يعط ذلك / ابتلاء / وابتداء
/ إلا / حكمة منه وعدلا . فله الحمد في الحالين ، وهو المحمود على كل حال ، كل
عطاء منه فضل ، وكل عقوبة منه عدل ، فإن الله تعالى حكيم يضرع الاشياء في
مواضعها التي تصالح لها ، كما قال تعالى : (وإذا جاءتهم آية قالوا ان نؤمن حتى
نؤتي مثل ما أوتي رسل الله ، الله اعلم حيث يجعل رسالته) الانعام : ١٢٤ . وكما
قال تعالى : (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ، ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا

(١) في الاصل : لا .

أليس الله بأعلم بالشاكرين) الانعام : ٥٣ . ونحو ذلك . وسيأتي / لذلك / زيادة
إن شاء الله تعالى .

قوله : (والاستطاعة التي يجب بها الفعل ، من نحو التوفيق الذي لا / يجوز
أن / يوصف المخاوق به - / تكون / مع الفعل . وأما الاستطاعة من جهة الصحة
والوسع ، والتمكن (١) وسلامة الآلات - فهي قبل الفعل ، وبها يتعاق الخطاب ،
وهو كما قال تعالى : (لا يكاف الله نفساً الا وسعها) البقرة : ٢٨٦ .

ش الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع ، ألفاظ متقاربة . وتنقسم الاستطاعة
الى قسمين ، كما ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو قول عامة أهل السنة ، وهو الوسط .
وقالت القدرية والمعتزلة : لا تكون القدرة الا قبل الفعل . وقابلهم طائفة من أهل
السنة/ فقالوا لا تكون إلا مع الفعل .

والذي قاله عامة أهل السنة/ : أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي ، وهذه
قد تكون قبله ، لا يجب أن تكون معه ، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع
الفعل ، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة .

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع ، والتمكن وسلامة الآلات - فقد
تتقدم الأفعال . وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت
من استطاع إليه سبيلاً) آل عمران ٩٧ . فأوجب الحج على المستطيع ، فلو لم يستطع
إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ، ولم يعاقب أحداً على ترك
الحج ! وهذا خلاف المعام بالضرورة من دين الاسلام . وكذلك قواه تعالى :

(١) في الاصل : التمكن .

(فأتقوا الله ما استطعتم) التغابن : ١٦ . فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة ، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى ، لم يكن قد اوجب التقوى إلا على من اتقى ، ولم يعاقب من لم يتق ! وهذا معلوم الفساد . وكذا قوله تعالى : (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً) . المجادلة : ٤ . والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات . وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين : (لو استطعنا لخرجنا معكم) التوبة : ٤٣ . وكذبهم في ذلك القول ، ولو كانوا ارادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل - ما كانوا بنفيهم عن انفسهم كاذبين ، وحيث كذبهم دل / على / انهم ارادوا بذلك المرض او فقد المال ، على ما بين تعالى بقوله : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) التوبة : ٩١ ، الى ان قال : (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء) التوبة : ٩٣ . وكذلك قوله : (ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت ايما نكم) النساء : ٢٥ . والمراد : استطاعة الآلات والأسباب . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » (١) . إنما نفي استطاعة الفعل معها .

واما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة ، فقد ذكروا فيها قوله تعالى : (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) هود : ٢٠ . والمراد نفي حقيقة القدرة ، لأنني الأسباب والآلات ، لأنها كانت ثابتة . وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله : ولا يطيقون إلا ما كلفهم ، إن شاء الله تعالى . وكذا قول صاحب موسى : (إنك لن تستطيع معي صبراً) الكهف : ٦٧ . وقوله : (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً) الكهف : ٧٥ . والمراد منه حقيقة قدرة الصبر ، لا أسباب / الصبر / وآلاته ، فان تلك كانت ثابتة له ، الا ترى انه عاتبه على ذلك ؟ ولا يلام

(١) البخاري .

في عدم آلات الفعل واسبابه على عدم الفعل ، وإنما يالأم من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل ، لاشتغاله بغير ما أمر به ، أو / لعدم / شغاه إياها بفعل ما أمر به . ومن قال : إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل : يقولون : إن القدرة لاتصاح للضدين ، فإن القدرة المقارنة للفعل لاتصاح إلا لذلك الفعل ، وهي مستلزمة له ، لاتوجد بدونه .

قوله : (وأفعال العباد/هي/ خلق الله وكسب من العباد) :

ش : اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية . فزعمت الجبرية ورؤسهم الجهم بن صفوان السمرقندي : أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى ، وهي كلها اضطرارية ، كحركات المرتعش ، والعروق النابضة ، وحركات الأشجار ، وإضافتها الى الخلق مجازا وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محله دون ما يضاف الى محصله ! وقابلتهم المعتزلة ، فقالوا : إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها ، لا تعاق لها بخلق الله تعالى . واختلفوا فيما بينهم : أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟ !

وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات ، لا خالق لها سواه . فالجبرية غلوا في إثبات القدر ، فنقوا صنع العبد / اصلا/ ، كما عملت المشبهة في إثبات الصفات ، فشبهوا . والقدرية نفاة القدر جعوا العباد خالقين مع الله تعالى . وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . فكل دليل صحيح يقيمه الجبري ، فلنما يدل على أن الله خالق كل شيء ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مرید ولا مختار ، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح

وحرركات الأشجار . وكل دليل صحيح يقيمه القدري فلأنما يدل على أن العبد فاعل
لفعله حقيقة ، وأنه مرید له مختار له حقيقة ، وإن إضافته ونسبته إليه إضافة حق ،
ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته . فإذا ضمنت
ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى - فانما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن
وسائر كتب الله المنزلة ، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من
الأعيان والأفعال ، وإن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة ، وإنهم يستوجبون عليها
المدح والذم .

قوله : (ولم يكافهم الله تعالى إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كافهم
وهو تفسير « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، نقول : لا حياة لأحد ، / ولا حول لأحد / ،
ولا حركة لأحد عن معصية الله ، إلا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله
والثبات عليها إلا بتوفيق الله ، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه
وقدرته . غلبت مشيئته المشيئات كلها ، / وعكست ارادته الارادات كلها / ،
وغلب قضاؤه الحيل كلها . يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم أبداً . (لا يسأل عما يفعل
وهم يسألون) الأنبياء : ٢٣ .

ش : فقله : لم يكافهم الله تعالى إلا ما يطيقون - قال تعالى : (لا يكلف
الله نفساً إلا وسعها) البقرة : ٢٨٦ . / (لا نكلف نفساً إلا وسعها) / الانعام :
١٥٢ والأعراف : ٤١ والمؤمنون : ٦٣ .

وقوله : ولا يطيقون إلا ما كافهم به ، إلى آخر كلامه - أي : ولا يطيقون إلا
ما أقدرهم عليه . وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق ، لا التي من جهة الصحة
والوسع والتمكن وسلامة الآلات ، و « لا حول ولا قوة إلا بالله » - دليل على إثبات
القدر . وقد فسرهما الشيخ بعدها . ولكن في كلام الشيخ إشكال : فإن التكليف
لا يستعمل بمعنى الإقدار ، وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهي ، وهو قد قال : لا

يكلفهم إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كلفهم . وظاهره أنه يرجع الى معنى واحد ، ولا يصح ذلك ، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به ، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف ، كما قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) البقرة : ١٨٥ . وقال تعالى : (يريد الله أن يخفف عنكم) النساء : ٢٨ . وقال تعالى : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) الحج : ٧٨ . فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه ، ولكنه تفضل علينا ورحمنا ، وخفف عنا ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج . ويحجب عن هذا الإشكال بما تقدم : أن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق ، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات ، ففي العبارة قلق ، فتأمله .

وقوله : وكل / شيء / يجري بمشيئة الله وعامه وقضائه وقدره - يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي ، فإن القضاء يكون كونياً وشرعياً ، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحریم والكلمات ، ونحو ذلك . أما القضاء الكوني ، ففي قوله تعالى : (فقضاهن سبع سموات في يومين) حم السجدة : ١٢ . والقضاء الديني الشرعي ، في قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) الاسراء : ٢٣ . وأما الإرادة الكونية والدينية ، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ : ولا يكون إلا ما يريد . وأما الأمر الكوني ، ففي قوله تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) يس : ٨٢ . وكذا قوله تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عايبها القول فدمرناها تدميراً) الاسراء : ١٦ ، في أحد الأقوال ، وهو أقواها . والأمر الشرعي ، في قوله تعالى : (ان الله يأمر بالعدل والإحسان) النحل : ٩٠ ، الآية . وقوله : (ان الله بأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) النساء : ٥٨ . وأما الإذن الكوني ، ففي قوله تعالى : (وما هم بضارين به من أحد الا بإذن الله) البقرة : ١٠٢ . والإذن الشرعي ، في قوله تعالى : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) الحشر : ٥ . وأما الكتاب الكوني ، ففي قوله تعالى : (وما يعسر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ،

ان ذلك على الله يسير (فاطر : ١١ . وقوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الأنبياء : ١٠٥ . والكتاب الشرعي الديني ، في قوله تعالى : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) المائدة : ٤٥ . (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) البقرة : ١٨٣ . وأما الحكم الكوني ، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) يوسف : ٨٠ . وقوله تعالى : (قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) الأنبياء : ١١٢ . والحكم الشرعي ، في قوله تعالى : (أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ، ان الله يحكم ما يريد) المائدة : ٢ . وقال تعالى : (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) الممتحنة : ١٠ . وأما التحريم الكوني ، ففي قوله تعالى : (قال فلإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) المائدة : ٢٦ . (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) الأنبياء : ٩٥ . والتحريم الشرعي ، في قوله : (حرمت عليكم : الميتة والدم / ولحم الخنزير /) المائدة : ٣ . و (حرمت عليكم أمهاتكم) النساء : ٢٣ ، وأما الكلمات الكونية ، ففي قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا) الاعراف : ١٣٧ . وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » (١) . والكلمات الشرعية الدينية ، في قوله تعالى : (واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) البقرة : ١٢٤ .

وقوله : يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم أبداً - الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد ، يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدرية والجبرية ، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً ، كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم ! فإن ذلك تمثيل لله بخلقه ! وقياس له عابهم ! هو الرب الغني القادر ، وهم العباد الفقراء المهجورون . وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة ،

(١) صحيح .

كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ ، يَقُولُونَ : إِنَّهُ يَمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ /فِي/ الممكن المقسود ظلماً ، بل كان ما كان ممكناً فهو منه - لو فعله - عدل ، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي ، والله ليس كذلك . فإن قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) طه : ١١٢ ، وقوله تعالى : (ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد) ق : ٢٩ ، وقوله تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) الزخرف : ٧٦ ، وقوله تعالى : (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) الكهف : ٤٩ ، وقوله تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب) غافر : ١٧ . يدل على نقيض هذا القول .

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا » (١) . فهذا دل على شيئين : أحدهما : أنه حرم على نفسه الظلم ، والممتنع لا يوصف بذلك . الثاني : أنه أخبر أنه حرمه على نفسه ، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي ، والله ليس كذلك . فيقال لهم : هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ، وحرم عن نفسه الظلم ، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه ، لا ما هو ممتنع عليه .

وأيضاً : فإن قوله : (فلا يخاف ظالماً ولا هضماً) طه : ١١٢ - قد فسرهُ السلف ، بأن الظلم : أن توضع عليه سيئات غيره ، والهضم : أن ينقص من حسناته ، كما قال تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الاسراء : ١٥ .

(١) مسلم وتقديم :

قوله : (وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم للأموات) .

ش : اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين : أحدهما : ما تسبب إليه الميت في حياته . والثاني : دعاء المسلمين واستغفارهم له ، والصدقة والحج ، على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج : فعن محمد بن الحسن : أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة ، والحج للحاج . وعند عامة العلماء : ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو الصحيح . واختلاف في العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر : فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها . وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة ، لا الدعاء ولا غيره . وقولهم مردود بالكتاب والسنة ، لكنهم استدلوا بالمشابهة من قوله تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) النجم : ٩٣ . وقوله : (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يس : ٥٤ . وقوله : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) البقرة : ٢٨٦ . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده » (١) . فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة ، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه . واستدل المقتضون على وصول العبادات التي /لا/ تدخلها النيابة (٢) بحال ، كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن ، /وأنه/ يختص ثوابها بفاعلها لا يتعداه ، كما أنه في الحياة لا يفعلها أحد عن أحد ، ولا ينوب فيه عن فاعله غيره . بما (٣) روى النسائي بسنده ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه

(١) مسلم .

(٢) في الاصل : النية .

(٣) في الاصل : وقد .

قال : « لا يصلي أحد عن أحد ، ولا يصوم أحد عن أحد ، وإنما يطمع عنه مكان كل يوم مداً من حنطة » (١) .

والدليل على انتفاع الميت بغير ماتسبب فيه ، الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح . أما الكتاب ، فقال تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) الحشر : ١٠ . فأثني عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء . وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء لإجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة ، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة . وكذا الدعاء له بعد الدفن ، ففي « سنن أبي داود » ، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » (٢) . وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم ، كما في « صحيح مسلم » ، من حديث بُريدة ابن الحصيب ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية » (٣) وفي « صحيح مسلم » أيضاً ، عن عائشة رضي الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم : كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور ؟ قال : : قولي : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا / ومنكم / والمستأخرين

(١) لا أعرف له أصلاً مرفوعاً ، لا عند النسائي ولا عند غيره ، وإنما رواه النسائي في « الكبرى » (٤/٤٣/١) والطحاوي في « مشكل الآثار » (٣/١٤١) عن ابن عباس موقوفاً عليه . وسنده صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح :

وإنا ان شاء الله بكم لاحقون « (١) .

وأما وصول ثواب الصدقة ، ففي « الصحيحين » ، عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إن أمي أفطنت نفسها ولم توص ، واطنّها لو تكامت تصدقت ، أفلهما اجر ان تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » (٢) . وفي « صحيح البخاري » ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : ان سعد ابن عبادة توفيت امه وهو غائب عنها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ان أمي توفيت وانا غائب عنها ، فهل ينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » ، قال : فإني اشهدك ان حائطي المخراف صدقة عنها (٣) . وامثال ذلك كثيرة في السنة .

وأما وصول ثواب الصوم ، ففي « الصحيحين » ، عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » (٤) وله نظائر في « الصحيح » . ولكن ابو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه ، لحديث ابن عباس المتقدم . والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع :

وأما وصول ثواب الحج ، ففي « صحيح البخاري » ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ان امرأة من مُجَهِنَةَ جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إن أمي نذرت ان تحج فلم تحج سني ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : « حجي عنها ، أرأيتِ

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

لو كان على امك دين^١ ، اكننت قاضيته : اقضوا الله ، فالله احق بالوفاء^(١) . ونظائره ايضاً كثيرة . واجمع المسلمون على ان قضاء الدين يُسقطه من ذمة الميت ولو كان من اجنبي ، ومن غير تركته . وقد دل على ذلك حديث ابي قتادة ، حيث كُثر من الدينارين عن الميت ، فلما قضاها قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الآن بردت عليه جامدته »^(٢) . وكل ذلك جار على قواعد الشرع . وهو مخض القياس ، فإن الثواب حق العامل ، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك ، كما لم يمنع من هبة ماله في حياته ، وإبرائه له منه بعد وفاته . وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية . يوضحه : ان الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية ، وقد نص الشارع على وصول ثوابه الى الميت ، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية ؟ !

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى النجم : ٣٩ - قد اجاب العلماء بأجوبة : اصحها جوابان : احدهما : ان الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء ، واولد الأولاد ، ونكح الزوج ، واسدى الخير وتودد الى الناس ، فترحموا عليه ، ودعوا له وأهدوا له ثواب الطاعات ، فكان ذلك اثر سعيه ، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الاسلام من اعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين الى صاحبه ، في حياته وبعد مماته ، ودعوة المسلمين لتحيط من ورائهم . يوضحه : ان الله تعالى جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم ، فإذا اتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل اليه ذلك . الثاني ، وهو اقوى منه - : ان القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه ، وبين الأمرين فرق مالا يخفى . فأخبر تعالى انه

(١) صحيح .

(٢) حسن . رواه الحاكم وغيره .

لا يملك الا سعيه ، واما سعي غيره فهو ملك لساعيه ، فإن شاء ان يبذله لغيره ، وان شاء ان يبقيه لنفسه .

وقوله سبحانه : (ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ما سعى) النجم : ٣٨-٣٩ . آيتان محكمتان ، مقتضيتان عدل الرب تعالى : فالأولى تقتضي أنه لا يعاقب أحداً بجرم غيره ، ولا يؤاخذ به بجريرة غيره ، كما يفعل ملوك الدنيا . والثانية تقتضي أنه لا يفاح إلا بعماله ، لينقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسافه وشايخه ، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب ، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى .

وكذلك قوله تعالى : (لها ما كسبت) البقرة : ٢٨٦ . وقوله : (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يس : ٥٤ . على أن سياق هذه الآية يدل على ان المنفي عقوبة العبد بعمل غيره ، فإنه تعالى قال : (فاليوم لا نظلم نفس شيئاً ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يس ٥٤ .

وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله » (١) فاستدلال ساقط ، فإنه لم يقل انقطاع انتفاعه ، وإنما اخبر عن انقطاع عمله . واما عمل غيره فهو لعماله ، / فان / وهبه له وصل اليه ثواب عمل العامل ، لا ثواب عماله هو ، وهذا كالدين يوفيه الإنسان عن غيره ، فقبرا ذمته ، ولكن ليس له ما وفى به (٢) الدين .

وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية - فقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم الصوم عن الميت ، كما تقدم ، مع ان الصوم لا تجزى فيه النيابة ،

(١) رواه مسلم واحمد .

(٢) في الاصل : هذا .

وكذلك حديث جابر رضي الله عنه ، قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيد الاضحى ، فلما انصرف اتى بكبش فذبحه ، فقال : « بسم الله والله اكبر ، اللهم هذا غني وعمن لم يضح من امتي » (١) ، رواه احمد وابو داود والترمذي ، وحديث الكبشين اللذين قال في احدهما : « اللهم هذا عن امتي جميعاً » (٢) ، وفي الآخر : « اللهم هذا عن محمد وآل محمد » (٣) ، رواه احمد . والقربة في الاضحية اراقة الدم ، وقد جعلها لغيره .

وكذلك عبادة الحج بدنية : وليس / المال / ركناً فيه ، وانما هو وسيلة ، ألا ترى ان المبكي يجب عليه الحج اذا قدر على المشي الى عرفات ، من غير شرط المال . وهذا هو الأظهر ، اعني ان الحج غير مركب من مال وبدن ، بل بدني محض ، كما قد نص عليه جماعة من اصحاب ابي حنيفة المتأخرين . وانظر الى فروض الكفايات : كيف قام فيها البعض عن الباقيين ؟ ولأن هذا اهداء ثواب ، وليس من باب النياحة ، كما ان الأجير الخاص ليس له ان يستنيب عنه ، وله ان يعطي اجرته لمن شاء .

واما استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت !! فهذا لم يفعله احد من السلف ، ولا امر به احد من ائمة الدين ، ولا رخص فيه . والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف . وانما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه ، مما فيه منفعة تصل الى الغير . والثواب لا يصل الى الميت الا اذا كان العمل لله ، وهذا لم يقع عبادة خالصة ، فلا يكون / له من / ثوابه ما يهدى الى الموتى !! ولهذا لم يقل

(١) صحيح لشواهده . انظر «المجمع» (٢٢/٤ - ٢٣) ، ومن شواهده الذي بعده .

(٢) حسن . وهو في «المسند» (٣٩١/٦ - ٣٩٢) .

(٣) ضعيف الاسناد ، فيه ابو صالح الخوزي . قال في «التقريب» : « لين

الحديث » ، واما الحاكم فقال في هذا الحديث (٤٩١/١) : « صحيح الاسناد » ،

وسكت عليه الذهبي ! وقال الترمذي : « لانعرفه الا من هذا الوجه » .

احد انه يكثر من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك الى الميت ، لكن اذا اعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك ، كان هذا من جنس الصدقة عنه ، فيجوز . وفي الاختيار : لو اوصى بأن يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره ، فالوصية باطلة ، لأنه في معنى الأجرة ، انتهى . وذكر الزاهد في « الغنية » : انه لو وقف على من يقرأ عند قبره ، فالتعيين باطل .

واما قراءة القرآن واهدائها له تطوعاً بغير اجرة ، فهذا يصل اليه ، كما يصل ثواب الصوم والحج . فإن قيل : هذا لم يكن معروفاً في السلف ، ولا ارشدهم اليه النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فالجواب : ان كان مورد هذا السؤال معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء ، قيل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول ، ومن اين لنا هذا النبي العام ؟ فإن قيل : فرسول الله صلى الله عليه وسلم ارشدهم الى الصوم والحج والصدقة دون القراءة ؟ قيل : هو صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميتة فأذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم عنه ، فأذن له فيه ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك ، واي فرق بين وصول ثواب الصوم - الذي هو مجرد نية وامسالك - وبين وصول ثواب القراءة والذكر ؟ فإن قيل : ماتقولون في الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قيل : من المتأخرين من استحبوه ، ومنهم من رآه بدعة ، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم له مثل اجر كل من عمل خيراً من أمته ، من غير ان ينقص من اجر العامل شيء ، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير ، وارشدهم اليه .

ومن قال : ان الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده ، باعتبار سماعه كلام الله - فهذا لم يصح عن احد من الأئمة المشهورين . ولا شك في سماعه ، ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح ، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة ، فإنه عمل اختياري ، وقد

انقطع بموته ، بل ربما يتضرر ويتألم ، لكونه لم يمثل اوامر الله ونواهيه ، او لكونه لم يزد من الخير .

واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور ، على ثلاثة اقوال : هل تكرهه ، ام لا بأس بها وقت الدفن ، وتكره بعده ؟ فمن قال بكراهتها ، كأبي حنيفة ومالك واحمد في رواية - قالوا : لأنه محدث ، لم ترد به السنة ، والقراءة تشبه الصلاة ، والصلاة عند القبور منهي عنها ، فكذلك القراءة . ومن قال : لا بأس بها ، كمحمد بن الحسن واحمد في رواية - استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه : انه اوصى ان يقرأ على قبره وقت الدفن بقوانح سورة البقرة وخواتمها ، ونقل ايضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة . ومن قال : لا بأس بها وقت الدفن فقط ، وهو رواية عن أحمد - أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين . وأما بعد ذلك ، كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده - فهذا مكروه ، فإنه لم تأت به السنة ، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلاً . وهذا القول لعلمه أقوى من غيره ، لما فيه من التوفيق بين الدليلين .

/ قوله / : (والله تعالى يستجيب الدعوات ، ويقضي الحاجات) .

ش : قال تعالى : (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) غافر : ٦٠ . (واذا سألك عبادي عني فإني قريب ، اجيب دعوة الداع اذا دعان) البقرة : ١٨٦ . والذي عليه اكثر الخلق . المسالمين وسائر اهل الملة وغيرهم - : ان الدعاء من اقوى الأسباب في - ب المنافع ودفع المضار ، وقد اخبر تعالى عن الكفار انهم اذا مسهم الضر في الد - ر دعوا الله مخلصين له الدين ، وان الإنسان اذا مسه الضر دعاه لجنبه او قاعداً ر قائماً . واجابة الله للدعاء العبد ، مساماً كان او كافراً ، واعطاؤه سؤاله - : ، جنس رزقه لهم ، ونصره لهم . وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً ، ثم قد ين ذلك فتنة في حقه وضررة عليه ، اذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك :

وفي « سنن ابن ماجه » من حديث ابي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يسأل الله / يغضب عليه » (١) . وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال

الرب يغضب ان تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن عقيل : قد ندب الله تعالى الى الدعاء ، وفي ذلك معان : أحدها : الوجود فإن الذي ليس بوجود لا يدعى . الثاني : الغنى ، فإن الفقير لا يدعى . الثالث : السمع ، فإن الأصم لا يدعى . الرابع : الكرم ، فإن البخيل لا يدعى . الخامس : الرحمة ، فإن القاسي لا يدعى . السادس : القدرة ، فإن العاجز لا يدعى .

وهنا سؤال معروف ، وهو : أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى شيئاً ، او يعطى غير ما سأل ؟ وقد اجيب عنه بأجوبة ، فيها ثلاثة اجوبة محققة - : أحدها ان الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقاً ، وإنما تضمنت إجابة الداعي ، والداعي اعم من السائل ، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا فيقول : من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » (٢) . ففرق بين الداعي والسائل ، وبين الإجابة والإعطاء ، وهو فرق بين العموم والخصوص كما أتبع ذلك بالمستغفر وهو نوع من السائل ، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص . وإذا علم العباد انه قريب ، يجيب دعوة الداعي ، علموا قربهم منهم ، وتمكنهم من سؤاله - : وعلموا علمه ورحمته وقدرته ، فدعوه دعاء العبادة في حال ، ودعاء المسألة في حال ، / وجمعوا بينهما في حال / ، إذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة ، وقد فسرقوله (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) غافر : ٦٠ - بالدعاء ، الذي هو العبادة ، والدعاء الذي هو الطلب . وقوله بعد ذلك : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي)

(١) صحيح .

(٢) صحيح متواتر ، وقد ذكرت بعض طرقه في « ارواء الغليل » :

غافر ٦٠ - يؤيد المعنى الأول . الجواب الثاني : أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين السؤال ، كما فسرہ النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في « صحيحه » أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يجعل له دعوته ، أو يدخر له من الخير مثلاً ، أو يصرف عنه من الشر مثلاً » ، قالوا : يا رسول الله ، إذا نكث ، قال : « الله أكثر » (١) . فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً ، أو مثله من الخير مؤجلاً ، أو يصرف عنه من السوء مثله . الجواب الثالث : أن الدعاء سبب مقتضى انيل المطلوب ، والسبب له شروط وموانع ، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب ، بل قد يحصل غيره . وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلى عليها جانبٌ منافع أو دفع مضار ، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل ، تختلف باختلاف قوته وما يعينها ، وقد يعارضها مانع من الموانع . ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر - : من هذا الباب . وكثيراً ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكر الحسنة أو صادف وقت إجابة ، ونحو ذلك - فأجيب دعوته ، فيظن أن السر في ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي ، فانتفع به ، فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرد كافي في حصول المطاوب ، وكان غالطاً . وكذا قد يدعو بالضطرار عند قبر ، فيجيب ، فيظن أن السر للقبر ، ولم يدرك أن السر للاضطرار وصدق اللجاء (٢) إلى الله تعالى ، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان

(١) صحيح .

(٢) « اللجاء » - بفتح اللام وسكون الجيم : مصدر ، كاللجوء .

أَفْضَلُ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . فَالْأَدْعِيَةُ وَالْتَعَوِذَاتُ وَالرُّقَى بِمَنْزِلَةِ السِّلَاحِ ، وَالسِّلَاحُ بِضَارِبِهِ ، لَا يَجِدُهُ فَقَطْ ، فَتَمَّتْ كَانَ السِّلَاحُ سِلَاحًا تَامًا ، وَالسَّاعِدُ سَاعِدًا قَوِيًّا وَالْحُلَّ قَابِلًا ، وَالْمَانِعُ مَفْقُودًا - : حَصَلَتْ بِهِ النِّكَايَةُ فِي الْعَدُوِّ ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأْثِيرُ . فَإِذَا كَانَ الدَّعَاءُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ صَالِحٍ ، أَوْ الدَّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فِي الدَّعَاءِ ، أَوْ كَانَ تَمَّ مَانِعٌ مِنَ الْإِجَابَةِ - : لَمْ يَحْصُلِ الْأَثَرُ .

قوله : (وَيَمْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ . وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرَفَةٌ عَيْنٍ وَمَنْ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ طَرَفَةٌ عَيْنٍ ، فَقَدْ كَفَرَ وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الْكَلْبِ) .

ش : كَلَامٌ حَقٌّ ظَاهِرٌ لَا خُفَاءَ فِيهِ . وَالْحَيْنُ ، بِالْفَتْحِ : الْهَلَاكُ .

قوله : (وَاللَّهُ يَغْضِبُ وَيَرْضَى ، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى) .

ش : قَالَ تَعَالَى : (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) الْمَائِدَةُ : ١٢٢ وَالتَّوْبَةُ : ١٠١ وَالْمُجَادَلَةُ ٢٢ وَالْبَيِّنَةُ : ٨ . (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) الْفَتْحُ ١٨ . وَقَالَ تَعَالَى : (مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) الْمَائِدَةُ : ٦٠ . (/ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ / وَلَعَنَهُ) النِّسَاءُ : ٩٣ . (وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ) الْبَقَرَةُ : ٦١ . وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ . وَمَذْهَبُ السَّلَفِ وَسَائِرُ الْأَثَمَةِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ ، وَالرَّضَى ، وَالْعَدَاوَةِ وَالْوَلَايَةِ ، وَالْحُبِّ ، وَالْبَغْضِ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ ، الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَمَنْعُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يَصْرِفُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا اللَّائِقَةِ (١) بِاللَّهِ تَعَالَى . كَمَا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ فِيمَا تَقَدَّمَ بِقَوْلِهِ إِذَا كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنَى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ - تَرَكَ التَّأْوِيلَ ، وَلِزُومِ التَّسْلِيمِ ، وَعَالِيهِ دِينَ الْمَسَاحِينِ (٢) . وَانْظُرْ إِلَى جَوَابِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صِفَةِ / الْإِسْتِوَاءِ / كَيْفَ قَالَ : الْإِسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ . وَرَوَى أَيْضًا

(٢) فِي الْأَصْلِ : الْمُرْسَلِينَ .

(١) فِي الْأَصْلِ : اللَّائِقَةُ بِمَا .

نحن أم سلامة رضي الله عنها موقفاً عليها ، ومرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم : « من لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه » (١) . ويأتي في كلامه : « أن الإسلام بين الغلو والتقصير ، وبين التشبيه والتعديل » . فقول الشيخ رحمه الله : لا كأحد من الوري ، نفى التشبيه . ولا يقال : إن الرضى إرادة الإحسان ، والغضب إرادة الانتقام . فإن هذا نفى للصفة . وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه ، وإن كان لا يريد ولا يشاءه ، وينهى عما يسخطه ويكرهه ، ويبغضه ويغضب على فاعله ، وإن كان قد شاءه وأراد . فقد يجب عندهم ويرضى ما لا يريد ، ويكره ويسخط لما أراد .

ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان : لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول : إن الغضب غليان دم القاب ، والرضى الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ! فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، لا أنه الغضب . ويقال له أيضاً : وكذلك الإرادة والمشئة فينا ، فهي ميل الحى إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه ، فإن الحى منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة ، وهو محتاج إلى ما يريد ومفتقر إليه ، ويزداد بوجوده ، وينقص بعدمه . فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء ، فإن جاز هذا جاز ذلك ، وإن امتنع هذا امتنع ذلك .

فإن قال : /الإرادة/ التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ؟ قيل له : فقل : إن الغضب والرضى الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة . فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات ، لم يتعين التأويل ، بل يجب تركه ، لأنك تسلم من المناقض ، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا

(١) لا يصح مرفوعاً :

فالموجب . فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ، ولا يكون
الموجب للصرف مادله عليه عقله ، إذ العقول مختلفة ، فكله يقول إن عقله دله على
خلاف مايقوله الآخر !

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى ، لامتناع مسمى
ذلك في المخلوق ، فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف مايعهده حتى في
صفة الوجود ، فإن وجود العبد كما يليق به ، ووجود الباري تعالى كما يليق به ،
فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجوده المخلوق لا يستحيل عليه العدم ، وما
سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته ، مثل الحي والعليم والتقدير ، أو سمي به بعض
صفاته ، كالغضب والرضى ، وسمى به بعض صفات عبادته - : فنحن نعقل بقلوبنا
معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى ، وأنه حق ثابت موجود ، ونعقل أيضاً معاني
هذه الأسماء في حق المخلوق ، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً ، لكن هذا
المعنى لا يوجد في الخارج مشتركاً ، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركاً إلا في
الأذهان ، ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصاً . فيثبت/في/ كل منها كما يليق به .
بل لو قيل : غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة - : لم يجب أن يكون
مماثلاً لكيفية غضب الآدميين ، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة ، حتى تغلي
دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه . فغضب الله أولى .

وقوله : (ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نفرط في حب
أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم . ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم .
ولا نذكرهم إلا بخير . ونحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطفیان) .

ش : لقد أثنى الله تعالى على الصحابة هو ورسوله ، ورضي عنهم ، ووعدهم
الحسن ، كما قال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين
اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها

الأنهار ، لخالدين فيها /أبدأ/ ، ذلك الفوز العظيم (التوبة : ١٠٠ . وقال تعالى :
 (محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً مسجداً)
 الفتح : ٢٩ ، الى آخر السورة . وقال تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ
 يبايعونك تحت الشجرة) الفتح : ١٨ . وقال تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا
 وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم
 أولياء بعض) الانفال : ٧٢ ، الى آخر السورة . وقال تعالى : (لا يستوي منكم من
 أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ،
 وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير) الحديد : ١٠ . وقال تعالى :
 (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلاً من الله
 ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار
 والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ،
 ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم
 المفلحون . والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا
 بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم) الحشر :
 ٨-١٠ . وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار ، وعلى الذين جاؤوا
 من بعدهم ، يستغفرون لهم ، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم ، وتتضمن
 أن هؤلاء هم /المستحقون للقيء (١) ، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر
 لهم لا يستحق في القيء نصيباً ، بنص القرآن . وفي « الصحيحين » عن أبي سعيد
 الخدري رضي الله عنه ، قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف
 شيء ، فسبه خالد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أحداً من
 أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » (٢) .

(١) في الاصل : للنجاء .

(٢) صحيح .

انفرد مسلم بذکر سب خالد لعبد الرحمن ، دون البخاري : فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لخالد ونحوه : « لاتسبوا أصحابي » ، يعني عبد الرحمن وأمثاله ، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا ، وهم أهل بيعة الرضوان ، / فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان / ، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية ، وبعد مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة ، ومنهم خالد بن الوليد ، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم الى فتح مكة ، وسموا الطلقاء ، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية . والمقصود أنه نهى من له صحبة آخرأ أن يسب من له صحبة أولاً ، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه ، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية ، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال ؟ رضي الله عنهم أجمعين :

والسابقون الأولون - من المهاجرين والأنصار - هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم ، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة ؛ وقيل : إن السابقين الأولين من صلى الى القبلتين ، وهذا ضعيف . فإن الصلاة الى القبلة المنسوخة ليس بمجرد فضيلة ، لأن النسخ ليس من فعلهم ، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي ، كما دل على التفضيل بالسبق الى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة .

وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » (١) - فهو حديث ضعيف ، قال البزار : هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة . وفي « صحيح مسلم » عن جابر ، قال : قيل لعائشة رضي الله عنها : إن ناساً

(١) بل هو حديث باطل كما بينته في « الاحاديث الضعيفة والموضوعة »

(رقم ٥٧) :

يَتَنَاولُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ ! فَقَالَتْ : وَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا ! انْقَطَعَ عَنْهُمْ الْعَمَلُ ، فَأَحَبَّ اللَّهُ أَنْ لَا يَقْطَعَ عَنْهُمْ الْأَجْرُ (١) .

وَرَوَى ابْنُ بَطَّةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ قَالَ : لَا تُسَبِّحُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَالْحَقَامُ أَحَدُهُمْ سَاعَةً ، يَعْنِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً (٢) . وَفِي رِوَايَةٍ وَكَيْسٍ : خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ عَمْرَهُ . وَفِي « الصَّحِيحِينَ » مِنْ حَدِيثِ عُمَرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَغَيْرِهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » ، قَالَ عُمَرَانُ : فَلَا أَدْرِي : أَذْكَرُ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ (٣) ، الْحَدِيثُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » عَنْ جَابِرٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » (٤) . وَقَالَ تَعَالَى : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) التَّوْبَةُ : ١١٧ ، الْآيَاتُ . وَلَقَدْ صَادَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَصْفِهِمْ ، حَيْثُ قَالَ : إِنْ اللَّهُ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَجَعَلَهُمْ وَزَرَاءَ نَبِيِّهِ ، يَقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ ، فَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ ، وَمَا رَأَوْهُ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ (٥) . / وَفِي رِوَايَةٍ / : وَقَدْ رَأَى أَصْحَابُ

(١) هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ عِنْدِي ، وَعَزَّوْهُ لِمُسْلِمٍ أَغْرَبَ فَنَانِي لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ فِيهِ ، بَعْدَ الِاسْتِعَانَةِ عَلَيْهِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ ، وَلَمْ يَتَيَسَّرْ لِي مُرَاجَعَتُهُ فِي مَصَادِرِ أُخْرَى مِنْ كِتَابِ الْحَدِيثِ .

(٢) صَحِيحٌ . (٣) صَحِيحٌ .

(٤) صَحِيحٌ :

(٥) حَسَنٌ مُوقُوفًا ، أَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ وَأَحْمَدُ وَغَيْرُهُمَا بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ ، وَصَحِيحُهُ الْحَاكِمُ وَوَافِقُهُ الذَّهَبِيُّ .

مُجد جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر . وتقدم قول ابن مسعود : من كان منكم مستنّاً
فايستن بمن قد مات ، إلخ - عند قول الشيخ : وتبّع السنة والجماعة .

فن أضلّ ممن يكون في قلبه غل على خيار المؤمنين ، وسادات أولياء الله
تعالى بعد النبيين ؟

وقوله : ولا نفرط في حب أحد منهم - أي لا نتجاوز الحد في حب أحد
منهم ، فتكون من المعتدين . قال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)
النساء : ١٧١ .

وقوله : ولا نتبرأ / من أحد / منهم - فأهل السنة يوالونهم كلهم ، وينزلونهم
منازلهم التي يستحقونها ، بالعدل والإنصاف ، لا بالهوى والتعصب . فإن ذلك
كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد ، كما قال تعالى : (فما اختلفوا إلا من بعد ما
جاءهم العلم بغياً بينهم) الجاثية : ١٧ .

وقوله : وحبهم دين وإيمان وإحسان - لأنه امثال لأمر الله فيما تقدم من
النصوص . وروى الترمذي عن عبد الله بن مغفل ، قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً / بعدي / ، فن أحبهم
فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن
آذاني فقد آذى الله / تعالى / ، / ومتى آذى الله فيوشك أن يأخذه » (١) .

وقوله : وبغضهم كفر ونفاق وطغيان - تقدم الكلام في تكفير أهل البدع ،
وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
ال كافرون) المائدة : ٤٤ . وقد تقدم الكلام في ذلك ،

(١) ضعيف ، وقال الترمذي : « غريب » :

قوله : (وثبتت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة) .

ش : اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه : هل كانت بالنص ، أو بالاختيار ؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة ، ومنهم من قال بالنص الجلي . وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار :

والدليل على إثباتها بالنص اخبارٌ : من ذلك ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم ، قال : أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرها أن ترجع إليه ، قالت : أرأيت إن جئت فلم أجده ؟ كأنها تريد الموت ، قال : « إن لم تجديني فأني أبا بكر » (١) . وذكر له سياق آخر ، وأحاديث أخر . وذلك نص على إمامته . وحديث حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا بالذين من بعدي : أبي بكر وعمر » (٢) . رواه أهل السنن . وفي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها ، قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي بُدئ فيه ، فقال : ادعي لي أباك وأخاك ، حتى أكتب لأبي بكر كتاباً ، ثم قال : يا أباي الله والمسلمون إلا أبا بكر » (٣) . وفي رواية : « فلا يطمع في هذا الأمر طامع » . وفي رواية : قال : « ادعي لي عبدالرحمن بن أبي بكر لأكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه ، ثم قال : معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر » . وأحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة ، وهو يقول : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » (٤) . وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة ، فصلى بهم مدة

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) متفق عليه .

مرض النبي صلى الله عليه وسلم . وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بيننا أنا نائم رأيتني على قليب ، عليها دلو فتزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبي قحافة ، فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين ، وفي نزعها ضعف ، والله يغفر له ، ثم استحالت غرباً ، فأخذها ابن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه ، حتى ضرب الناس بعطن » (١) . وفي « الصحيح » أنه صلى الله عليه وسلم قال على منبره : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، لا يبقين في المسجد خوخة الا سدت ، الا خوخة أبي بكر » (٢) . وروى أبو داود أيضاً عن سمرة بن جندب : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، رأيت كأن دلواً دلي من السماء ، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها ، فشرب شرباً ضعيفاً ، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضرع ، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها ، فانتشطت منه ، فانتضح عليه منها شيء . وعن سعيد بن جهمان ، عن سفينة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله مملكه من يشاء » (٣) . او الملك .

واحتج من قال لم يستخلف ، بالخبر المأثور ، عن عبد الله بن عمر ، عن عمر رضي الله عنهما ، أنه قال : « ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، يعني ابا بكر ، وان لا استخلف ، فلم يستخلف من هو خير / مني / ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، / قال عبد الله : فعرفت أنه حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مستخلف / . وبما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلفاً او استخلف . والظاهر - والله اعلم - ان المراد أنه

(١) صحيح .

(٢) متفق عليه .

(٣) حسن :

لم يستخلف بعهد مكتوب ، ولو كتب عهداً لكتبه لأبي بكر ، بل قد أراد كتابته ثم تركه ، وقال : « يا بى الله والمسلمون الا ابابكر » (١) . فكان هذا أبلغ من مجرد العهد ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف أبي بكر ، وارشدهم اليه بأمور متعددة ، من أقواله وأفعاله ، وانخبر بخلافته لإخبار راض بذلك ، حامد له ، وعزم على ان يكتب بذلك عهداً ، ثم علم ان المسلمين يجتمعون عليه ، فترك الكتاب اكتفاء بذلك ، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ، ثم لما حصل لبعضهم شك : هل ذلك القول من جهة المرض ؟ او هو قول يجب اتباعه ؟ ترك الكتابة ، اكتفاء بما علم ان الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر . فلو كان التبعين مما يشتهه على الأمة لبيته بياناً قاطعاً للعذر ، لكن لما دلت دلالات متعددة على ان ابابكر المتعين ، وفهموا ذلك - حصل المقصود . ولهذا قال عمر رضي الله عنه ، في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار : أنت خيرنا وسيدنا واحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم ينكر ذلك منهم أحد ، فقد كانوا يعاجون فضل أبي بكر رضي الله عنه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم له . ففي «الصحيحين» عن عمرو بن العاص : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته ، فقالت : أي الناس أحب اليك ؟ قال : « عائشة » ، قلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » ، قالت : ثم من ؟ قال : « عمر ، وعد رجلاً » (٢) . وفيها ايضاً ، عن أبي الدرداء ، قال : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل ابوبكر آخذاً بطرف ثوبه ، حتى ابدى عن ركبتيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما صاحبكم فقد غامر » ، فسلم ، وقال : / يا رسول الله / ، إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت اليه ، ثم ندمت ، فسألته ان يغفر لي / فأبى علي ، فأقبلت اليك / ، فقال : « يغفر الله لك يا أبا بكر ، ثلاثاً » ثم إن عمر ندم ،

(١) مسلم .

(٢) صحيح :

فأتى منزل أبي بكر ، فسأل : أأثم أبو بكر؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، / فسلم عليه / ، فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر ، حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على ركبتيه ، فقال : يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم ، مرتين / فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثني إليكم ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواسأني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ مرتين ، فما أؤذي بعدها « (١) . ومعنى : غامر : غاضب وخاصم . وبضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله .

وفي « الصحيحين » أيضاً ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسنع (٢) - فذكرت الحديث - إلى أن قالت : واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عباد ، في سقيفة بني ساعدة ، فقالوا : منا أمير ، ومنكم أمير ! فذهب إليهم أبو بكر / الصديق / ، وعمر ابن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمر يتكلم ، فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول : والله ما أردت بذلك إلا أني / قد / هيأت في نفسي كلاماً قد أعجلني ، خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ! ثم تكلم أبو بكر ، فتكلم أبلغ الناس ، فقال في كلامه : نحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، فقال حباب بن المنذر : لا والله لا نفعل ، منا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر : لا ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء . هم أوسط العرب ، وأعزهم أحساباً ، فبايعوا عمر / ابن الخطاب / ، أو أبا عبيدة بن الجراح ، فقال عمر : بل نبايعك ، فأنت سيدنا ، وخيرنا ، واحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ عمر بيده ، فبايعه ، وبايعه

(١) البخاري :

(٢) « السنع » ، بضم السين المهملة وسكون النون - ويجوز ضمها - وآخره حاء مهملة : طرف من أطراف المدينة بعواليها ، كان بينها وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل ، وكان بها منزل أبي بكر .

الناس ، فقال قائل : قتلتم مسلماً ، فقال عمر : قتله الله (١) . والسنح : العالية ، وهي
حديقة بالمدينة معروفة بها :

قوله : (ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه) :

ش : اي وثبت الخلافة بعد ابي بكر رضي الله عنه ، / لعمر رضي الله عنه / .
وذلك بتفويض ابي بكر الخلافة اليه ، واتفاق الأمة بعده عليه . وفصائله رضي الله
عنه اشهر من ان تنكر ، واكثر من ان تذكر . فقد روي عن محمد بن الحنفية انه
قال : قلت لأبي : يا أبت ، من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فقال : يا بني ، أو ما تعرف ؟ فقلت : لا ، قال : ابو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال
عمر ، وخشيت ان يقول : ثم عثمان ! فقلت : ثم انت ؟ فقال : ما أنا إلا رجل
من المساجين . وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا بالآتين من بعدي : ابي
بكر وعمر » (٢) . وفي « صحيح مسلم » ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : وضع
عمر على سريره ، فتكنفه الناس يدعون ويشنون ويصاون عليه ، قبل ان يرفع ، وانا
فيهم ، فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي ، فالتفت اليه ، فإذا هو علي
فترحم علي عمر ، وقال : ما خلفت احداً احب الي أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وإيم
الله ، ان كنت / لأظن ان يجعلك الله مع صاحبك ، وذلك أني كنت / كثيراً
ما أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخات
أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فإن كنت لأرجو ، أو لأظن أن
يجعلك الله معهما (٣) . وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، في رؤيا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ونزعه من القليب ، ثم نزع أبي بكر ، ثم استحالت الدلو غرباً ،

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

فأخذها ابن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن (١) . وفي « الصحيحين » ، من حديث سعد بن أبي وقاص : قال : استأذن عمر ابن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده نساء من قريش ، يكلمنه عالية اصواتهن - الحديث ، وفيه - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيه يا ابن الخطاب ! والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجأك » (٢) . وفي « الصحيحين » أيضاً ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يقول : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في امتي منهم احد ، فإن عمر بن الخطاب منهم » (٣) . قال ابن وهب : تفسير « محدثون » - ماهمون .

قوله : (ثم لعثمان رضي الله عنه) :

ش : أي ونشبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما ، وقد ساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه ، وأمر الشورى والمبايعة لعثمان ، في « صحيحه » فأحبيت أن اسردها ، كما رواها بسنده : عن عمرو بن ميمون ، قال : رأيت عمر / بن الخطاب / رضي الله عنه قبل ان يصاب بأيام بالمدينة ، وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان ابن حنيف ، فقال : كيف فعلتما ؟ أتخافان ان تكونا قد حاتما الأرض مالا تطيق ؟ قالوا : حملناها أمراً هي له مطيقة ، ما فيها كبير فضل ، قال : انظر ان تكونا حملتما الأرض مالا تطيق ؟ قالوا : لا ، فقال عمر : لئن سلمني الله لأدعن ارامل اهل العراق لا يحتجن الى رجل بعدي أبدا ، قال : فما أنت عليه / إلا / اربعة حتى أصيب ، قال : إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبدالله بن عباس غداة أصيب ، وكان اذا مر بين الصفين قال : استوا ، حتى اذا لم ير فيهن خللا تقدم / فكبر ،

(١) صحيح .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

وربما قرأ سورة يوسف ، او النحل ، او نحو ذلك في الركعة الاولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا ان كبر / ، فسمعته يقول : قتاني ، او اكلني الكلب ، حين طعنه فطار العليج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يمينا وشمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين ، طرح عليه برنسا ، فلما ظن / العليج / أنه مأخوذ ، نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبدالرحمن بن عوف ، فقدمه ، فن يلى عمر فقد رأى الذي ارى ، وأما نواحي المسجد ، فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون : سبحان الله ، سبحان الله فصلى بهم عبدالرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا ، قال : يا ابن عباس انظر من قتلتني ؟ فجاء ساعة ، ثم جاء فقال : غلام المغيرة ، قال : الأصم ؟ قال : نعم ، قال : قاتاه الله ! لقد أمرت به معروفا ! الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل يدعي الإسلام ، قد كنت انت وابوك تحبان ان تكثر العارج بالمدينة ، وكان العباس اكثرهم رقيقا ، فقال : إن شئت فعات ؟ اي : إن شئت قتلنا ؟ قال : كذبت ! بعد ما تكلموا باسانكم ، وصلوا قبائلكم ، وحجوا حجكم ؟ فاحتمل الى بيته ، فانطلقنا معه ، وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس عليه ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فأتي بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتى بابن فشربه ، فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت ، فدخاننا عليه ، وجاء الناس يشنون عليه ، وجاء رجل شاب ، فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك ، من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم في الاسلام ما قد عامت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، قال : وددت ان ذلك كفاف ، لاعلي ولا لي ، فلما أدبر إذا لزاره يمس الارض ، قال : ردوا علي الغلام ، قال : يا ابن أخي ، ارفع ثوبك ، فإنه اتقى ثوبك ، واتقى لربك ، يا عبد الله بن عمر ، انظر ما علي من الدين ؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانون ألفا او نحوه ، قال : / إن / وفي له مال آل عمر ، / فأده من أموالهم / ، وإلا فسل في بني عدي بن كعب ، فإن لم تف أموالهم ، فسل في قریش ولا تعدمهم الى غيرهم ، فأدعني هذا المال ، انطلق الى عائشة ام المؤمنين ، فقل :

يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تنقل : أمير المؤمنين ، فلاني لست اليوم للمؤمنين أميراً ،
وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه ، فسلم واستأذن ، ثم دخل
عليها ، فوجدوها قاعدة تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر / بن الخطاب / السلام ،
ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت اريده لنفسي ، ولا وثرن به اليوم
على نفسي ، فلما اقبل ، قيل : هذا عبدالله / بن عمر / قد جاء ، قال : ارفعوني ،
فأسنده رجل اليه ، قال : مالديك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت ،
قال : الحمد لله ، ما كان شيء أهم إلي من ذلك ، فإذا انا قضيت فاحملوني ، ثم سلم
فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي فادخلوني ، وإن ردتني فردوني الى
مقابر المسلمين ، وجاءت ام المؤمنين حفصة والنساء يسترنها (١) ، فلما رأيناها قنا ،
فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال ، فولجت داخلا لهم ، فسمعنا
بكاءها من الداخل ، فقالوا : أو ص يا أمير المؤمنين ، استخلف ؟ قال : ما أجد (٢)
احق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أي الرهط ، الذين توفي رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو عنهم راض ، فسمى علياً ، وعثمان ، والزبير ، وطاحه ، وسعداً ، وعبد
الرحمن ، وقال : يشهدكم عبدالله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء ، كهيئة
التعزية له ، فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به
أيكم ما أمر ، فلاني لم أعزله من عجز ولا خيانة ، وقال : أوصي الخليفة من
بعدي بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرماتهم ، وأوصيه
بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ،
ويتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردة الإسلام ، وجباة
الأموال ، وغيظ العدو ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضاهم ، عن رضاهم ، وأوصيه
بالأعراب خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، أن يأخذ من حواشي

(١) في الاصل : يسرن معها .

(٢) في الاصل : ما أحد .

أموالهم ، وأن ترد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا / إلا طاقتهم / ، فلما قبض خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبدالله بن عمر ، قال : يستأذن عمر بن الخطاب ؟ قالت : أدخلوه ، فأدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه ، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبدالرحمن : اجعواوا أمركم الى ثلاثة منكم ، قال الزبير : / قد جعلت أمري الى علي ، فقال طاعة / : قد جعلت أمري الى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمري الى عبدالرحمن / بن عوف / ، فقال عبدالرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله اليه ؟ والله عليه والاسلام ؟ لينظرن أفضليهم في نفسه ، فأسكت الشيخان ، فقال عبدالرحمن : أفتجعلونه إلي ؟ والله علي أن لا آلو عن أفضلكم ؟ قالوا : نعم ، فأخذ بيد أحدهما ، فقال : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والتقدم في الاسلام ما قد علمت ، فوالله عليك ، لئن أمرتاك لتعدلن ؟ ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ؟ ثم خلا بالآخر ، فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق ، قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له علي ، وولج أهل الدار فبايعوه .

وعن حميد بن عبدالرحمن : أن المسور بن معخرمة أخبره : أن / الرهط / ولاهم عمر اجتمعوا فقتلوا ، قال لهم عبدالرحمن : لست بالذي أنافسكم عن هذا الأمر ، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم ؟ فجعلوا ذلك الى عبدالرحمن ، فلما ولوا عبدالرحمن أمرهم ، فقال الناس على عبدالرحمن ، حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه ، ومال الناس على عبدالرحمن يشاورونه تلك الليالي ، حتى اذا كانت تلك الليلة / التي / أصبحنا فيها فبايعنا عثمان ، قال المسور بن معخرمة : طرقتني عبدالرحمن بعد هجوع من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت ، فقال : أراك نائماً ؟ ! فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم ، انطلق فادع لي الزبير وسعداً ، فدعوتهما / له / ، فشاورهما ثم دعاني ، فقال ادع لي علياً ، فدعوته ، فناجاه حتى ابهار الليل ، ثم قام علي من عنده وهو على طمع ، وقد كان عبدالرحمن يخشي مني

علي شيئاً ، ثم قال : ادع لي عثمان ، / فدعوتهُ / ، فَنَاجَاهُ حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْمُؤَدُّنَ
 بالصُّبْحِ ، فلما صلى الناس الصُّبْحَ ، واجتمع أوائك الرهط عند المنبر ، فأرسل
 إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار ، و / أرسل / إلى أمراء الأجناد ،
 وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ، ثم قال : أما
 بعد ، يا علي ، إني قد نظرت في أمر الناس ، فلم أراهم يعدلون بعثمان فلا تجعل علي
 نفسك سبيلاً ، فقال لعثمان : أبايعك على سنة / الله و / رسوله صلى الله عليه وسلم
 والخليفين من بعده ، فبايعه عبد الرحمن ، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار
 وأمراء الأجناد والمسلمون .

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة : كونه كحُتَن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم على ابنتيه . وفي « صحيح مسلم » ، عن عائشة ، قالت : كان رسول الله
 صلى الله عليه وسلم مضطجماً / في بيته / ، كاشفاً عن فخذه أو ساقه ، فاستأذن
 أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو
 كذلك ، فتحدث ، ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسوى
 ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتس له ولم
 تباله ، / ثم دخل عمر فلم تهتس ولم تباله / ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟
 فقال « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » (١) . وفي « الصحيح » : لما
 كان يوم بيعة الرضوان ، وأن عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النبي صلى الله عليه
 وسلم إلى مكة ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم / بيده / اليمنى : « هذه يد عثمان ، فضرِب بها على يده ،
 فقال : هذه لعثمان » (٢) .

قوله : (ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه) :

ش : أي : ونُتِبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما . لما قتل عثمان

وبايع الناس عالياً صار إماماً حتماً واجب الطاعة ، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة ، كما دل عليه حديث سفينة المقدم ذكره ، أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء » (١) .

وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر ، وخلافة عمر عشرين سنتين ونصفاً ، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة ، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر ، وخلافة الحسن ستة أشهر . وأول ملوك المسلمين معاوية رضي الله عنه ، وهو خير ملوك المسلمين ، لكنه إنما صار إماماً حتماً لما فوض إليه الحسن بن علي رضي الله عنهم الخلافة ، فإن الحسن رضي الله عنه بايعه أهل العراق بعد موت أبيه ، ثم بعد ستة أشهر فوض الأمر إلى معاوية ، فظهر صدق قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (٢) . والقصة معروفة في موضعها .

فالخلافة ثبتت لأسير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه ، بمبايعة الصحابة ، سرى معاوية مع أهل الشام . والحق مع علي رضي الله عنه ، فإن عثمان رضي الله عنه لما قتل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلي من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ، ممن بعدت داره من أهل الشام ، ويحمي الله عثمان ، أن يظن بالأكابر ظنون سوء ، ويباغه عنهم أخبار (٣) ، منها ما هو كذب ، ومنها ما هو محرف ، ومنها ما لم يُعرف وجهه ، وانضم إلى ذلك أهواء أقوام يحبون العاوي في الأرض . وكان في عسكر علي رضي

(١) حسن ، وقد تقدم :

(٢) متفق عليه .

(٣) في الأصل : وبلغ عنهم أخبارا ،

الله عنه - من أولئك الطغاة الخوارج ، الذين قتلوا عثمان - من لم يعرف بعينه ، ومن تننصر له قبيلته ، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله ، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله ، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ، ويقمع أهل الفساد والعدوان ، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه . فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ، ولا من طلحة والزبير ، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين ، ثم جرت فتنة صفين لرأي ، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم ، أو لا يتمكن من العدل عليهم - وهم كافون ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر ، كما طغوا على الشهيد المظلوم ، وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي يجب طاعته ، ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه ، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم ، بطلب الواجب عليهم ، بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب ، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلف قلوبهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخليفين من بعده مما يسوغ ، فحمله مارآه - من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة ، دون تأليفهم - : على القتال ، وقعد عن القتال أكثر الأكابر ، لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود / في الفتنة / ، ولما رؤوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصالحها . ونقول في الجميع بالحسنى : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم) الحشر : ١٠ . والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا ، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا ، بحمده وكرمه .

ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما في «الصحيحين» ، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : « انت مني بمنزلة هرون / من موسى / ، إلا انه لا نبي بعدي » (١) . وقال صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ،

(١) صحيح :

وَلِيَحْبِبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» ، قَالَ : فَتَطَاوَلْنَا لَهَا ، فَقَالَ : « أَدْعُوا لِي عَلِيًّا ، فَأَتِي بِهِ أَرْمَدًا ، فَيَبْصُقُ فِي عَيْنَيْهِ ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ » (١) . وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ) آلِ عِمْرَانَ : ٦١ - دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي » (٢) .

قَوْلُهُ : (وَهُمْ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ، وَالْأَئِمَّةُ الْمُهْدِيُونَ) .

ش : تَقْدِمُ الْحَدِيثَ الثَّابِتَ فِي « السَّنَنِ » ، وَصَحِّحَهُ التِّرْمِذِيُّ ، عَنْ الْعَرَبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ ، قَالَ : وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونَ ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مَوْدِعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ الْيَنَّا ؟ فَقَالَ : « أَوْصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَلَمَنَ مِنْكُمْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَايِمُكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تَمْسِكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » (٣) . وَتَرْتِيبُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ فِي الْفَضْلِ ، كَتَرْتِيبِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ . وَلَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنَ الْمَزِيَّةِ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَلَمْ يَأْمُرْنَا فِي الْاِقْتِدَاءِ فِي الْأَفْعَالِ إِلَّا بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَقَالَ : « اقْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ » (٤) ، وَفَرَّقَ بَيْنَ اتِّبَاعِ سُنَّتِهِمْ وَالْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ ، فَحَالَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ فَوْقَ حَالِ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَجْمَعِينَ . وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ تَقْدِيمَ عَلِيٍّ عَلَى عُثْمَانَ ، وَلَكِنْ ظَاهِرُ

(١) متفق عليه .

(٢) مسلم .

(٣) صحيح ، وتقدم .

(٤) صحيح .

فذهبته تقديم عثمان / علي / علي . وعلى هذا عامة اهل السنة . / وقد / تقدم قول
عبدالرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنهما : إني قد نظرت في امر الناس فلم اراهم
يغدلون بعثمان . وقال ايوب السخيتاني من لم يقدم عثمان على علي فقد ازرى
بالمهاجرين والأنصار . وفي « الصحيحين » عن ابن عمر : قال : كنا نقول ورسول
الله صلى الله عليه وسلم حي : افضل امة النبي صلى الله عليه وسلم بعده - ابو بكر ،
ثم عمر ، ثم عثمان (١) .

قوله : (وأن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرهم
بالجنة ، تشهد لهم بالجنة ، على ما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله
الحق ، وهم : ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ،
وسعيد ، وعبدالرحمن بن عوف ، وابو عبيدة بن الجراح ، وهو أمين هذه الامة ،
رضي الله عنهم أجمعين) .

ش : تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة . ومن فضائل الستة الباقيين
من العشرة رضي الله عنهم أجمعين : ما رواه مسلم : عن عائشة رضي الله عنها :
أرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقال : ليت رجلاً صالحاً من
أصحابي يحرّسني الليلة ، قالت : وسمعنا صوت السلاح ، فقال النبي صلى الله عليه
وسلم : « من هذا » ؟ فقال سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله ، جئت احرسك -
وفي لفظ آخر : وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت
أحرسه ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام (٢) . وفي « الصحيحين » :
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أحد ، فقال
ارم ، فذاك أبي وامي (٣) . وفي « صحيح مسلم » ، عن قيس بن أبي حازم ، قال :

(١) البخاري . (٢) مسلم .

(٣) صحيح .

رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد قد شلت (١) . وفيه
 ايضاً عن ابي عثمان النهدي، قال : لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض
 تلك الأيام التي قاتل فيها النبي صلى الله عليه وسلم غير طلحة وسعد (٢) . وفي
 « الصحيحين » ، واللفظ لمسلم ، عن جابر بن عبد الله قال : ندب رسول الله صلى
 الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ، ثم نديهم ، فانتدب الزبير ، فقال
 النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » (٣) وفيهما ايضاً
 عن الزبير رضي الله عنه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من يأتي بني قريظة
 فيأتينى بخبرهم » ؟ فانطلقت ، فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ابيوه ، فقال : « فذاك ابي وامى » (٤) . وفي « صحيح مسلم » ، عن انس بن مالك ،
 قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة أميناً ، وإن أميننا ابتها
 الأمة : ابو عبيدة بن الجراح » (٥) . وفي « الصحيحين » عن حذيفة بن اليمان ، قال
 جاء اهل نجران الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، ابعث إلينا /
 رجلاً / أميناً ، فقال : « لأبعثن اليكم رجلاً أميناً حق / أمين / » قال : فاستشرف
 لها الناس ، قال : فبعث ابا عبيدة بن الجراح » (٦) . وعن سعيد بن زيد رضي الله
 عنه ، قال : اشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم اني سمعته يقول : « عشرة في
 الجنة : النبي في الجنة ، وابو بكر في الجنة ، وطلحة في الجنة ، وعمر في الجنة ،
 وعثمان في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة » ، ولو

(١) صحيح :

(٢) صحيح :

(٣) صحيح :

(٤) صحيح :

(٥) صحيح :

(٦) صحيح :

ثُغِّتَ لِسْمِيتِ الْعَاشِرِ ، قَالَ : فَقَالُوا : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ ، وَقَالَ : لِمَشْهَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَعْبُرُ مِنْهُ وَجْهَهُ ، خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ وَلَوْ مَحْمَرٌ مَحْمَرُ نُوحٍ (١) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَابْنُ مَاجَةَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ . وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ . وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ » (٢) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « مُسْنَدِهِ » . وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَقَدْ قَامَ فِيهِ عُثْمَانُ عَلَى عَلِيٍّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِرَاءٍ ، / هُوَ / وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَهْدَأْ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صَدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » (٣) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا . وَرَوَى مِنْ طَرَقٍ :

وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى تَعْظِيمِ هَذِهِ الْعَشْرَةِ وَتَقْدِيمِهِمْ ، لِمَا اشْتَهَرَ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ :

قَوْلُهُ : (وَمَنْ أَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَازْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنْسٍ ، وَذُرِّيَّاتِهِ الْمُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ ، فَقَدْ بَرِيَءٌ مِنْ النِّفَاقِ) :

ش : تَقْدِمْ بَعْضُ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : وَفِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ ، قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبِيًّا ، بَمَاءٍ يَدْعَى : خُمًّا ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : « أَمَا بَعْدُ ،

(١) صحيح . (٢) صحيح .

(٣) صحيح .

الأيهة الناس ، فلأنما أنا بشر ، يوشك ان يأتي رسول ربي ، فأجيب ، وانا تارك
فيكم ثقلين : اولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا
به ، فمحدث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : واهل بيتي ، اذكركم الله في اهل
بيتي ، ثلاثاً (١) . وخرج البخاري عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال : ارقبوا
مجداً في اهل بيته :

قوله : (وعلماء السلف من السابقين ، ومن بعدهم من التابعين - اهل الخير
والأثر ، واهل الفقه والنظر - لا يُذكرون إلا بالجميل ، ومن ذكرهم بسوء فهو على
غير السبيل) .

ش : قال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير
سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) النساء : ١١٥ . فيجب
على / كل / مسلم بعد موالاته الله ورسوله موالاته المؤمنين ، كما (٢) نطق به القرآن ،
خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء ، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم ، يهتدى (٣) بهم
في ظلمات البر والبحر . وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرابتهم ، إذ كل أمة
قبل (٤) مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها ، إلا المسلمين ، فإن علماءهم
خيارهم ، فإنهم خاتم الرسول من أمته ، والمحيون لما مات من سنته ، فبهم قام
الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وكلهم متفقون اتفاقاً يقيناً على
وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد
جاء حديث صحيح بخلافه - : فلا بد له في تركه من عذر . وجاع الأعذار ثلاثة
أصناف : أحدها : عدم اعتقاده ان النبي صلى الله عليه وسلم قاله . والثاني : عدم
اعتقاده أنه اراد تلك المسألة بذلك القول . والثالث : اعتقاده ان ذلك الحكم منسوخ

(١) صحيح . (٢) في الاصل : مما .

(٣) في الاصل : يهدي . (٤) في الاصل : بعد .

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق ، وتبليغ ما أرسل به الرسول صلى الله عليه وسلم
الينا ، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا ، فرضي الله عنهم وأرضاهم . (ربنا اغفر لنا
ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك
رؤوف رحيم) الحشر : ١٠ .

قوله : (ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام ،
ونقول : نبي واحد أفضل من جميع الأولياء) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على الاتحادية وجهالة المتصوفة ، وإلا
فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع . فقد أوجب الله على الخلق
كلهم متابعة الرسل ، قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ،
ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك النساء : ٦٤ ، الى أن قال : (ويسلموا
تسليماً) النساء : ٦٥ . وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله
ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ . قال ابو عثمان النيسابوري
من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه ،
نطق بالمبدعة . وقال بعضهم : ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه .
والأمر كما قال ، فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول ، كان يعمل
بإرادة نفسه ، فيكون متبعاً لهواه ، بغير هدى من الله ، وهذا غش النفس ، وهو
من الكبر ، فإنه شبيه بقول الذين قالوا : (لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل
الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته) الانعام : ١٢٤ . وكثير من هؤلاء يظن انه يصل
برياسته واجتهاده في العبادة ، وتصفية نفسه ، الى ما وصلت اليه الانبياء من غير
اتباع لطريقتهم ! ومنهم من يظن أنه قد صار افضل من الانبياء !!

اما الولاية فهي ثابتة للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى : « الا ان اولياء الله
لا يخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون » . ولكن لا يبلغ الولي

مرتبة النبي مطلقاً ولا يجوز تفضيل أحد من الأولياء على أحد من الأنبياء :

قوله : (ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات من رواياتهم) :
ش : فالمعجزة في اللغة تتم كل خارق للعادة ، و / كذلك الكرامة / في عرف
أئمة أهل العلم المتقدمين . ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما ،
فيجمعون المعجزة للنبي ، والكرامة للولي . وجماعها : الأمر الخارق للعادة . فصفات
الكمال ترجع الى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى : وهذه الثلاثة لاتصلح على الكمال
إلا لله وحده ، فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً ، وهو على كل شيء قدير ، وهو
غني عن العالمين . ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة
بقوله : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني
ملك ، إن اتبع إلا ما يوحى إلي) الانعام : ٥٠ . وكذلك قال نوح عليه السلام ،
فهذا أول أولي العزم ، وأول رسول بعثه الله الى أهل الأرض ، وهذا خاتم الرسل
وخاتم أولي العزم ، وكلاهما تبرأ من ذلك ، وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب
كقوله تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) النازعات : ٤٢ ، وتارة بالتأثير
كقوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) الاسراء : ٦٠
الآيات ، وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية ، كقوله تعالى : (وقالوا ما لهذا
الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) الفرقان : ٧ ، الآية . فأمر الرسول ان
ينحبرهم بأنه لا يملك ذلك ، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله ، فيعلم ما علمه
الله / إياه / ، ويستغني عما أغناه عنه ، ويقدر على ما أقدره عليه ، من الأمور المخالفة
للعادة المطردة ، أو لعادة أغلب الناس . فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج
عن هذه الأنواع .

ثم الخارق : إن حصل به فائدة مطاوعة في الدين ، كان من الأعمال الصالحة
المأمور بها ديناً وشرعاً ، إما واجب أو مستحب ، وإن حصل به أمر مباح ، كان

من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً ، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه ، كان سبباً للعذاب أو البغض ، كالذي أوتي الآيات فانسخ منها بلعام بن باعورا ، لاجتهاد أو تقليد ، أو نقص عقل أو علم ، أو غلبة حال ، أو عجز أو ضرورة . فالخارق ثلاثة أنواع : محمود في الدين ، ومذموم ، ومباح . فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة . وإلا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها . قال أبو علي الجوزجاني : كن طالباً للاستقامة ، لا طالباً للكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة .

قال الشيخ السهروردي في « عوارفه » : وهذا أصل كبير في الباب ، فإن كثيراً من المجتهدين المتعبدين سمعوا السلف (١) الصالحين المتقدمين ، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات ، فنفسهم لا تزال تتطلع الى شيء من ذلك ، ويحبون أن يرزقوا شيئاً منه ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب ، متهماً لنفسه في صحة عمله ، حيث لم يحصل له خارق ، ولو علموا بسر ذلك لكان عليهم الأمر ، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً ، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة - يقيناً ، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج عن دواعي الهوى : فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل الكرامة .

وأما ما يبتيلى الله به عبده ، من السر بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء - فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه ، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه ، وشقي بها قوم إذا عصوه ، كما قال تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول ربي أهانن ، كلا) الفجر : ١٥-١٧ . ولهذا كان الناس في هذه الأمور ثلاثة أقسام :

(١) في الاصل : سلف .

قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة ، وقسم يتعرضون بها لعذاب الله ، وقسم يكون في حقهم بمنزلة المباحات ، كما تقدم .

فإذا تقرر ذلك ، فاعلم أن عدم الخوارق عاجلاً وقدرة لاتضر المسلم في دينه ، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات :- لا ينتقص ذلك في مرتبته عند الله ، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له ، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة ، فإن الخارق قد يكون مع الدين ، وقد يكون مع عدمه ، أو فساده ، أو نقصه . فالخوارق النافعة تابعة للدين ، خادمة له ، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين ، وكذلك المال النافع ، كما كان الساطان والمال / النافع / بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر . فمن جعلها هي المقصودة ، وجعل الدين تابعاً لها ، ووسيلة إليها ، لا لأجل الدين في الاصل :- فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تدب خوف العذاب ، أو رجاء الجنة ، فإن ذلك ما هو مأثور به . وهو على سبيل نجاة ، وشرعية صحيحة . والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكون خوفاً من النار أو طلباً للجنة - يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا !! ثم إن الدين إذا صح علماً وعملاً فلا بد أن يوجب خرق العادة ، إذا احتاج الى ذلك صاحبه . قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق : ٢-٣ . وقال تعالى : (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) الانفال : ٢٩ . وقال تعالى : (ولو أنهم فعلا ما يوعدون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً . وإذا لا آتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً) النساء : ٦٦-٦٨ . وقال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة) يونس : ٦٢-٦٤ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فِراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » . ثم قرأ قوله : « (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) الحخر : ٧٥ » (١) رواه الترمذي من رواية أبي سعيد الخدري .

(١) ضعيف فيه عند الترمذي وغيره عطية العوفي وهو ضعيف مدلس ،

وقال تعالى ، فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ، حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه » (١) . فظهر أن الاستقامة حظ الرب ، وطاب الكرامة حظ النفس : وبالله التوفيق :

قوله : (ونؤمن باشرائط الساعة : من خروج الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء ، ونؤمن بظلول الشمس من مغربها ، وخروج دابة الارض من موضعها) :

ش : عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة /تبوك/ ، وهو في قبة /من/ /أدم/ ، فقال : « اعدد ستاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقدس ، ثم موثان يأخذ فيكم كة معاص الغنم ، ثم استنماضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً » (٢) . وروي « راية » ، بالراء والغين ، وهما بمعنى . رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه والطبراني . وعن محمد بن يونس بن أسيد ، قال : اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « ماتذكرون ؟ » قالوا : نذكر الساعة ، فقال : « إنها لن تقوم حتى ترون قبلها »

(١) البخاري ، وفي سنده ضعيف ، لكن له طرق لعله يتقوى بها ، ولم يتيسر لي حتى الآن تتبعها وتحقيق الكلام عليها . (لاحظ التعليقات ص ٢١٥ من هذا الكتاب) : (٢) صحيح .

عشر آيات » ، / فذكر / : « الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم » (١) . رواه مسلم ، وفي « الصحيحين » ، واللفظ للبخاري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده الى عينه وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبه طافية » (٢) . وعن انس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي إلا وأندر قومه الأعور الدجال ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، ومكتوب بين عينيه كفر » (٣) ، فسرته في رواية : « اي كافر » . وروى البخاري وغيره ، عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله احد ، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها » (٤) . ثم يقول ابو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : (وإن من اهل

(١) صحيح :

(٢) صحيح :

(٣) صحيح ، رواه الترمذي (٢ / ٣٩) وقال : « حديث حسن صحيح » . قلت : وهو على شرط الشيخين .

(٤) صحيح . واعلم ان احاديث الدجال ونزول عيسى عليه السلام متواترة يجب الإيمان بها ، ولا تغتر بمن يدعي فيها انها احاديث آحاد ، فانهم جهال بهذا العلم ، وليس فيهم من تتبع طرقها ، ولو فعل لوجدوا متواترة كما شهد بذلك ائمة هذا العلم كالحافظ ابن حجر وغيره ، ومن المؤسف حقاً ان يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم لاسيما والأمر دين وعقيدة !

الكتاب إلا يؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) النساء : ١٥٩ .
وأحاديث الدجال ، وعيسى بن مريم عليه السلام ، ينزل من السماء ويقتله ، ويخرج
يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال ، فيهلكهم الله اجمعين في ليلة واحدة
بركة دعائه عليهم - : ويضيق هذا المختصر عن بسطها .

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب - فقال تعالى : (وإذا وقع
القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون
الزمل : ٨٢ . وقال تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو
يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن
آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، قل انتظروا إنا منتظرون) الانعام : ١٥٨
وروى البخاري عند تفسير الآية ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن
عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » (١) . وروى مسلم ،
عن عبد الله بن عمرو ، قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم
أنسه بعد ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الآيات خروجا
طالع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت
قبل صاحبتهما فالأخرى على إثرها قريباً » (٢) . أي أول الآيات التي ليست مألوفة
وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك ، وكذلك خروج
يأجوج ومأجوج ، كل ذلك أمور مألوفة ، لأنهم بشر ، مشاهدة مثاهم مألوفة ،
وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف ، ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم
بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن مجاري العادات . وذلك أول الآيات الارضية ،
كما أن طلوع الشمس من مغربها ، على خلاف عاداتها المألوفة - أول الآيات السماوية

(١) صحيح :

(٢) صحيح :

وقد أفرد الناس / في / أحاديث اشراط الساعة مصنقات مشهورة ، يضيق على بسطها هذا المختصر .

قوله : (ولانصدق كاهناً ولاعرافاً ، ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة) .

ش : روى مسلم والإمام احمد عن صفية بنت أبي عبيد ، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أتى عرفاً فسأله عن شيء ، لم يقبل له صلاة أربعين ليلة » (١) . وروى الامام احمد في « مسنده » ، عن أبي هريرة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عرفاً او كاهناً ، فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد » (٢) . والمنجم يدخل في اسم « العراف » عند بعض العلماء ، وعند بعضهم هو في « جنه » . فإذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسؤول ؟ وفي « الصحيحين » و « مسند الامام احمد » ، عن عائشة ، قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان ؟ فقال : « ليسوا بشيء » ، فقالوا : يا رسول الله ، انهم يتحدثون أحياناً بالشئ يكون حقاً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقترها في اذن وليه ، فيخاطبون فيها / أكثر من / مائة كذبة » (٣) . وفي « الصحيح » عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ثمن الكاب خبيث ، ومهر البغي خبيث ، ومُحاوان الكاهن خبيث » (٤) . وحلوانه : الذي تسميه العامة حللوانه . ويدخل في هذا المعنى ما تعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التي يستقسم بها ، مثل الخشبة المكتوب

(١) صحيح :

(٢) صحيح :

(٣) صحيح :

(٤) مسلم .

عليها « أ ب ج د » والضارب بالحصى ، والذي يخطه في الرمل . وماتعاطاه هؤلاء
حرام . وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء ، كالبعثي والقاضي
عياض وغيرهما .

وفي « الصمخيين » عن زيد بن خالدة ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، على إثر مماء كانت من الليل ، فقال : « أتدرون ماذا قال ربكم الليلة » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « / قال / : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي ، كافر بالكوكب ، / وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، مؤمن بالكوكب / » (١) . وفي « صحيح مسلم ومسنند الإمام أحمد » ، عن أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أربع في أمي من أمر الجاهلية ، لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » (٢) . والنصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر الأئمة ، بالنهي عن ذلك - أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها . وصناعة التنجيم ، التي مضمونها الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمريح بين القرى الفلكية والفوايل الأرضية - : صناعة محرمة بالكتاب والسنة ، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين ، قال تعالى : (ولا يفاح الساحر حيث أتى) طه : ٦٩ . وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) النساء : ٥١ . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره : الجبت السحر (٣) . وفي « صحيح البخاري » ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجة ، فجاء يوماً بشيء ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : تدري مم

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) في الأصل : السحرة ، وكلاهما مستقيم :

هَذَا؟ قَالَ : وما هو ؟ قَالَ : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة ، إلا أنني بحدعته ، فاقيني ، فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده ففأكل كل شيء في بطنه (١) :

/ قوله / : (ونرى الجماعة حقاً وضواهاً ، والفرقة زيفاً وعذاباً) :

ش : قال الله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) آل عمران : ١٠٣ . وقال تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم) آل عمران : ١٠٥ . وقال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينتبهم بما كانوا يفعلون) الأنعام : ١٥٩ . وقال تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) هود : ١١٩ . فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف . وقال تعالى : (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) البقرة : ١٧٦ . وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الكتابين اختلفوا في دينهم على اثنين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين ملة ، يعني الأهواء ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة » (٢) . وفي رواية : قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » . فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة ، وأن الاختلاف واقع لا محالة . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن / الشيطان / ذئب الإنسان ، كذئب الغنم ، يأخذ الشاة القاصية ، / والناحية / ، فلا يأكل والشعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعامية ، والمسجدة » (٣) . وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال لما نزل

(١) صحيح :

(٢) صحيح : رواه أبو داود وغيره :

(٣) صحيح الإسناد :

قوله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) الأنعام : ٦٥ ، قال : « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيعاً ويلدق بعضهم بأس بعض) الأنعام : ٦٥ - قال : « هاتان أهون » (١) . فمدك على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً ويلدق بعضهم بأس بعض ، مع براءة الرسول من هذه الحال ، وهم فيها في جاهلية . ولهذا قال الزهري : وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون ، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أصيب بتأويل القرآن - : فهو هدر ، أنزلوهم منزلة الجاهلية . وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تقول : ترك الناس العمل بهذه الآية ، يعني قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) الحجرات : ٩ . فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى ، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية ، وهكذا تسلسل النزاع .

/والأدور/ التي تتنازع فيها الأمة ، في الأصول والفروع - إذا لم ترد إلى الله والرسول ، لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم ، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً ، ولم يرغب بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الإجهاد ، فيقر بعضهم بعضاً ، ولا يعتدي ولا يعتدى عليه ، وإن لم يرجعوا وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض ، إما بالقول ، مثل تكفيره وتفسيره ، وإما بالفعل ، مثل حبسه وضربه وقتله . والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن ، كانوا من هؤلاء ، ابتدعوا بدعة ، وكفروا من خالفهم فيها ، واستحلوا منع حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول : إما عادلون وإما

(١) صحيح :

ظالمون ، فالعادل فيهم : الذي يعمل بما وصل اليه من آثار الأنبياء ، ولا يظلم غيره ،
والظالم : الذي يعتدي على غيره . واكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون ،
كما قال تعالى : (وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً
بينهم) آل عمران : ١٩ . وإلا فلاو ساكوا ما علموه من العدل ، اقر بعضهم بعضاً ،
كالمقلدين لأئمة العلم ، الذين يعرفون من انفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله
ورسوله في تلك المسائل ، فجعلوا ائمتهم نواباً عن الرسول ، وقالوا : هذا غاية ما
قدرنا عليه ، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل ، مثل
ان يدعي ان قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبيدها ، ويذم من خالفه ، مع انه
معدور :

ثم إن انواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان : اختلاف تنوع ،
واختلاف تضاد :

واختلاف التنوع على وجوه : منه ما يكون كل واحد من القولين او الفعلين
حقاً مشروعاً ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم ، حتى
زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « كلاهما محسن » (١) ، ومثله اختلاف
الأنواع في صفة الأذان ، والإقامة ، والإستفتاح ، ومحل سجود السهو ، والشهاد ،
وصلاة الخوف ، وتكبيرات العيد ، ونحو ذلك ، مما قد شرع جميعه وإن كان بعض
أنواعه ارجح او افضل . ثم تجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما اوجب
اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك ! وهذا عين المحرم :
وكذا تجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع ، والإعراض عن الآخر
والنهي عنه - : ما دخل به فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم . ومنه ما يكون كل
من القولين هو في المعنى القول الآخر ، لكن العبارتان مختلفتان ، كما قد يختلف

(١) البخاري .

كثير من الناس في الفاظ الحدود ، وصيغ الأدلة ، والتعبير عن المسميات ، ونحو ذلك . ثم الجهل او الظلم يحمل على حمد إحدى المقاتلين وذم الأخرى والإعتداء على قائلها ! ونحو ذلك .

وأما اختلاف التضاد ، فهو القران المتنافيان ، إما في الأصول ، وإما في الفروع ، عند الجمهور الذين يقولون : المصيب واحد . والخطب في هذا أشد ، لأن القولين يتنافيان ، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما ، او معه دليل يقتضي حقاً ما ، فيرد الحق مع الباطل ، حتى يبقى هذا مبطلاً في البعض ، كما كان الأول مبطلاً في الأصل ، وهذا يجري كثيراً لأهل السنة .

وأما أهل البدعة ، فالأمر فيهم ظاهر : ومن جعل الله له هداية ونوراً رأى من هذا ما تبين له منقعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه ، وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ، لكن نور على نور :

والاختلاف الأول ، الذي هو اختلاف التنوع ، الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه . وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك ، إذا لم يحصل بغى ، كما في قوله تعالى : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) الحشر : ٥ . وقد كانوا يختلفوا في قطع الأشجار ، فقطع قوم وترك آخرون . وكما في قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان ، وكلاً آتينا حكماً وعلماً) الانبياء : ٧٨ - ٧٩ ، فخص سليمان بالفهم واثنى عليهما بالحكم والعلم ، وكما في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها ،

ولمن اخرها الى ان وصل الى بني قريظة (١) : وكما في قوله : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله اجر » (٢) .

والاختلاف الثاني ، هو ما محمد فيه لإحدى الطائفتين ، وذهبت الأخرى ، كما في قوله تعالى : (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر) البقرة : ٢٥٣ . وقوله تعالى : (هذان خصمان اختصموا في ربهم ، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) الحج : ١٩ ، الآيات :

واكثر الاختلاف الذي يؤول الى الأهواء بين الأمة - من القسم الأول ، وكذلك الى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء . لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ، ولا تنصفها . بل تزيد على مامع نفسها من الحق زيادات من الباطل ، والأخرى كذلك . ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله : (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) البقرة : ٢١٣ . لأن البغي مجاوزة الحد ، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة . وقريب من هذا الباب ما أخرجه في « الصحيحين » ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قباسكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . فأمرهم بالإسك عما لم يؤدروا به ، معالاً بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية .

(١) البخاري :

(٢) مسلم وأحمد وغيرهما :

قوله : (ودين الله في الأرض والسماء واحد ، وهو دين الإسلام ، قال الله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران : ١٩ . وقال تعالى : (ورضيت لكم الإسلام ديناً) المائدة : ٣ . وهو بين / الغلو و / التقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن والإياس) :

ش : ثبت في « الصحيح » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » (١) . وقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) آل عمران : ٨٥ - عام في كل زمان ، ولكن الشرائع تتنوع ، كما قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) المائدة : ٤٨ . فدين الإسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله ، واصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل ، وهو ظاهر غاية الظهور ، يمكن كل مميز من صغير وكبير ، وفصيح واعجم ، وذكي وبليد - : ان يدخل فيه بأقصر زمان ، ولأنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك ، من إنكار كلمة ، او تكذيب ، او معارضة ، او كذب على الله ، او ارتياب في قول الله تعالى ، او رد لما انزل ، او شك فيما نفى الله عنه الشك ، او غير ذلك مما في معناه . فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام ، وسهولة تعلمه ، وانه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته : واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الالتفات بحسب من يتعلم ، فان كان بعيد الوطن ، كضمام بن ثعلبة النجدي ، ووفد عبد القيس ، علمهم ما لم يسعهم جهله ، مع علمه ان دينه سينشر في الآفاق ، ويرسل اليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون اليه ، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت ، بحيث يتعلم على التدريج ، او كان قد علم فيه انه قد عرف ما لا بد منه - اجابه بحسب حاله وحاجته ، على ما تدل قرينة حال السائل ، كقوله : « قل آمنت بالله ثم استقم » واما من شرع ديناً لم يأذن به الله ، فمعلوم ان اصوله المستلزمة له لا يجوز ان تكون منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن غيره من المرسلين ، إذ هو باطل ، وملزوم الباطل باطل ، كما ان لازم الحق حق :

(١) متفق عليه بنحوه :

وقوله : بين الغلو والتقصير - قَالَ تعالى : (قل يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) المائدة : ٧٧ . وقال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات مما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) المائدة : ٨٧-٨٨ . وفي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها : ان ناساً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عماله في السر ؟ فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا اتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا انام على فراش ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما بال اقوام يقول احدهم كذا وكذا ؟ لكنني اصوم وافطر ، وانام واقوم ، وآكل اللحم ، واتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس يني » (١) . وفي غير « الصحيحين » : « سألوا عن عبادته في السر ، فكأنهم تقالوا » (٢) . وذكر في سبب نزول الآية الكريمة : عن ابن جريج ، عن عكرمة أن عثمان ابن مظعون ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وسالم المولى أبي حذيفة ، رضي الله عنهم في أصحابه - تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرّموا طيبات الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني اسرائيل ، وهموا بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت (يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) المائدة : ٨٧ ، يقول : لا تسيروا بنسرة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاص ، فلما نزلت فيهم ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم اليهم ، فقال : « إن لأنفسكم عليكم حقاً ، وإن لأعينكم حقاً ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناووا ، فليس منا من ترك

(١) صحيح :

(٢) البخاري :

سنتنا ، فقالوا : اللهم سألنا واتبعنا ما أنزلت (١) .

وقوله : وبين التشبيه والتعطيل - تقدم أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تشبيه ، فلا يقال : سمع كسمعنا ، ولا بصر كبصرنا ، ونحوه ، ومن غير تعطيل ، فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به أعرف الناس (٢) به : رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك تعطيل ، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى . ونظير هذا القول قوله : ومن يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه ، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى : ١١ . فقوله : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ - رد على المشبهة ، وقوله : (وهو السميع البصير) الشورى : ١١ - رد على المعطلة .

وقوله : وبين الجبر والقدر - تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى ، وإن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله ، وإنها / ليست / بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها ، وليست مخاوفة للعباد ، بل هي فعل العبد وكسبه وخلق الله تعالى .

وقوله : وبين الأمن والإياس - تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى ، وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه ، راجياً رحمته ، وإن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد ، في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة .

(١) ضعيف بهذا السياق :

(٢) في الاصل : الخلق :

قوله : (فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ، ونحن برآء الى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه ، ونسأل الله تعالى ان يشبثنا على الايمان ، ويختم لنا به ، ويعصمنا من الأهواء المختلفة ، والآراء المتفرقة ، والمذاهب الردية ، مثل المشبهة ، والمعتزلة ، والجهمية ، والجبرية ، والقدرية ، وغيرهم ، من الذين خالفوا السنة والجماعة ، وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم برآء ، وهم عندنا ضلال وأردياء : وبالله العصمة والتوفيق :

ش : الإشارة بقوله : « فهذا » كل ما تقدم من اول الكتاب الى هنا : والمشبهة : هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته ، وقولهم عكس قول النصارى ، شبهوا المخلوق - وهو عيسى عليه السلام - بالخالق وجعلوه إلهاً ، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق ، كداود الجوارى وأشياهم :

والمعتزلة : هم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهما ، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في اوائل المائة الثانية ، وكانوا يجلسون معترزين ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة ، وقيل : إن واصل ابن عطاء هو الذي وضع اصول مذهب المعتزلة ، وتابعه عمرو بن عبيد تلميذا الحسن البصري ، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم ابو الهذيل كتابين ، وبين مذهبهم وبني مذهبهم على الأصول الخمسة ، التي سموها : العدل ، والتوحيد ، وإنفاذ الوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ! ولبسوا فيها الحق بالباطل ، إذ شأن البدع هذا ، واشتمالها على حق وباطل :

والجهمية ، هم المنتسبون الى جهنم بن صفوان السمرقندي ، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل ، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم ، الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط ، فإنه خطب الناس في يوم عيد الأضحى ، وقال : أيها الناس ، ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ! ثم نزل فذبجه . وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه ، وهم الساف الصالح

رحمهم الله تعالى : وكان جهنم بعده بخراسان ، فأظهر مقاتلته هناك ، وتبعه عليها
ناس ، بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكاً في ربه !

والجبرية ، أصل قولهم من جهنم بن صفوان ، كما تقدم ، وأن فعل العبد بمنزلة
طوله ولونه ! وهم عكس القدرية نفاة القدر ، فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر
لنفيهم إياه ، كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء ، وقد تسمى الجبرية « قدرية » لأنهم
غلووا في إثبات القدر ، وكما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد ، بل
يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع ، فلا يجزمون بشواب من تاب ،
كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب ، وكما لا يجزم لمعين .

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في « السنن » : منها ما روى أبو داود في
« سننه » ، من حديث عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي
صلى الله عليه وسلم ، قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ،
وإن ماتوا فلا تشهدوهم » (١) . وروي في ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة ، تكلم
أهل الحديث في صحة رفعها ، والصحيح أنها موقوفة ، بخلاف الأحاديث الواردة
في ذم الخوارج ، فإن فيهم في « الصحيح » وحده عشرة أحاديث ، أخرج
البخاري منها ثلاثة ، وأخرج مسلم سائرهما .

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم ، عدولهم عن الصراط المستقيم ، الذي
أمرنا الله باتباعه ، فقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله) الانعام : ١٥٣ . وقال تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو
إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف : ١٠٨ فوحّد لفظ « صراطه »
و « سبيله » ، وجمع « السبل » المخالفة له . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : خط
لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ، وقال : « هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً

(١) حسن :

عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سبل ، على كل سبل شيطان يبدء واليه ، ثم قرأ : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) « الانعام : ١٥٣ (١) . ومن ههنا يعلم أن اضطرار العبد الى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة ، ولهذا شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أم القرآن في كل ركعة ، إما فرضاً أو إيجاباً ، على حسب اختلاف العلماء في ذلك ، لاحتياج العبد الى هذا الدعاء العظيم القادر ، المحتمل على أشرف المطالب وأجلها . فقد أمرنا الله تعالى أن نقول : (أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الفاتحة : ٧-٥ . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » (٢) . وثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فن ؟ ! » (٣) .

سبحان ربك رب العزة

عما يصفون . وسلام

على المرسلين .

والحمد لله رب

العالمين :

(١) صحيح ، رواه الحاكم وغيره .

(٢) صحيح ، رواه الترمذي وغيره :

(٣) متفق عليه :

« وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب

إليك » .

محمد ناصر الدين الألباني

دمشق ١١/١٢/١٣٨١



النَّارِي الشَّابِي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
التعريف بالإمام أبي جعفر الطحاوي	٥
وجوب الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إيماناً عاماً محمداً على كل أحد	٧
وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل أمر به وعوم رسالته	٨
ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كامل واف	٩
التوحيد ومعناه	١٢
توحيد الالهية والربوبية	١٤
التوحيد المطاوب هو توحيد الالهية الذي يتضمن توحيد الربوبية	١٤
تفسير قوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد)	١٦
أنواع التوحيد الذي دعت اليه الرسل	١٧
تفسير قوله تعالى : (ليس كمثله شيء)	١٨
تفسير القدرة وبيان ان الله تعالى لا يعجزه شيء	٢١
تفسير كلمة (لا اله الا الله)	٢٢
تفسير صفتي القدم والبقاء .	٢٢
بيان ان الله تعالى لا يفنى ولا يبيد ولا يكون الا ما يريد	٢٣
الفرق بين الارادة الديشية والارادة الكونية	٢٤
الرد على المشبهة	٢٥
الكلام على صفة الحياة	٢٦
تفسير صفتي الخلق والرزق	٢٨

استمرار صفات الكمال وصفات الذات والفعل لله تعالى	٢٨
هل الصفات زائدة على الذات أم لا ؟	٣٠
له معنى الربوبية	٣١
اتصاف الله تعالى بالرب قبل أن يوجد مربوب واتصافه بالخالق	٣١
قبل ان يوجد مخلوق ، وهو على كل شيء قدير ، وكل شيء	
اليه فقير	
لله المثل الأعلى	٣٣
خلق الله تعالى الخلق بعلمه	٣٤
تقدير الاقدار وضرب الآجال	٣٥
مشيئة الله نافذة ، لامشيئة العباد	٣٦
الهدى والضلال والرد على المعتزلة في قولهم بالأصلح	٣٩
وجوب الايمان بنبوّة الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته	٤٠
الفرق بين النبي والرسول	٤١
مجد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وامام الاتقياء وسيد	٤١
المرسلين وحبيب رب العالمين .	
بحث في التفضيل بين الانبياء	٤٣
الفرق بين المحبة والخلة	٤٤
كذب كل من يدعي النبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم	٤٥
عموم بعثته الى الجن والانس	٤٥
اعراب : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً)	٤٦
القرآن كلام الله تعالى	٤٧
مذهب أهل السنة في كلام الله تعالى والرد على مخالفينهم	٤٨
تكليم الله لأهل الجنة	٤٩

الرد على من ادعى أن كلام الله تعالى مخلوق	٤٩
المراد من قوله تعالى (خالق كل شيء)	٥٠
الرد على من ادعى خلق القرآن	٥١
أهل السنة كلهم متفقون على أن كلام الله غير مخلوق	٥٣
الذي في المصحف هو كلام الله	٥٤
كلام الله بلا كيفية	٥٤
مذاهب الناس في معنى الكلام والقول عند الاطلاق	٥٥
عود الى الرد على من قال : ان الكلام معنى واحد	٥٥
تكفير من أنكر ان القرآن كلام الله وزعم أنه قول البشر	٥٦
كفر من وصف الله تعالى بمعنى من معاني البشر	٥٧
رؤية الله تعالى لأهل الجنة والرد على المخالفين	٥٨
تواتر الأحاديث الدالة على رؤية الله تعالى	٦٣
كيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة	٦٤
اتفاق الامة على أنه لا يرى الله تعالى أحد في الدنيا بعينه	٦٥
وتنازعهم في رؤية النبي ربه لياة المعراج	
تأويل المعتزلة نصوص الكتاب والسنة تحريف للكلام عن موضعه	٦٧
وجوب التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد لامره	٦٨
لا ينجي العبد من عذاب الله تعالى الا توحيد المرسل وتوحيد	٦٨
متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم	
العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد .	٧٠
النهى عن التكلم في أصول الدين وغيرها بغير علم	٧١
من لم يسلم للرسول صلى الله عليه وسلم نقص توحيده	٧٢
وقوع الفساد في العالم من ثلاث فرق	٧٢

علم الجدل والكلام وحكمه	٧٣
سبب الاخلال الاعراض عن تدبر كلام الله تعالى وكلام رسوله ، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة .	٧٥
اعتراف كبار علماء الكلام بوقوعهم في الحيرة والشك ، والدواء النافع لمثل هذا المرض .	٧٦
الرد على من أنكر رؤية الله تعالى ولو تأولوا .	٧٩
معنى التأويل في الكتاب والسنة . والتأويل في كلام المفسرين .	٨١
معنى التأويل في كلام المتأخرين .	٨٣
النبي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب .	٨٥
تنزيه الله تعالى عن الحدود والغايات .	٨٦
الواجب في باب الصفات : اثبات ما أثبتته الله تعالى ورسوله ، ونفي ما نفاه الله تعالى .	٨٧
الاسراء والمعراج حق .	٩١
الحوض الذي أكرم الله به رسوله صلى الله عليه وسلم .	٩٥
الشفاعة وأنواعها .	٩٨
شفاعة الرسول لأهل الكيثار من أمته .	١٠٢
حكم الاستشفاع برسول الله وغيره في الدنيا .	١٠٥
الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر .	١٠٨
الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته .	١٠٩
الاقرار بالربوبية أمر فطري والشرك حادث طاريء .	١١٦
قد علم الله في الازل أهل الجنة وأهل النار .	١١٨
كل انسان ميسر لما خلق له والاعمال بالخواتيم .	١١٨
أصل القدر سر الله في خلقه والنهي عن السؤال لما فعل	١٢٠

١٤١	منشأ ضلال الفرق : التسوية بين المشيئة والأرادة وبين المحبة والرضى
١٢٢	المراد نوعان : مراد لنفسه ومراد لغيره
١٢٤	القول في الوسوسة .
١٢٧	مبنى العبودية والإيمان على التسليم
١٢٩	الإيمان باللوح والقلم
١٣٠	اختلاف العلماء في القلم هل هو أول المخلوقات
١٣٢	جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة
١٣٦	الرد على من يظن ان التوكل ينافي تعاطي الأسباب
١٣٨	سبق علم الله بالكائنات قبل خلقها
١٣٩	القدورية مجوس هذه الأمة
١٤٠	القدر يتضمن اصولا عظيمة
١٤١	للقلب حياة وموت ومرض وشفاء . مرض القلب نوعان
١٤٢	علامة مرض القلب
١٤٤	العرش والكرسي حق
١٤٧	استغناء الله عن العرش واحتاطه بكل شيء
١٥٢	بحث الفوقية
١٥٦	كلام السلف في اثبات صفة العلو
١٥٨	بحث في كون السماء قبلة الدعاء
١٥٨	ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وكلم موسى تكليما
١٥٩	محبة الله وخلته كما يليق به
١٦٢	وجوب الايمان بالملائكة والنبين والكتب المنزلة
١٦٢	اصول اهل السنة والجماعة
١٦٦	اولو العزم من الرسل
١٦٧	اهل القبلة مسلمون مؤمنون

١٩٧	لا تخوض في الله ولأئماري في دين الله
١٦٨	لأنجادل في القرآن ونشهد انه كلام رب العالمين
١٧١	ولا تكفر احدا من اهل القبلة بذنب ما لم يستحلله
١٧٥	الجواب عن الاشكال ، بأن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفرا
١٧٩	الحكم بغير ما نزل الله قد يكون كفرا يخرج عن الملة
١٨٠	نرجو للمحسنين العفو والجنة
١٨٢	عشرة اسباب تسقط معها العقوبة
١٨٦	الامن والياس ينقلان عن الملة
١٨٧	تعريف الايمان واختلاف الناس فيه
١٩٠	نور الايمان في القلوب درجات
١٩١	الكلام في زيادة الايمان اجمالا وتفصيلا
١٩٣	ادلة اصحاب ابي حنيفة ومناقشتها
١٩٥	الأدلة على زيادة الايمان ونقصانه من الكتاب والسنة كثيرة جداً
٢٠٠	اقوال العلماء في مسمى الاسلام
٢٠١	حال اقتران الاسلام بالايمان غير حالة افراد احدهما عن الآخر
٢٠٧	حكم الاستثناء في الايمان
٢٠٨	اهل البدع يعرضون النصوص على بدعتهم
٢٠٨	طريق اهل السنة لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه
	بمعقول
٢٠٩	خبر الواحد اذا تلقته الامة بالقبول عملاً به وتصديقاً له افاد العلم اليقيني
٢١٠	نفاة الصفات جعلوا قوله تعالى (ليس كمثله شيء) مستنداً لهم في رد الاحاديث الصحيحة

المؤمنون كالهم اولياء الرحمن	٢١٢
تفسير معنى الولاية	٢١٣
اركان الايمان	٢١٦
الكتاب والسنة مملوءان بما يدل على ان حكم الايمان لا يثبت الا بالعمل مع التصديق	٢١٧
الايمان بالقدر خيره وشره	٢١٩
اهل الكبائر من امة مجد لا يخلدون في النار	٢٢٥
اختلاف العلماء في تعريف الكبائر والصغائر	٢٢٦
الصلاة خلف كل بر وفاجر من اهل القبلة	٢٢٩
من اظهر بدعة او فجورا لا يرتب اماما للمسلمين	٢٣١
امام الصلاة والحاكم وامير الحرب يطاع في مواضع الاجتهاد	٢٣٢
يصلى على من مات من الابرار والفجار	٢٣٣
لا نشهد لاحد معين بأنه من اهل الجنة او من اهل النار	٢٣٤
امرنا ان نحكم بالظاهر ونهينا عن اتباع الظن	٢٣٥
وجوب طاعة ولي الامر وان جار الا في معصية	٢٣٧
تبع السنة والجماعة وتجنب الشذوذ والخلاف والفرقة	٢٣٨
نحب اهل العدل والامانة ونبغض اهل الجور والخيانة	٢٤٠
لا نقول في شيء بغير علم	٢٤١
تواتر المسح على الخفين	٢٤٢
الحج والجهاد ماضيان مع اولي الامر من المسلمين الى قيام الساعة	٢٤٤
الايمان بالكرام الكاتبين	٢٤٤
الايمان بملك الموت	٢٤٧
الايمان بعذاب القبر ونعيمه	٢٤٨
سؤال منكر ونكير	٢٤٩

الدور ثلاثة ، دار الدنيا ، دار البرزخ ، ودار القرار	٢٥٢
اختلاف الناس في مستقر الارواح ما بين الموت الى قيام الساعة	٢٥٣
الايمان بالبعث والجزاء والآيات الدالة على معاد البدن عند	٢٥٤
القيامة الكبرى	
وضرب لنا مثلا ونسي خلقه	٢٥٧
العرض والحساب	٢٥٩
الصراط	٢٦٣
تفسير قوله تعالى (وان منكم الا واردها)	٢٦٥
الميزان	٢٦٦
الجنة والنار مخاوتان لا تفنيان ولا تبديدان	٢٦٩
اختلاف الناس في ابدية النار	٢٧٣
ان الله خلق للجنة أهلا وللنار أهلا	٢٧٤
الاستطاعة التي هي مناط التكليف	٢٧٦
افعال العباد خلق لله وكسب من العباد	٢٧٨
الرد على القدريّة والمعتزلة	٢٧٨
الذنب يكسب الذنب	٢٧٨
العبد فاعل لفعله حقيقة ولكنه مخلوق لله	٢٧٩
لا يكلف الله العبد الا ما يطيق	٢٧٩
القضاء الكوني والقضاء الشرعي	٢٨٠
تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد	٢٨١
في دعاء الاحياء وصدقاتهم منفعة للاموات	٢٨٣
الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه	٢٨٤
وصول ثواب الصدقة والصوم والحج	٢٨٥
استئجار قوم للقرآن ويهدونه للميت لم يفعله أحد من السلف	٢٨٨

٢٨٩	قراءة القرآن واهدائها للميت تطوعاً بغير أجره يصل الى الميت
٢٩٠	الله يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات
٢٩١	الرد على من يدعي أن الدعاء لا فائدة فيه
٢٩١	من يسأل الله ولا يعطيه أو يعطيه غير ما سأل
٢٩٣	الله يملك كل شيء ولا يملكه شيء ويغضب ويرضى لا كأحد من الورى
٢٩٥	نحب أصحاب رسول الله من غير افراط
٣٠٠	خلافة أبي بكر الصديق وثبوتها بالنص
٣٠٤	خلافة عمر الفاروق
٣٠٥	خلافة عثمان ذي النورين
٣٠٩	خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
٣١٢	هم الخلفاء الراشدون
٣١٣	العشرة المبشرون بالجنة
٣١٦	لأنذكر علماء السلف من السابقين ومن بعدهم الا بالجمل
٣١٧	نبي واحد افضل من جميع الاولياء
٣١٨	الايمان بكرامات الاولياء
٣٢١	من اشراط الساعة خروج الدجال ونزول عيسى وخروج الدابة
٣٢٤	لأنصدق كاهناً ولا عرافاً
٣٢٥	أقوال العلماء في حقيقة السحر
٣٢٦	الجماعة حق وصواب والفرقة زيغ وعذاب
٣٢٧	الامور المتنازع فيها بين الامة يجب ردها الى الله والرسول
٣٢٨	انواع الاختلاف والافتراق
٣٣١	دين الله في الارض والسماء واحد وهو دين الاسلام
٣٣١	وهو بين الغلو والتقصير
٣٣٣	وبين التشبيه والتعطيل
٣٣٣	وبين الجبر والقدر
٣٣٤	ذكر بعض الفرق الزائغة عن الحق



الناري الشبائي